

قصة آدم عليه السلام
وما فيها
من العقائد والآداب والأحكام

كتبه: أبو محمد عبد الحميد بن يحيى
الزعكري الحجوري

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه الكريم وأشهد ألا إله إلا الله الملك الحق المبين، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وصفيه من خلقه وخليله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين أما بعد: يقول الله تعالى: { إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا } [النساء: ١٦٣، ١٦٤]

وقال تعالى: { فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } [الأعراف: ١٧]، وقال جل ذكره: ن { نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ } [يوسف: ٣]، وقال تعالى: { لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [يوسف: ١١١]، وقال تعالى: { وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ

الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ
 { [هود: ١٢٠] .

ففي هذه الآيات دلالة عظيمة على أهمية معرفة قصص المتقدمين من الصالحين لاسيما قصص الأنبياء والمرسلين الذين أمرنا الله عزوجل بالاهتداء بهديهم بقوله لنبينا صلى الله عليه وسلم { أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ اقْتَدِهْ } [الأنعام: ٩٠] ولن يكون ذلك إلا بمعرفة طريقهم الذي سلكوه في عبادة الله تعالى والأمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم أمر لأمته ما لم يأت الدليل بالخصوصية فمن هذا الباب أحببت أن أفرد قصة آدم عليه السلام وما فيها من العبر والفوائد:

فهو أبو البشر، واستشرف المرء بمعرفة ما كان عليه أبوه معلوم.
 خلقه الله بيده.

ونفخ فيه من روحه.

وأمر الملائكة أن يسجدوا له.

وعلمه أسماء كل شيء.

ابتلاه الله تعالى بإبليس فسعى في إخراجه من الجنة حتى أكل من الشجرة التي نهاه الله عنها فاهبط إلى الأرض، وكان ما يأتي بيانه إن شاء الله ثم هو من الأنبياء الذين أمرنا بالاقْتِدَاءِ والاهْتِدَاءِ بهم فقد سئل رسول الله

صلى الله عليه وسلم نبي كان آدم قال نعم مكلما وبإفراد هذه القصة
أملني في الله تعالى أن ينفعني بها والمسلمين والحمد لله رب العالمين:

عبد الحميد بن يحيى الزعكري الحجوري مكة المكرمة الشرايع ٢٣/جمادى

الأولى/٤٣٧هـ

القصة كما وردت في القرآن

قوله تعالى في سورة البقرة: ((وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤) وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ { قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [البقرة: ٣٠، ٣٩]

وهذا شروع منه تعالى في ذكر قصة آدم عليه السلام وذلك بعد أن ذكر الله تعالى ما تقدم بيانه من بيان حال الناس في آداء حق الله تعالى فذكر منهم ذكر المؤمنين الخالص، والمنافين، والكافرين ثم دعا الله الناس إلى إفراده بأنواع العبادة على ما تقدم بيانه مستدلا على ذلك بربوبيته وبين تعالى ذكره منته على الناس بتسخير كل شيء لهم وبين خلقه للسموات والأرض فذكر هنا ما يتعلق بخلق آدم عليه السلام إذ هو ابتداء خلق الجنس البشري وقد ذكر الله تعالى هذه القصة في مواطن من كتابه نذكر ما ذكره ابن كثير رحمه الله كما كتاب قصص الأنبياء: حيث ذكر الآيات السابقات من سورة البقرة ثم قال: وَقَالَ تَعَالَى: " إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ "

وَقَالَ تَعَالَى: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا "

كَمَا قَالَ: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ "

وَقَالَ تَعَالَى: " هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ... الْآيَةَ ". أقول وتتمة الآية { فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلًا

خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَاحِحًا لَنُكُونَنَّ مِنْ الشَّاكِرِينَ } [الأعراف: ١٨٩] وفي الاستدلال بهذه الآية نظر إذ ليس المراد بها آدم وحواء قال ابن كثير (٣ / ٥٢٥) ذَكَرَ الْمُفَسِّرُونَ هَاهُنَا آثَارًا وَأَحَادِيثَ سَأَوْرِدُهَا وَأُبَيِّنُ مَا فِيهَا، ثُمَّ نُسِّعُ ذَلِكَ بَيَانَ الصَّحِيحِ فِي ذَلِكَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَبِهِ الثَّقَةُ قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الصَّمَدِ، حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، حَدَّثَنَا قَتَادَةُ، عَنِ الْحَسَنِ، عَنِ سُمْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "وَلَمَّا وَلَدَتْ حَوَاءُ طَافَ بِهَا إِبْلِيسُ - وَكَانَ لَا يَعِيشُ لَهَا وَلَدٌ - فَقَالَ: سَمِيهِ عَبْدَ الْحَارِثِ؛ فَإِنَّهُ يَعِيشُ، فَسَمَّيْتُهُ عَبْدَ الْحَارِثِ، فَعَاشَ وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ وَحْيِ الشَّيْطَانِ وَأَمْرِهِ".

وَهَكَذَا رَوَاهُ (١) ابْنُ جَرِيرٍ، عَنِ مُحَمَّدِ بْنِ بَشَّارٍ، بُنْدَارٍ، عَنِ عَبْدِ الصَّمَدِ بْنِ عَبْدِ الْوَارِثِ، بِهِ.

وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٢) هَذِهِ الْآيَةَ عَنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْمَثْنَى، عَنِ عَبْدِ الصَّمَدِ، بِهِ وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ عُمَرَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَنِ قَتَادَةَ، وَرَوَاهُ بَعْضُهُمْ عَنِ عَبْدِ الصَّمَدِ، وَلَمْ يَرْفَعْهُ.

وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الصَّمَدِ مَرْفُوعًا ثُمَّ قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.

وَرَوَاهُ الْإِمَامُ أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي تَفْسِيرِهِ، عَنِ أَبِي زُرْعَةَ الرَّازِيِّ، عَنِ هِلَالِ بْنِ فَيَاضٍ، عَنِ عُمَرَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، بِهِ مَرْفُوعًا.

وَكَذَا رَوَاهُ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ مَرْدَوَيْهِ فِي تَفْسِيرِهِ مِنْ حَدِيثِ شَاذِّ بْنِ
فَيَّاضٍ، عَنْ عُمَرَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، بِهِ مَرْفُوعًا
قُلْتُ: "وَشَاذُّ" هَذَا هُوَ: هَلَالٌ، وَشَاذُّ لِقَبِّهِ. وَالْغَرَضُ أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ
مَعْلُومٌ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّ عُمَرَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ هَذَا هُوَ الْبَصْرِيُّ، وَقَدْ وَثَّقَهُ ابْنُ مَعِينٍ، وَلَكِنْ
قَالَ أَبُو حَاتِمٍ الرَّازِيُّ: لَا يُتَّخَذُ بِهِ. وَلَكِنْ رَوَاهُ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ مِنْ حَدِيثِ
الْمُعْتَمِرِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ الْحَسَنِ، عَنْ سُمْرَةَ مَرْفُوعًا فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الثاني: أَنَّهُ قَدْ رُوِيَ مِنْ قَوْلِ سُمْرَةَ نَفْسِهِ، لَيْسَ مَرْفُوعًا، كَمَا قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ:
حَدَّثَنَا ابْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى، حَدَّثَنَا الْمُعْتَمِرُ، عَنْ أَبِيهِ. وَحَدَّثَنَا ابْنُ عُثَيْبَةَ عَنْ
سُلَيْمَانَ التَّمِيمِيِّ، عَنْ أَبِي الْعَلَاءِ بْنِ الشَّخِيرِ، عَنْ سُمْرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ، قَالَ:
سَمَى آدَمَ ابْنَهُ "عَبْدَ الْحَارِثِ".

الثالث: أَنَّ الْحَسَنَ نَفْسَهُ فَسَّرَ الْآيَةَ بِغَيْرِ هَذَا، فَلَوْ كَانَ هَذَا عِنْدَهُ عَنْ
سُمْرَةَ مَرْفُوعًا، لَمَا عَدَلَ عَنْهُ، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا ابْنُ وَكَيْعٍ، حَدَّثَنَا سَهْلُ
بْنِ يُونُسَ، عَنْ عَمْرِو، عَنِ الْحَسَنِ: { جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا } قَالَ:
كَانَ هَذَا فِي بَعْضِ أَهْلِ الْمَلَلِ، وَلَمْ يَكُنْ بِآدَمَ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ
الْأَعْلَى، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ ثَوْرٍ، عَنْ مَعْمَرٍ قَالَ: قَالَ الْحَسَنُ: عَنَى بِهَا ذَرِيَّةَ
آدَمَ، وَمَنْ أَشْرَكَ مِنْهُمْ بَعْدَهُ - يَعْنِي: قَوْلُهُ { جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا }

وَحَدَّثَنَا بِشْرٌ حَدَّثَنَا يَزِيدُ، حَدَّثَنَا سَعِيدٌ، عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: كَانَ الْحَسَنُ يَقُولُ: هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، رَزَقَهُمُ اللَّهُ أَوْلَادًا، فَهَوِّدُوا وَنَصِّرُوا.

وَهَذِهِ أَسَانِيدُ صَحِيحَةٌ عَنِ الْحَسَنِ، رَحِمَهُ اللَّهُ، أَنَّهُ فَسَّرَ الْآيَةَ بِذَلِكَ، وَهُوَ مِنْ أَحْسَنِ التَّفَاسِيرِ وَأَوْلَى مَا حُمِلَتْ عَلَيْهِ الْآيَةُ، وَلَوْ كَانَ هَذَا الْحَدِيثُ عِنْدَهُ مُحْفُوظًا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَمَا عَدَلَ عَنْهُ هُوَ وَلَا غَيْرُهُ، وَلَا سِيَّمَا مَعَ تَقْوَاهُ لِلَّهِ وَوَرَعِهِ، فَهَذَا يَدُلُّكَ عَلَى أَنَّهُ مَوْقُوفٌ عَلَى الصَّحَابِيِّ، وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ تَلَقَّاهُ مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْكِتَابِ، مَنْ آمَنُ مِنْهُمْ، مِثْلِ: كَعْبِ أَوْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ وَغَيْرِهِمَا، كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَّا أَنَّنَا بَرِينَا مِنْ عَهْدَةِ الْمَرْفُوعِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. انتهى

ومما يدل على نكارة القصة سوى ما ذكر رحمه الله أوجه **الأول**: أن آدم عليه السلام نبي والأنبياء معصومون من الشرك واعتقاد ما في القصة شرك في الربوبية.

الوجه الثاني: أن الله تعالى ذكر حطيئة آدم عليه السلام بأكله من الشر ولم يذكر هذه مع أنها أشد.

الوجه الثالث: أن الله تعالى ذكر توبة آدم عليه السلام من الأكل من الشجرة والإخبار عن توبته من الشرك أولى.

الوجه الرابع: كيف يصدقانه وهو يقول أنا صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة. إلى غير ذلك فهي قصة ضعيفة سندا ومتنا.

وَقَالَ تَعَالَى: " وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ؟ قَالَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا، فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * قَالَ فِيمَا أُغْوَيْتَنِي لِأَفْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَا تَبْيَهُنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ، وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ * قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ * وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوَآتِهِمَا، وَقَالَ مَا نَهَا كَمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ، فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوَآتُهُمَا، وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ، وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ؟ وَأَقْبَلَ لَكُمَا مِنَ الشَّيْطَانِ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ؟ * قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا، وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا

وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * قَالَ اهْبُطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ،
وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ * قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ
ومنها تخرجونَ ."

كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: " مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نَعِيدُكُمْ وَمِنْهَا
نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ."

وَقَالَ تَعَالَى: " وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ *
وَالْجَنَّاتِ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ * وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي
خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ
رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا
إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسَ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ
مَعَ السَّاجِدِينَ؟ * قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ ن صَلْصَالٍ مِنْ
حَمَإٍ مَسْنُونٍ. قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ
الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمٍ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ *
إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ
وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ * قَالَ هَذَا صِرَاطٌ
عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ
الْغَاوِينَ * وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ
مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ .

وَقَالَ تَعَالَى: " وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا؟ * قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ، لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا * قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا * وَاسْتَفْزَزَ مَنْ اسْتَطَاعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ، وَأَجْلَبَ عَلَيْهِمْ بَخِيلِكَ وَرَجْلِكَ، وَشَارَكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ، وَعِدهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَمْى بِرَبِّكَ وَكَيْلًا "

وَقَالَ تَعَالَى: " وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ، فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ، أَفَتَسْخَدُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ؟ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ."

وَقَالَ تَعَالَى: " وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ وَلمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى * فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ، فَلَا يُخْرِجَنَّكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ إِلَّا تَجُوعٌ فِيهَا وَلَا تَعْرِى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى * فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى؟ * فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوَاتُهُمَا، وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ، وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى * قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ، فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ

ابتع هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ
مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى
وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهُمَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ
تَنسَى .

وَقَالَ تَعَالَى: " قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ * مَا كَانَ لِي مِنْ
عِلْمٍ بِالْمَلَائِكَةِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ * إِنَّ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ *
إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فإِذَا سَوَّيْتُهُ
وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ
أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا
مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي؟ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ؟ *
قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا
فإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى
يَوْمٍ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ
فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ فَالْحَقُّ
وَالْحَقُّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ * قُلْ مَا
أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ * إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ
لِّلْعَالَمِينَ * ولتعلمن نبأه بعد حين. فَهَذَا ذِكْرُ هَذِهِ الْقِصَّةِ مِنْ مَوَاضِعَ
مُتَفَرِّقَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ، اهـ فهذا جمع لما تفرق في سور القرآن وبالجمع بينها

يعرف العبد أطوار خلق آدم عليه السلام على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

قال الشنقيطي رحمه الله في دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب (ص: ١٣١) قَوْلُهُ تَعَالَى: وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ. ظَاهِرُ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ آدَمَ خُلِقَ مِنْ صَلْصَالٍ، أَيْ طِينٍ يَابِسٍ. وَقَدْ جَاءَ فِي آيَاتٍ أُخَرَ مَا يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: (مِنْ طِينٍ لَازِبٍ) وَكَقَوْلِهِ: كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ).

وَالْجَوَابُ أَنَّهُ ذَكَرَ أَطْوَارَ ذَلِكَ التُّرَابِ، فَذَكَرَ طَوْرَهُ الْأَوَّلَ بِقَوْلِهِ: مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ بَلَّ فَصَارَ طِينًا لَازِبًا، ثُمَّ حُمِّرَ فَصَارَ حَمَاءً مَسْنُونًا، ثُمَّ يَبَسَ فَصَارَ صَلْصَالًا كَالْفَخَّارِ. وَهَذَا وَاضِحٌ، وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى.

ونشر بعون الله تعالى في بيان وتفسير آيات سورة البقرة إذ هي المقصودة هنا قوله تعالى: (وإذ)

قال القرطبي رحمه الله في تفسيره (١ / ٢٦١)

قَوْلُهُ تَعَالَى " وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ " إِذْ وَإِذَا حَرْفَا تَوْقِيْتٍ، فَإِذَا لِلْمَاضِي، وَإِذَا لِلْمُسْتَقْبَلِ، وَقَدْ تُوَضِّعُ إِحْدَاهُمَا مَوْضِعَ الْأُخْرَى. وَقَالَ الْمُبَرِّدُ: إِذَا جَاءَ " إِذْ " مَعَ مُسْتَقْبَلٍ كَانَ مَعْنَاهُ مَاضِيًا، نَحْوُ قَوْلِهِ: " وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ "

[الأنفال: ٣٠] " وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ " [الأحزاب: ٣٧] معناه
 إِذْ مَكَّرُوا، وَإِذْ قُلْتِ. وَإِذَا جَاءَ " إِذَا " مَعَ الْمَاضِي كَانَ مَعْنَاهُ مُسْتَقْبَلًا،
 كَقَوْلِهِ تَعَالَى: " فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ " [النازعات: ٣٤] " فَإِذَا جَاءَتِ
 الصَّاحَّةُ " [عبس: ٣٣] و " إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ " [النصر: ١] أي يَجِيءُ.
 وَقَالَ مَعْمَرُ بْنُ الْمُثَنَّى أَبُو عُبَيْدَةَ: " إِذْ " زَائِدَةٌ، وَالتَّقْدِيرُ: وَقَالَ رَبُّكَ،
 وَاسْتَشْهَدَ بِقَوْلِ الْأَسْوَدِ بْنِ يَعْفَرَ:

فَإِذْ وَذَلِكَ لَا مَهَاةَ لِدِكْرِهِ ... وَالدَّهْرُ يُعَقِبُ صَالِحًا بِفَسَادٍ

وَأَنْكَرَ هَذَا الْقَوْلَ الرَّجَّاجُ وَالنَّحَّاسُ وَجَمِيعُ الْمُفَسِّرِينَ. قَالَ النَّحَّاسُ: وَهَذَا
 خَطَأٌ، لِأَنَّ " إِذْ " اسْمٌ وَهِيَ ظَرْفٌ زَمَانٍ لَيْسَ مِمَّا تَزَادُ. وَقَالَ الرَّجَّاجُ: هَذَا
 اجْتِرَامٌ مِنْ أَبِي عُبَيْدَةَ، ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَلْقَ النَّاسِ وَغَيْرِهِمْ، فَالتَّقْدِيرُ
 وَابْتِدَاءُ خَلْقِكُمْ إِذْ قَالَ، فَكَانَ هَذَا مِنَ الْمَحذُوفِ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ الْكَلَامُ،
 كَمَا قَالَ:

فَإِنَّ الْمَنِيَّةَ مَنْ يَخْشَاهَا ... فَسَوْفَ تُصَادِفُهُ أَيْنَمَا

يُرِيدُ أَيْنَمَا ذَهَبَ. وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ مُتَعَلِّقَةً بِفِعْلِ مُقَدَّرٍ تَقْدِيرُهُ وَادْكُرْ
 إِذْ قَالَ. وَقِيلَ: هُوَ مَرْدُودٌ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: " اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ "
 [البقرة: ٢١] فَالْمَعْنَى الَّذِي خَلَقَكُمْ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ. انتهى

قوله تعالى: (قال ربك) فيه اثبات كلام الله وخطابه مع الملائكة وانه بحرف وصوت وقد تقدم بيانه مفصلا عند قوله تعالى ذلك الكتاب في أول سورة البقرة، وكلامه تعالى صفة له غير مخلوق منه بدأ قولاً بحرف وصوت سمعه الملائكة وكلم موسى تكليماً وكلم آدم وكلم السموات والأرض وكلم محمد صلى الله عليه وسلم وأخبر تعالى أنه قال ويقول وتكلم ويتكلم وأنه ينادي وينادي وكل ذلك يمنع دعوى المجاز الذي تقمص به المبتدعة لنفي كلام الله تعالى بل وجميع صفاته وقد دلّ على إثبات كلام الله تعالى صفة لربنا جل وعلا الكتاب والسنة والإجماع على ما تقدم بسطه زد على ذلك العقل فإن الكلام كمال ومعطي الكمال أولى به ويلزم إن لم يتصف بالكمال الاتصاف بنقيضه تعالى الله عن تحريف المبطلين وتأويل الغالين ثم إن الكلام معن يقوم بغيره وإضافته من باب إضافة الصفات لا من إضافة الملك على ما هو مقرر في قواعد الأسماء والصفات.

قوله: (ربك) الرب من أسماء الله تعالى الحسنى والرب هو السيد والمالك والمنعم والمربي والمصلح والله تعالى هو الرب بهذه الاعتبار كلها. وربوبيته سبحانه تتحقق بكونه فعّالاً مدبراً متصرفاً في خلقه يعلم ويقدر ويريد ويسمع فإذا انتفت أفعاله وصفاته انتفت ربوبيته وإذا

انتفت عنه صفة الكلام انتفى الأمر والنهي ولوازمها وذلك ينفي حقيقة الإلهية أفاده ابن القيم رحمه الله تعالى.

وقال رحمه الله تعالى في طريق المهجرتين (١٠٨) الرب هو الذي يُرَبُّ عبده فيُعطيهِ خلقه ثم يهديه إلى جمع أحواله وصالحه التي بها كماله ويهديه إلى اجتناب المفاسد التي بها فساده وهلاكه انتهى

وربوبية الله تعالى للعالم على قسمين الربوبية العامة المقتضية للخلق والملك والإحاطة مثل قوله: رب السموات والأرض وما بينهما). وربوبية خاصة وهي المقتضية للحفظ والكلاءة والنصر وهذا الموطن منها وهي من المواطن الدالة على شرف ومنزلة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

قوله تعالى: (للملائكة) قال القرطبي الملائكة واحدها ملك. قال ابن كيسان وغيره: وزن ملك فعل من الملك. وقال أبو عبيدة، هو مفعل من لأك إذا أرسل. والألوكه والمألكة والمرسالة، قال لبيد:

وَعُلاَمٍ أَرْسَلْتُهُ أُمَّهُ ... بِاللُّوكِ فَبَدَّلْنَا مَا سَأَلْ

وَقَالَ آخَرُ «٣»:

أَبْلَغِ النُّعْمَانَ عَنِّي مَأْلِكًا ... إِنِّي قَدْ طَالَ حَبْسِي وَانْتَظَرِي

وَيُقَالُ: أَلْكِنِي أَي أَرْسَلَنِي، فَأَصْلُهُ عَلَى هَذَا مَأْلُكٌ، الْهُمَزَةُ فَاءُ الْفِعْلِ فَإِنَّهُمْ قَلَبُوهَا إِلَى عَيْنِهِ فَقَالُوا: مَأْلُكٌ، ثُمَّ سَهَّلُوهُ فَقَالُوا مَلَكٌ. وَقِيلَ أَصْلُهُ مَلَكَ مِنْ مَلَكٍ يَمْلِكُ، نَحْوَ شَمَالٍ مِنْ شَمَلٍ، فَالْهُمَزَةُ زَائِدَةٌ عَنِ ابْنِ كَيْسَانَ أَيْضًا، وَقَدْ تَأْتِي فِي الشُّعْرِ عَلَى الْأَصْلِ، قَالَ الشَّاعِرُ:

فَلَسْتُ لِإِنْسِي وَلَكِنْ لَمَأْلُكٌ ... تَنْزَلُ مِنْ جَوِّ السَّمَاءِ يَصُوبُ

وَقَالَ النَّضْرُ بْنُ شُمَيْلٍ. لَا اسْتِثْقَاقَ لِلْمَلِكِ عِنْدَ الْعَرَبِ. وَالْهَاءُ فِي الْمَلَائِكَةِ تَأْكِيدٌ لِتَأْنِيثِ الْجَمْعِ، وَمِثْلُهُ الصَّلَادِمَةُ. وَالصَّلَادِمُ: الْحَيْلُ الشَّدَادُ، وَاحِدُهَا صِلْدِمٌ. وَقِيلَ: هِيَ لِلْمُبَالِغَةِ، كَعَلَامَةٍ وَنَسَابَةٍ. انتهى

والملائكة خلق عظيم خلقهم الله من نور ففي مسلم (٢٩٩٦) عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ» وكان خلقه لهم بقوله كن كما قال تعالى: (إِمَّا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

وَهُمُ الْمُؤَكَّلُونَ بِالسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَكُلُّ حَرَكَةٍ فِي الْعَالَمِ فَهِيَ نَاشِئَةٌ عَنِ الْمَلَائِكَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: { فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا }، { فَالْمُقَسَّمَاتِ أَمْرًا } . وَهُمْ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَأَتْبَاعِ الرَّسُولِ، وَأَمَّا الْمُكَذَّبُونَ بِالرُّسُلِ الْمُنْكَرُونَ لِلصَّانِعِ فَيَقُولُونَ: هِيَ النُّجُومُ. وَقَدْ دَلَّ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ عَلَى

أَصْنَافِ الْمَلَائِكَةِ، وَأَنَّهَا مُوَكَّلَةٌ بِأَصْنَافِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَكَلَّ بِالْجِبَالِ مَلَائِكَةً، وَوَكَّلَ بِالسَّحَابِ وَالْمَطَرِ مَلَائِكَةً، وَوَكَّلَ بِالرَّحِمِ مَلَائِكَةً تُدَبِّرُ أَمْرَ النُّطْفَةِ حَتَّى يَتِمَّ خَلْقُهَا، ثُمَّ وَكَّلَ بِالْعَبْدِ مَلَائِكَةً لِحِفْظِ مَا يَعْمَلُهُ وَإِحْصَائِهِ وَكِتَابَتِهِ، وَوَكَّلَ بِالْمَوْتِ مَلَائِكَةً، وَوَكَّلَ بِالسُّؤَالِ فِي الْقَبْرِ مَلَائِكَةً، وَوَكَّلَ بِالْأَفْلاكِ مَلَائِكَةً يُحْرَكُونَهَا، وَوَكَّلَ بِالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ مَلَائِكَةً، وَوَكَّلَ بِالنَّارِ وَإِيقَادِهَا وَتَعْذِيبِ أَهْلِهَا وَعِمَارَتِهَا مَلَائِكَةً، وَوَكَّلَ بِالْجَنَّةِ وَعِمَارَتِهَا وَغَرَسِهَا وَعَمَلِ آيَاتِهَا مَلَائِكَةً، فَالْمَلَائِكَةُ أَعْظَمُ جُنُودِ اللَّهِ، وَمِنْهُمْ: الْمُرْسَلَاتُ عُرْفًا وَالنَّاشِرَاتُ نَشْرًا وَالْفَارِقَاتُ فَرْقًا وَالْمُلْقِيَاتُ ذِكْرًا. وَمِنْهُمْ: النَّازِعَاتُ غَرْفًا، وَالنَّاشِطَاتُ نَشْطًا، وَالسَّابِحَاتُ سَبْحًا، فَالسَّابِقَاتُ سَبْقًا. وَمِنْهُمْ: الصَّافَاتُ صَفًا، فَالزَّاجِرَاتُ زَجْرًا، فَالتَّالِيَاتُ ذِكْرًا.

وَمَعْنَى جَمْعِ التَّائِيثِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ: الْفِرْقُ وَالطَّوَائِفُ وَالْجَمَاعَاتُ، الَّتِي مَفْرَدُهَا: "فِرْقَةٌ" و"طَائِفَةٌ" و"جَمَاعَةٌ"، وَمِنْهُمْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ، وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، وَمَلَائِكَةُ قَدْ وُكِّلُوا بِحَمْلِ الْعَرْشِ، وَمَلَائِكَةُ قَدْ وُكِّلُوا بِعِمَارَةِ السَّمَاوَاتِ بِالصَّلَاةِ وَالتَّسْبِيحِ وَالتَّقْدِيسِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَصْنَافِ الْمَلَائِكَةِ الَّتِي لَا يُحْصِيهَا إِلَّا اللَّهُ. وَلَفْظُ "الْمَلِكِ" يُشْعِرُ بِأَنَّهُ رَسُولٌ مُنْفَذٌ لِأَمْرِ مُرْسَلِهِ، فَلَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ، بَلِ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ، وَهُمْ يُنْفَذُونَ أَمْرَهُ: { لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ }، { يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشِيَّتِهِ

{ مُشْفِقُونَ } ، { يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } فَهُمْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ، مِنْهُمْ الصَّافُونَ، وَمِنْهُمْ الْمُسَبِّحُونَ، لَيْسَ مِنْهُمْ إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ، وَلَا يَتَخَطَّاهُ، وَهُوَ عَلَى عَمَلٍ قَدْ أُمِرَ بِهِ. لَا يُقَصِّرُ عَنْهُ وَلَا يَتَعَدَّاهُ، وَأَعْلَاهُمْ الَّذِينَ عِنْدَهُ: { لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ } ، ومنهم الأملاك الثلاثة:

جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، الموكَّلون بالحياة، فـجبريلُ موكَّلٌ بالوحي الذي به حياة القلوب والأزواج، وميكائيلُ موكَّلٌ بالقطر الذي به حياة الأرض والنبات والحيوان، وإسرافيلُ موكَّلٌ بالنفخ في الصور الذي به حياة الخلق بعد مماتهم.

فَهُمْ رُسُلُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ، وَسُفْرَاؤُهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عِبَادِهِ، يُنَزِّلُونَ الْأَمْرَ مِنْ عِنْدِهِ فِي أَقْطَارِ الْعَالَمِ، وَيَصْعَدُونَ إِلَيْهِ بِالْأَمْرِ، قَدْ أَطَّتِ السَّمَاوَاتُ بِهِمْ، وَحَقَّقَ لَهَا أَنْ تَتَطَّأَ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعِ إِلَّا وَمَلِكٌ قَائِمٌ أَوْ رَاكِعٌ أَوْ سَاجِدٌ لِلَّهِ، وَيَدْخُلُ الْبَيْتَ الْمَعْمُورَ مِنْهُمْ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفًا لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ آخَرَ مَا عَلَيْهِمْ.

وَالْقُرْآنُ مَمْلُوءٌ بِذِكْرِ الْمَلَائِكَةِ وَأَصْنَافِهِمْ وَمَرَاتِبِهِمْ، انتهى من شرح

الطحاوية لابن أبي العز

وهم مخلوقات عظيمة ففي الصحيحين قال أبو إسحاق الشيباني، قال: سألت زراً بن حُبَيْشٍ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى { فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى. فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى } [النجم: ١٠] قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ مَسْعُودٍ: أَنَّهُ «رَأَى جِبْرِيلَ، لَهُ سِتْمِائَةٌ جَنَاحِ»

وفي مسلم (١٧٧) عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: كُنْتُ مُتَكِّمًا عِنْدَ عَائِشَةَ، فَقَالَتْ: يَا أَبَا عَائِشَةَ، ثَلَاثٌ مَنْ تَكَلَّمَ بِوَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ، قُلْتُ: مَا هُنَّ؟ قَالَتْ: مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ، قَالَ: وَكُنْتُ مُتَكِّمًا فَجَلَسْتُ، فَقُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْظِرِينِي، وَلَا تُعْجِلِينِي، أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: { وَلَقَدْ رَأَاهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ } [التكوير: ٢٣]، { وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى } [النجم: ١٣]؟ فَقَالَتْ: أَنَا أَوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَأَلَ عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ، لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ، رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ سَادًّا عِظْمَ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ»، فَقَالَتْ: أَوْ لَمْ تَسْمَعْ أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: { لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ } [الأنعام: ١٠٣]، أَوْ لَمْ تَسْمَعْ أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: { وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } [الشورى: ٥١]؟، قَالَتْ: وَمَنْ زَعَمَ

أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَتَمَ شَيْئًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ، وَاللَّهُ يَقُولُ: { يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ } [المائدة: ٦٧]، قَالَتْ: وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يُخْبِرُ بِمَا يَكُونُ فِي غَدٍ، فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ، وَاللَّهُ يَقُولُ: { قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ } [النمل: ٦٥].

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ جَابِرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلِكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ». وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَلَفْظُهُ: «تَخْفِقُ الطَّيْرُ سَبْعِمِائَةَ عَامٍ».

قوله تعالى: (إِنِّي جَاعِلٌ) أي خالق ومصير فيها خليفة وقد تقدم الكلام في معنى جعل وجاء عن أبي روق، قال: كل شيء في القرآن "جَعَلَ"، فهو خلق رواه الطبري لكنه ضعيف سندا ومنتنا فجعل إن نصبت مفعولا واحدا فهي بمعن خلق كما في قوله تعالى: (وجعل الظلمات والنور) وإذا نصبت مفعولين فهي بمعنى صير كما في قوله تعالى: (وجعلوا الملائكة الين هم عباد الرحمن إناثا) وعن الحسن، وقتادة، قالوا: قال الله تعالى ذكره لملائكته: "إني جاعلٌ في الأرض خليفة" قال لهم: إني فاعل وهذا المعنى هو الموافق لمعنى الآية وقد

استدل المعتزلة على خلق القرآن بقوله تعالى: (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا) وَأَمَّا اسْتِدْلَالُهُمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: { إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا } ، فَمَا أَفْسَدَهُ مِنْ اسْتِدْلَالٍ! فَإِنَّ (جَعَلَ) إِذَا كَانَ بِمَعْنَى خَلَقَ يَتَعَدَّى إِلَى مَفْعُولٍ وَاحِدٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: { وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ } ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: { وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ } { وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ } . وَإِذَا تَعَدَّى إِلَى مَفْعُولَيْنِ لَمْ يَكُنْ بِمَعْنَى خَلَقَ، قَالَ تَعَالَى: { وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا } . وَقَالَ تَعَالَى: { وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ } . وَقَالَ تَعَالَى: { الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ } وَقَالَ تَعَالَى: { وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ } وَقَالَ تَعَالَى: { وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ } . وَقَالَ تَعَالَى: { وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَانًا } . وَنظَائِرُهُ كَثِيرَةٌ . انتهى

وقوله تعالى: في الأرض خليفة

الأرض جميعها خلافا لمن زعم أن المراد بها مكة فقط قال الطبري وقيل: إن الأرض التي ذكرها الله في هذه الآية هي "مكة".

حدثنا ابن حميد قال: حدثنا جرير، عن عطاء، عن ابن سابط: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: دُحِيت الأرضُ من مكة، وكانت الملائكة تطوفُ بالبيت، فهي أوّل من طاف به، وهي "الأرضُ" التي قال الله: "إني جاعلٌ في الأرض خليفة"، وكان النبيّ إذا هلك قومه، ونجا هو والصالِحون، أتاها هو ومن معه فعبدوا الله بها حتى يموتوا. فإنّ قبر نُوحٍ وهودٍ وصالحٍ وشعيبٍ، بين زمزم والركن والمقام. قال ابن كثير: "وهذا مرسل، وفي سنده ضعف، وفيه مدرج، وهو أن المراد بالأرض مكة، والله أعلم - فإن الظاهر أن المراد بالأرض أعم من ذلك". أما إرساله: فإن "عبد الرحمن بن سابط": تابعي، وهو ثقة.

والخليفة الفعيلة من قولك: خلف فلان فلاناً في هذا الأمر، إذا قام مقامه فيه بعده. كما قال جل ثناؤه (ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) [سورة يونس: ١٤] يعني بذلك أنه أبدلكم في الأرض منهم، فجعلكم خلفاء بعدهم. ومن ذلك قيل للسلطان الأعظم: خليفة، لأنه خلف الذي كان قبله، فقام بالأمر مقامه، فكان منه خلفاً. يقال منه: خلف الخليفة، يخلف خِلافةً وخِليفاً انتهى من تفسير ابن جرير، وقال اشنقيطي في أضواء البيان: . قَوْلُهُ: (خَلِيفَةً) مُفْرَدٌ أُرِيدَ بِهِ الْجَمْعُ؛ أَي: خَلَائِفُ، وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ كَثِيرٍ. وَالْمُفْرَدُ إِذَا كَانَ اسْمٌ جِنْسٍ

يَكْثُرُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ إِطْلَاقُهُ مُرَادًا بِهِ الْجَمْعُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهْرٍ) [٥٤ \ ٥٤] يَعْنِي «وَأَنْهَارٍ» بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: (فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ) الْآيَةَ [٤٧ \ ١٥]. وَقَوْلِهِ: (وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا) [٢٥ \ ٧٤] ، وَقَوْلِهِ: (فَإِنْ طَبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا) [٤ \ ٤] وَنَظِيرُهُ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ قَوْلُ عَقِيلِ بْنِ عُلْفَةَ الْمُرِّيِّ: [الْوَافِرُ]

وَكَانَ بَنُو فِزَارَةَ شَرَّ عَمٍّ ... وَكُنْتُ لَهُمْ كَشْرَ بَنِي الْأَخِينَا

وَقَوْلُ الْعَبَّاسِ بْنِ مِرْدَاسِ السُّلَمِيِّ: [الْوَافِرُ]

فَقُلْنَا أَسْلِمُوا إِنَّا أَخُوكُمْ ... وَقَدْ سَلَمْتُ مِنَ الْإِحْنِ الصُّدُورُ

وَأَنْشَدَ لَهُ سَبِيؤِيهِ قَوْلَ عَلْقَمَةَ بْنِ عَبْدِ التَّمِيمِيِّ: [الطَّوِيلُ]

بِهَا جِيفُ الْحُسْرَى فَأَمَّا عِظَامُهَا ... فَبَيْضٌ وَأَمَّا جِلْدُهَا فَصَلِيبُ

وَقَوْلُ الْآخَرِ: [الْوَافِرُ]

كُلُوا فِي بَعْضِ بَطْنِكُمْ تَعَفُّوا ... فَإِنَّ زَمَانَكُمْ زَمَنُ حَمِيصُ

وَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ تَحْتَمِلُ الْوَجْهَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ. فَاعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ

دَلَّتْ آيَاتٌ أُخْرَى عَلَى **الْوَجْهِ** الثَّانِي، وَهُوَ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْحَلِيفَةِ: الْحَلَائِفُ

مِنْ آدَمَ وَبَنِيهِ لَا آدَمَ نَفْسُهُ وَحَدَّهُ. كَقَوْلِهِ تَعَالَى: (قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ

يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ) الْآيَةَ [٢ \ ٣٠].

وَمَعْلُومٌ أَنَّ آدَمَ عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِينَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَيْسَ مِمَّنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَلَا مِمَّنْ يَسْفِكُ الدِّمَاءَ، وَقَوْلِهِ: (هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ) الْآيَةَ [٣٥ \ ٣٩] ، وَقَوْلِهِ: (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ) الْآيَةَ [٦ \ ١٦٥] ، وَقَوْلِهِ: (وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ) الْآيَةَ [٢٧ \ ٦٢] . وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

وَيُمْكِنُ الْجَوَابُ عَنْ هَذَا بِأَنَّ الْمُرَادَ بِالْخَلِيفَةِ آدَمُ، وَأَنَّ اللَّهَ أَعْلَمَ الْمَلَائِكَةَ أَنَّهُ يَكُونُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ الْفَسَادَ، وَسْفِكَ الدِّمَاءَ. فَقَالُوا مَا قَالُوا، وَأَنَّ الْمُرَادَ بِخِلَافَةِ آدَمَ الْخِلَافَةَ الشَّرْعِيَّةَ، وَبِخِلَافَةِ ذُرِّيَّتِهِ أَعْمٌ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ أَنَّهُمْ يَذْهَبُ مِنْهُمْ قَرْنٌ وَيَخْلُفُهُ قَرْنٌ آخَرٌ.

وقد اختلف العلماء في معنى خليفة ولخص القول فيها العثيمين فقال رحمه الله في تفسير سورة البقرة: قوله تعالى: {إني جاعل في الأرض خليفة} ؛ خليفة يخلف الله؛ أو يخلف من سبقه؛ أو يخلف بعضهم بعضاً يتناسلون. على أقوال:.

أما **الأول**: فيحتمل أن الله أراد من هذه الخليفة. آدم، وبنيه. أن يجعل منهم الخلفاء يخلفون الله تعالى في عباده بإبلاغ شريعته، والدعوة إليها، والحكم بين عباده؛ لا عن جهل بالله سبحانه وتعالى. وحاشاه من ذلك، ولا عن عجز؛ ولكنه يمتن على من يشاء من عباده، كما قال تعالى: {يا

داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس { [ص: ٢٦] : هو خليفة يخلف الله عزّ وجلّ في الحكم بين عباده..

والثاني: أنهم يخلفون من سبقهم؛ لأن الأرض كانت معمورة قبل آدم؛ وعلى هذا الاحتمال تكون { خليفة } هنا بمعنى الفاعل؛ وعلى الأول بمعنى المفعول..

والثالث: أنه يخلف بعضهم بعضاً؛ بمعنى: أنهم يتناسلون: هذا يموت، وهذا يحيى؛ وعلى هذا التفسير تكون { خليفة } صالحة لاسم الفاعل، واسم المفعول..

كل هذا محتمل؛ وكل هذا واقع؛ لكن قول الملائكة: { أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء } يرجح أنهم خليفة لمن سبقهم، وأنه كان على الأرض مخلوقات قبل ذلك تسفك الدماء، وتفسد فيها، فسألت الملائكة ربها عزّ وجلّ: { أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء } كما فعل من قبلهم. واستفهام الملائكة للاستطلاع، والاستعلام، وليس للاعتراض؛ قال تعالى: { إني أعلم ما لا تعلمون } يعني: وستتغير الحال؛ ولا تكون كالتى سبقت.. انتهى

واختار ابن جرير رحمه الله القول الأول فقال: فكان تأويل الآية على هذه الرواية التي ذكرناها عن ابن مسعود وابن عباس: إني جاعل في الأرض

خليفةً متّي يخلفني في الحكم بين خلقي. وذلك الخليفة هو آدمٌ ومن قام مقامه في طاعة الله والحكم بالعدل بين خلقه.

وأما الإفساد وسفك الدماء بغير حقها، فمن غير خلفائه، ومن غير آدم ومن قام مقامه في عباد الله - لأنهما أخبرا أن الله جل ثناؤه قال لملائكته - إذ سأله: ما ذاك الخليفة؟ = إنه خليفة يكون له ذرية يفسدون في الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضاً. فأضاف الإفساد وسفك الدماء بغير حقها إلى ذرية خليفته دونه، وأخرج منه خليفته. انتهى

قال شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى (٣٥ / ٤٢)

فَصَلِّ: فِي " الْحِلَافَةِ وَالسُّلْطَانِ " وَكَيْفِيَّةِ كَوْنِهِ ظِلَّ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً } وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ } . وَقَوْلُهُ: { إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً } يَعُمُّ آدَمَ وَبَنِيهِ؛ لَكِنَّ الْإِسْمَ مُتَنَاوِلٌ لِآدَمَ عَيْنًا كَقَوْلِهِ: { لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ } وَقَوْلُهُ: { خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ } { وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ } وَقَوْلُهُ: { وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ } { ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ } { ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ } إِلَى أَمْثَالِ ذَلِكَ. وَهَذَا كَانَ بَيْنَ " دَاوُدَ وَآدَمَ " مِنْ الْمُنَاسَبَةِ مَا أَحَبَّ بِهِ دَاوُدُ حِينَ أَرَاهُ ذُرِّيَّتَهُ وَسَأَلَ عَنْ عُمُرِهِ؟ فَقِيلَ: أَرْبَعُونَ

سَنَةً. فَوَهَبَهُ مِنْ عُمَرِهِ الَّذِي هُوَ أَلْفُ سَنَةٍ سِتِّينَ سَنَةً. وَالْحَدِيثُ صَحِيحٌ رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ وَصَحَّحَهُ؛ وَهَذَا كِلَاهُمَا أُبْتَلِيَ بِمَا ابْتَلَاهُ بِهِ مِنَ الْخَطِيئَةِ كَمَا أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا مُنَاسِبَةٌ لِلْأُخْرَى؛ إِذْ جِنْسُ الشَّهَوَتَيْنِ وَاحِدٌ وَرَفْعُ دَرَجَتِهِ بِالتَّوْبَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي نَالَ بِهَا مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ لَهُ وَفَرَحِهِ بِهِ مَا نَالَ وَيُذَكَّرُ عَنْ كُلِّ مِنْهُمَا مِنَ الْبُكَاءِ وَالنَّدَمِ وَالْحُزْنِ مَا يُنَاسِبُ بَعْضُهُ بَعْضًا.

" وَالْخَلِيفَةُ " هُوَ مَنْ كَانَ خَلْفًا عَنْ غَيْرِهِ. فَعِيْلَةٌ بِمَعْنَى فَاعِلَةٍ. كَانَ { النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا سَافَرَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ } وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { مَنْ جَهَّزَ غَازِيًّا فَقَدْ غَزَا وَمَنْ خَلَفَهُ فِي أَهْلِهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا } وَقَالَ: { أَوْكَلَّمَا خَرَجْنَا فِي الْعَزْوِ خَلَفَ أَحَدِهِمْ وَلَهُ نَيْبٌ كَنْبِيبِ التَّيْسِ يَمْنَحُ إِحْدَاهُنَّ اللَّيْنَةَ مِنَ اللَّيْنِ لَيْنٌ أَظْفَرِي اللَّهِ بِأَحَدٍ مِنْهُمْ لِأَجْعَلَنَّهُ نَكَالًا } وَفِي الْقُرْآنِ: { سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ } وَقَوْلُهُ: { فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ } .

وَالْمُرَادُ " بِالْخَلِيفَةِ " أَنَّهُ خَلَفَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ مِنَ الْخَلْقِ. وَالْخَلْفُ فِيهِ مُنَاسِبَةٌ كَمَا كَانَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَنَّهُ خَلَفَهُ عَلَى أُمَّتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ وَكَمَا { كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا سَافَرَ لِحَجٍّ أَوْ عُمْرَةٍ أَوْ غَزْوَةٍ يَسْتَخْلِفُ عَلَى الْمَدِينَةِ مَنْ يَكُونُ خَلِيفَةً لَهُ مُدَّةً مُعَيَّنَةً } . فَيَسْتَخْلِفُ تَارَةً ابْنَ أُمَّ مَكْتُومٍ وَتَارَةً غَيْرَهُ { وَاسْتَخْلَفَ عَلِيٌّ بَنَ أَبِي طَالِبٍ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ } . وَتُسَمَّى الْأَمْكِنَةُ الَّتِي يَسْتَخْلِفُ فِيهَا الْإِمَامُ

"مَخَالِيفَ" مثل: مَخَالِيفِ الْيَمَنِ وَمَخَالِيفِ أَرْضِ الْحِجَازِ وَمِنْهُ الْحَدِيثُ: { حَيْثُ خَرَجَ مِنْ مِخْلَافٍ إِلَى مِخْلَافٍ } وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ } وَقَوْلُهُ تَعَالَى { وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا } - إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى - { ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ } وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى { وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ } الْآيَةُ. وَقَدْ ظَنَّ بَعْضُ الْقَائِلِينَ الْغَالِطِينَ - كَابْنِ عَرَبِيٍّ - أَنَّ "الْخَلِيفَةَ" هُوَ الْخَلِيفَةُ عَنِ اللَّهِ مِثْلَ نَائِبِ اللَّهِ؛ وَزَعَمُوا أَنَّ هَذَا بِمَعْنَى أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ مُسْتَخْلَفًا وَرُبَّمَا فَسَّرُوا "تَعْلِيمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا" الَّتِي جَمَعَ مَعَانِيهَا الْإِنْسَانُ. وَيُفَسِّرُونَ "خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ" بِهَذَا الْمَعْنَى أَيْضًا وَقَدْ أَخَذُوا مِنَ الْفَلَّاسِفَةِ قَوْلَهُمْ: الْإِنْسَانُ هُوَ الْعَالِمُ الصَّغِيرُ. وَهَذَا قَرِيبٌ. وَضَمُّوا إِلَيْهِ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَالِمُ الْكَبِيرُ؛ بِنَاءً عَلَى أَصْلِهِمُ الْكُفْرِي فِي وَحْدَةِ الْوُجُودِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ عَيْنُ وُجُودِ الْمَخْلُوقَاتِ. فَالْإِنْسَانُ مِنْ بَيْنِ الْمَظَاهِرِ هُوَ الْخَلِيفَةُ الْجَامِعُ لِلْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ وَيَتَفَرَّغُ عَلَى هَذَا مَا يَصِيرُونَ إِلَيْهِ مِنْ دَعْوَى الرَّبُّوبِيَّةِ وَالْأُلُوْهِيَّةِ الْمُخْرِجَةِ لَهُمْ إِلَى الْفِرْعَوْنِيَّةِ وَالْقَرْمِطِيَّةِ وَالْبَاطِنِيَّةِ وَرُبَّمَا جَعَلُوا "الرِّسَالَةَ" مَرْتَبَةً مِنَ الْمَرَاتِبِ وَأَنَّهُمْ أَعْظَمُ مِنْهَا فَيُقَرُّونَ بِالرَّبُّوبِيَّةِ وَالْوَحْدَانِيَّةِ وَالْأُلُوْهِيَّةِ؛ وَبِالرِّسَالَةِ وَيَصِيرُونَ فِي الْفِرْعَوْنِيَّةِ. هَذَا

إِيمَانُهُمْ. أَوْ يَخْرُجُونَ فِي أَعْمَالِهِمْ أَنْ يَصِيرُوا (سُدَى لَا أَمْرَ عَلَيْهِمْ وَلَا نَهْيَ؛
وَلَا إِجَابَ وَلَا تَحْرِيمَ. وَاللَّهُ لَا يَجُوزُ لَهُ خَلِيفَةٌ؛ وَهَذَا لَمَّا قَالُوا لِأَبِي بَكْرٍ: يَا
خَلِيفَةَ اللَّهِ قَالَ: لَسْتُ بِخَلِيفَةِ اللَّهِ؛ وَلَكِنِّي خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَسْبِي ذَلِكَ. بَلْ هُوَ سُبْحَانَهُ يَكُونُ خَلِيفَةً لِعَبْرِهِ قَالَ النَّبِيُّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ {اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ
اللَّهُمَّ اصْحَبْنَا فِي سَفَرِنَا وَاخْلُفْنَا فِي أَهْلِنَا} وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ حَيٌّ شَهِيدٌ
مُهَيَّمٌ قِيَوْمٌ رَقِيبٌ حَفِيزٌ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ وَلَا ظَهِيرٌ وَلَا
يَشْفَعُ أَحَدٌ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ. وَالْخَلِيفَةُ إِنَّمَا يَكُونُ عِنْدَ عَدَمِ الْمُسْتَخْلَفِ
بِمَوْتِ أَوْ غَيْبَةٍ وَيَكُونُ لِحَاجَةِ الْمُسْتَخْلَفِ إِلَى الْإِسْتِخْلَافِ. وَسُمِّيَ " خَلِيفَةً
" لِأَنَّهُ خُلِفَ عَنِ الْعَزْوِ وَهُوَ قَائِمٌ خَلْفَهُ وَكُلُّ هَذِهِ الْمَعَانِي مُتَّفِقَةٌ فِي حَقِّ
اللَّهِ تَعَالَى وَهُوَ مُنَزَّهٌ عَنْهَا؛ فَإِنَّهُ حَيٌّ قِيَوْمٌ شَهِيدٌ لَا يَمُوتُ وَلَا يَغِيبُ وَهُوَ
غَنِيٌّ يَرْزُقُ وَلَا يَرْزُقُ عِبَادَهُ وَيَنْصُرُهُمْ وَيَهْدِيهِمْ وَيُعَافِيهِمْ: بِمَا خَلَقَهُ
مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي هِيَ مِنْ خَلْقِهِ وَالَّتِي هِيَ مُفْتَقَرَةٌ إِلَيْهِ كَافْتَقَارِ الْمُسَبَّبَاتِ
إِلَى أَسْبَابِهَا. فَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا
بَيْنَهُمَا {يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ} {وَهُوَ
الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ} وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ أَحَدٌ خَلْفًا مِنْهُ
وَلَا يَقُومُ مَقَامَهُ؛ لِأَنَّهُ لَا سَمِيَّ لَهُ وَلَا كُفَّاءَ لَهُ. فَمَنْ جَعَلَ لَهُ خَلِيفَةً فَهُوَ
مُشْرِكٌ بِهِ. وَأَمَّا الْحَدِيثُ النَّبَوِيُّ {السُّلْطَانُ ظِلُّ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ يَأْوِي إِلَيْهِ

كُلُّ ضَعِيفٍ وَمَلْهُوفٍ { وَهَذَا صَحِيحٌ فَإِنَّ الظِّلَّ مُفْتَقِرٌ إِلَى آوٍ وَهُوَ رَفِيقٌ لَهُ مُطَابِقٌ لَهُ نَوْعًا مِنَ الْمُطَابَقَةِ وَالْآوِي إِلَى الظِّلِّ الْمُكْتَنَفِ بِالْمُظِلِّ صَاحِبِ الظِّلِّ فَالسُّلْطَانُ عَبْدُ اللَّهِ مَخْلُوقٌ مُفْتَقِرٌ إِلَيْهِ لَا يَسْتَعْنِي عَنْهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ؛ وَفِيهِ مِنَ الْقُدْرَةِ وَالسُّلْطَانِ وَالْحِفْظِ وَالنُّصْرَةِ وَعَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَعَانِي السُّؤْدُدِ وَالصَّمَدِيَّةِ الَّتِي بِهَا قِوَامُ الخَلْقِ مَا يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ ظِلٌّ لِلَّهِ فِي الْأَرْضِ وَهُوَ أَقْوَى الْأَسْبَابِ الَّتِي بِهَا يُصْلِحُ أُمُورَ خَلْقِهِ وَعِبَادِهِ فَإِذَا صَلَحَ ذُو السُّلْطَانِ صَلَحَتْ أُمُورُ النَّاسِ وَإِذَا فَسَدَ فَسَدَتْ بِحَسَبِ فَسَادِهِ؛ وَلَا تَفْسُدُ مِنْ كُلِّ وَجْهِ؛ بَلْ لَا بُدَّ مِنْ مَصَالِحٍ؛ إِذْ هُوَ ظِلُّ اللَّهِ؛ لَكِنَّ الظِّلَّ تَارَةً يَكُونُ كَامِلًا مَانِعًا مِنْ جَمِيعِ الْأَذَى. وَتَارَةً لَا يَمْنَعُ إِلَّا بَعْضَ الْأَذَى. وَأَمَّا إِذَا عُدِمَ الظِّلُّ فَسَدَ الْأَمْرُ كَعَدَمِ سِرِّ الرُّبُوبِيَّةِ الَّتِي بِهَا قِيَامُ الْأُمَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ. انتهى

مجموع الفتاوى (٤ / ٣٦٧) قَوْلُهُ: { إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً } وَفِيهَا دَلِيلٌ عَلَى تَفْضِيلِ الخَلِيفَةِ مِنْ وَجْهَيْنِ: " أَوْهُمَا " أَنَّ الخَلِيفَةَ يُفْضَلُ عَلَى مَنْ هُوَ خَلِيفَةٌ عَلَيْهِ وَقَدْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ وَهَذَا غَايَتُهُ أَنْ يُفْضَلَ عَلَى مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنَ المَلَائِكَةِ. " وَثَانِيَهُمَا " : أَنَّ المَلَائِكَةَ طَلَبَتْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَكُونَ الْإِسْتِخْلَافُ فِيهِمْ وَالخَلِيفَةُ مِنْهُمْ حَيْثُ قَالُوا: { أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ } الْآيَةَ. فَلَوْلَا أَنَّ الخِلَافَةَ دَرَجَةٌ عَالِيَةٌ أَعْلَى مِنْ دَرَجَاتِهِمْ لَمَّا طَلَبُوهَا وَغَبَطُوهَا صَاحِبَهَا. انتهى

وقد ذكر القرطبي في هذا الموطن ما يتعلق بمسألة الخلافة ونصب الإمام وغير ذلك ولخصها وزاد عليها الشنقيطي في أضواء البيان

قوله تعالى: **قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ**

قوله تعالى: (قالوا) أي الملائكة قوله: (أتجعل) أي أتصير وهذا استفهام تعجب منهم قوله: (فيها) أي الأرض قوله (من يفسد فيها) أي بالمعاصي فيقع الفساد عليها وفيها بالمعاصي وأعظم ذلك الشرك فما دونه، وقوله: (ويسفك الدماء) السفك الصب وفي حاشية مفردات القرآن للراغب: السفك والسبك والسفح والسر والسكب والصمت متقاربة وبينها فروق فالصب أعم هذه الألفاظ والسفك يقال في الدم والمع والسكب في الجواهر المذابة، والسفح في الصب من أعلى كسفح الجبل ومن استعير السفاح، والسر الصب من القرية ونحوها. انتهى

والدماء المراد بها الماء المعصومة وهي في شريعتنا دم المسلم بغير حق والذمي والمستأمن وسيأتي بعض ذلك إن شاء الله تعالى.

قال القرطبي رحمه الله: قَوْلُهُ تَعَالَى: (قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا) قَدْ عَلِمْنَا قَطْعًا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ لَا تَعْلَمُ إِلَّا مَا أُعْلِمَتْ وَلَا تَسْبِقُ بِالْقَوْلِ، وَذَلِكَ عَامٌّ فِي جَمِيعِ الْمَلَائِكَةِ، لِأَنَّ قَوْلَهُ: "لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ" حَرَجَ عَلَى جِهَةِ الْمَدْحِ لَهُمْ، فَكَيْفَ قَالُوا: "أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا؟" فَقِيلَ: الْمَعْنَى

أَنَّهُمْ لَمَّا سَمِعُوا لَفْظَ خَلِيفَةٍ فَهِمُوا أَنَّ فِي بَنِي آدَمَ مَنْ يُفْسِدُ، إِذِ الْخَلِيفَةُ الْمَقْصُودُ مِنْهُ الْإِصْلَاحُ وَتَرَكَ الْفَسَادَ، لَكِنْ عَمَّمُوا الْحُكْمَ عَلَى الْجَمِيعِ بِالْمَعْصِيَةِ، فَبَيَّنَ الرَّبُّ تَعَالَى أَنَّ فِيهِمْ مَنْ يُفْسِدُ وَمَنْ لَا يُفْسِدُ فَقَالَ تَطْيِيبًا لِقُلُوبِهِمْ: "إِنِّي أَعْلَمُ" وَحَقَّقَ ذَلِكَ بِأَنَّ عِلْمَ آدَمَ الْأَسْمَاءِ، وَكَشَفَ لَهُمْ عَنْ مَكْنُونِ عِلْمِهِ. وَقِيلَ: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ قَدْ رَأَتْ وَعَلِمَتْ مَا كَانَ مِنْ إِفْسَادِ الْجِنِّ وَسَفْكِهِمُ الدِّمَاءِ. وَذَلِكَ لِأَنَّ الْأَرْضَ كَانَ فِيهَا الْجِنُّ قَبْلَ خَلْقِ آدَمَ فَأَفْسَدُوا وَسَفَكُوا الدِّمَاءَ، فَبَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ إِبْلِيسَ فِي جُنْدٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فَقَتَلَهُمْ وَأَلْحَقَهُمْ بِالْبَحَارِ وَرُءُوسِ الْجِبَالِ، فَمِنْ حِينئِذٍ دَخَلَتْهُ الْعِرَّةُ. فَجَاءَ قَوْلُهُمْ: "أَجْعَلُ فِيهَا" عَلَى جِهَةِ الْإِسْتِفْهَامِ الْمَحْضِ: هَلْ هَذَا الْخَلِيفَةُ عَلَى طَرِيقَةٍ مَنْ تَقَدَّمَ مِنَ الْجِنِّ أَمْ لَا؟ قَالَ أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى ثَعْلَبٌ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ وَغَيْرُهُ. إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَعْلَمَهُمْ أَنَّ الْخَلِيفَةَ سَيَكُونُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ قَوْمٌ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَيَسْفِكُونَ الدِّمَاءَ، فَقَالُوا لِذَلِكَ هَذِهِ الْمَقَالَةُ، إِمَّا عَلَى طَرِيقِ التَّعَجُّبِ مِنْ اسْتِخْلَافِ اللَّهِ مَنْ يَعْصِيهِ أَوْ مِنْ عِصْيَانِ اللَّهِ مَنْ يَسْتَخْلِفُهُ فِي أَرْضِهِ وَيُنْعِمُ عَلَيْهِ بِذَلِكَ، وَإِمَّا عَلَى طَرِيقِ الْإِسْتِعْظَامِ وَالْإِكْبَارِ لِلْفَضْلَيْنِ جَمِيعًا: الْإِسْتِخْلَافُ وَالْعِصْيَانُ. وَقَالَ قَتَادَةُ: كَانَ اللَّهُ أَعْلَمَهُمْ أَنَّهُ إِذَا جَعَلَ فِي الْأَرْضِ خَلْفًا أَفْسَدُوا وَسَفَكُوا الدِّمَاءَ، فَسَأَلُوا حِينَ قَالَ تَعَالَى: "إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً" أَهُوَ الَّذِي أَعْلَمَهُمْ أَمْ غَيْرُهُ. وَهَذَا قَوْلٌ حَسَنٌ، رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ قَالَ: أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ "أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ

يُفْسِدُ فِيهَا" قَالَ: كَانَ اللَّهُ أَعْلَمَهُمْ أَنَّهُ إِذَا كَانَ فِي الْأَرْضِ خَلْقٌ أَفْسَدُوا فِيهَا وَسَفَكُوا الدَّمَاءَ، فَلِذَلِكَ قَالُوا: "أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا". وَفِي الْكَلَامِ حَذْفٌ عَلَى مَذْهَبِهِ، وَالْمَعْنَى أَنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً يَفْعَلُ كَذَا وَيَفْعَلُ كَذَا، فَقَالُوا: أَتَجْعَلُ فِيهَا الَّذِي أَعْلَمْتَنَاهُ أَمْ غَيْرُهُ؟ وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَيْضًا حَسَنٌ جِدًّا، لِأَنَّ فِيهِ اسْتِخْرَاجَ الْعِلْمِ وَاسْتِنبَاطَهُ مِنْ مُقْتَضَى الْأَلْفَافِ وَذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنَ الْعُلَمَاءِ، وَمَا بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ حَسَنٌ، فَتَأَمَّلْهُ. انتهى

وفي هذا الموطن تجدر الإشارة إلى عظم ذنب قتل المعصوم من الأنفس ويظهر هذا من ذكر الملائكة لهذا الذنب دون غيره من الذنوب ومما يدل على علو منزلتهم في العلم والفهم أن أول ذنب عصي الله به في الأرض هو القتل قال تعالى مخبرا عن ابني آدم: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لئن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدَيْ إِيَّاكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُؤَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُؤَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ { [المائدة: ٢٧ - ٣١] وفي حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال:

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " لا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ". أخرجه البخاري

قوله تعالى: {وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ}

قال الطبري في جامع البيان (١ / ٤٧٢) أما قوله: "ونحن نسبح بحمدك" فإنه يعني: إنا نعظمك بالحمد لك والشكر، كما قال جل ثناؤه: (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) [سورة النصر: ٣] ، وكما قال: (وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ) [سورة الشورى: ٥] ، وكل ذكر لله عند العرب فتسبيح وصلاة. يقول الرجل منهم: قضيت سُبْحَتِي مِنَ الذِّكْرِ وَالصَّلَاةِ. وقد قيل: إن التسبيح صلاة الملائكة. انتهى

قال القرطبي (١ / ٢٧٦) قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ) أَي نُنَزِّهُكَ عَمَّا لَا يَلِيْقُ بِصِفَاتِكَ. وَالتَّسْبِيْحُ فِي كَلَامِهِمُ التَّنْزِيْهُ مِنَ الشُّؤْمِ عَلَى وَجْهِ التَّعْظِيْمِ، وَمِنْهُ قَوْلُ أَعْشَى بَنِي نَعْلَبَةَ:

أَقُولُ لَمَّا جَاءَنِي فَخْرُهُ ... سُبْحَانَ مَنْ عَلِمَةَ الْفَاحِرِ

أَي بَرَاءَةٌ مِنْ عَلِمَةِ. وَرَوَى طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ تَفْسِيرِ سُبْحَانَ اللَّهِ فَقَالَ: (هُوَ تَنْزِيْهُ اللَّهِ

عَزَّ وَجَلَّ عَنْ كُلِّ سُوءٍ). وَهُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ السَّبْحِ وَهُوَ الْجُرْيُ وَالذَّهَابُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: "إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا «١» طَوِيلًا" [المزمل: ٧] فَالْمُسَبِّحُ حَارٍ فِي تَنْزِيهِهِ اللَّهُ تَعَالَى وَتَبَرُّتِهِ مِنَ السُّوءِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي "نَحْنُ"، وَلَا يَجُوزُ إِدْغَامُ النُّونِ فِي النُّونِ لِغَلَا يَلْتَقِي سَاكِنَانِ. مَسْأَلَةٌ: وَاخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي تَسْبِيحِ الْمَلَائِكَةِ، فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ: تَسْبِيحُهُمْ صَلَاتُهُمْ، وَمِنْهُ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: "فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ «٣»" [الصفوات: ١٤٣] أَيِ الْمُصَلِّينَ. وَقِيلَ: تَسْبِيحُهُمْ رَفْعُ الصَّوْتِ بِالذِّكْرِ، قَالَهُ الْمُفَضَّلُ، وَاسْتَشْهَدَ بِقَوْلِ جَرِيرٍ:

قَبَّحَ الْإِلَهَ وَجُوهَهُ تَغْلِبَ كُلَّمَا ... سَبَّحَ الْحَجِيجُ وَكَبَّرُوا إِهْلَالَآ

وَقَالَ قَتَادَةُ: تَسْبِيحُهُمْ: سُبْحَانَ اللَّهِ، عَلَى عُرْفِهِ فِي اللُّغَةِ، وَهُوَ الصَّحِيحُ لِمَا رَوَاهُ أَبُو ذَرٍّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ: أَيُّ الْكَلَامِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: (مَا اصْطَفَى اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ [أَوْ لِعِبَادِهِ] سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ). أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ. وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ قُرْطِبٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ أُسْرِي بِهِ سَمِعَ تَسْبِيحًا فِي السَّمَوَاتِ الْعُلَى: سُبْحَانَ الْعَلِيِّ الْأَعْلَى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذِكْرُهُ الْبِيهَقِي.

قَوْلُهُ تَعَالَى: "بِحَمْدِكَ" أَيِ وَبِحَمْدِكَ نَخْلُطُ التَّسْبِيحَ بِالْحَمْدِ وَنَصِلُهُ بِهِ. وَالْحَمْدُ: الشَّنَاءُ، وَقَدْ تَقَدَّمَ «١». وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُمْ: "بِحَمْدِكَ"

اعْتَرَضًا بَيْنَ الْكَلَامَيْنِ، كَأَنَّهُمْ قَالُوا: وَنَحْنُ نُسَبِّحُ وَنُقَدِّسُ، ثُمَّ اعْتَرَضُوا عَلَى جِهَةِ التَّسْلِيمِ، أَيْ وَأَنْتَ الْمَحْمُودُ فِي الْهُدَايَةِ إِلَى ذَلِكَ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَنُقَدِّسُ لَكَ) أَيْ نَعْظُمُكَ وَنُجَدِّدُكَ وَنُطَهِّرُ ذِكْرَكَ عَمَّا لَا يَلِيْقُ بِكَ مِمَّا نَسَبَكَ إِلَيْهِ الْمُلْحِدُونَ، قَالَ مُجَاهِدٌ وَأَبُو صَالِحٍ وَغَيْرُهُمَا. وَقَالَ الضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُ: الْمَعْنَى نُطَهِّرُ أَنْفُسَنَا لَكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِكَ وَقَالَ قَوْمٌ مِنْهُمْ قَتَادَةُ: "نُقَدِّسُ لَكَ" مَعْنَاهُ نُصَلِّي. وَالتَّقْدِيسُ: الصَّلَاةُ. قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: وَهَذَا ضَعِيفٌ. قُلْتُ: بَلْ مَعْنَاهُ صَحِيحٌ، فَإِنَّ الصَّلَاةَ تَشْتَمِلُ عَلَى التَّعْظِيمِ وَالتَّقْدِيسِ وَالتَّسْبِيحِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: (سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ). رَوَتْهُ عَائِشَةُ أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ. وَبِنَاءُ "قَدَسٌ" كَيْفَمَا تَصَرَّفَ فَإِنَّ مَعْنَاهُ التَّطْهِيرُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: "ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ" [المائدة: ٢١] أَيْ الْمُطَهَّرَةَ. وَقَالَ: "الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ" «٣» [الحشر: ٢٣] يَعْنِي الطَّاهِرَ، وَمِثْلُهُ: "بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ" «٤» طُوًى" [طه: ١٢] وَبَيْتُ الْمُقَدَّسِ سُمِّيَ بِهِ لِأَنَّهُ الْمَكَانُ الَّذِي يُتَقَدَّسُ فِيهِ مِنَ الذُّنُوبِ أَيْ يُتَطَهَّرُ، وَمِنْهُ قِيلَ لِلِسَّطَلِ: قَدَسٌ، لِأَنَّهُ يُتَوَضَّأُ فِيهِ وَيُتَطَهَّرُ، وَمِنْهُ الْقَادُوسُ. وَفِي الْحَدِيثِ: (لَا قُدِّسَتْ أُمَّةٌ لَّا يُؤْخَذُ لِضَعْفِهَا مِنْ قَوِيَّهَا). يُرِيدُ لَا طَهَّرَهَا اللَّهُ، أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَةَ فِي سُنَنِهِ. فَالْقُدُّوسُ: الطُّهُرُ مِنْ غَيْرِ خِلَافٍ، وَقَالَ الشَّاعِرُ: «٥»

فَأَذْرَكَهُ يَأْخُذَنَّ بِالسَّاقِ وَالنَّسَا ... كَمَا شَبَّرَقَ الْوَلْدَانُ ثُوبَ الْمُقَدَّسِ

أَيُّ الْمُطَهَّرِ. فَالصَّلَاةُ طُهْرَةٌ لِلْعَبْدِ مِنَ الذُّنُوبِ، وَالْمُصَلِّي يَدْخُلُهَا عَلَى أَكْمَلِ الْأَحْوَالِ لِكُونِهَا أَفْضَلَ الْأَعْمَالِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قال ابن كثير (١ / ٢٢٠) قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ قَتَادَةَ: التَّسْبِيحُ: التَّسْبِيحُ، وَالتَّقْدِيسُ: الصَّلَاةُ، وَقَالَ السُّدِّيُّ، عَنْ أَبِي مَالِكٍ وَعَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - وَعَنْ مَرَّةٍ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ - وَعَنْ نَاسٍ مِنَ الصَّحَابَةِ: { وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ } قَالَ: يَقُولُونَ: نُصَلِّي لَكَ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: { وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ } قَالَ: نَعْظَمُكَ وَنَكْبِرُكَ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: التَّقْدِيسُ: التَّطْهِيرُ، وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: { وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ } قَالَ: لَا نَعْصِي وَلَا نَأْتِي شَيْئًا تَكْرَهُهُ، وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: التَّقْدِيسُ: هُوَ التَّعْظِيمُ وَالتَّطْهِيرُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، يَعْنِي بِقَوْلِهِمْ: سُبُّوحٌ، تَنْزِيهٌ لَهُ، وَبِقَوْلِهِمْ: قُدُّوسٌ، طَهَارَةٌ وَتَعْظِيمٌ لَهُ. وَلِذَلِكَ قِيلَ لِلْأَرْضِ: أَرْضٌ مُقَدَّسَةٌ، يَعْنِي بِذَلِكَ الْمُطَهَّرَةَ. فَمَعْنَى قَوْلِ الْمَلَائِكَةِ إِذَا: { وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ } نُنَزِّهُكَ وَنُبْرِئُكَ مِمَّا يُضِيغُهُ إِلَيْكَ أَهْلُ الشُّرْكِ بِكَ { وَنُقَدِّسُ لَكَ } نَنْسِبُكَ إِلَى مَا هُوَ مِنْ صِفَاتِكَ، مِنَ الطَّهَارَةِ مِنَ الْأَذْنَانِ وَمَا أَضَافَ إِلَيْكَ أَهْلُ الْكُفْرِ بِكَ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي ذَرٍّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ: أَيُّ الْكَلَامِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: "مَا اصْطَفَى اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ" وَرَوَى الْبَيْهَقِيُّ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ قُرَيْطٍ أَنَّ

رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ أُسْرِي بِهِ سَمِعَ تَسْبِيحًا فِي
السَّمَاوَاتِ الْعُلَا "سُبْحَانَ الْعَلِيِّ الْأَعْلَى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى"

قال العثيمين في تفسير الفاتحة والبقرة (١ / ١١٣): قوله تعالى: { ونحن
نسبح } أي نُنَزِّهه؛ والذي يُنَزِّهه الله عنه شيئان؛ أولاً: النقص؛ والثاني:
النقص في كماله؛ وزد ثالثاً إن شئت: مماثلة المخلوقين؛ كل هذا يُنَزِّهه
الله عنه؛ النقص: مطلقاً؛ يعني أن كل صفة نقص لا يمكن أن يوصف
الله بها أبداً. لا وصفاً دائماً، ولا خبراً؛ والنقص في كماله: فلا يمكن
أن يكون في كماله نقص؛ قدرته: لا يمكن أن يعتريها عجز؛ قوته: لا
يمكن أن يعتريها ضعف؛ علمه: لا يمكن أن يعتريه نسيان ... وهلم
جراً؛ ولهذا قال عزّ وجلّ: { ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما
في ستة أيام وما مسنا من لغوب } [ق: ٣٨] أي تعب، وإعياء؛ فهو
عزّ وجلّ كامل الصفات لا يمكن أن يعتري كماله نقص؛ ومماثلة
المخلوقين: هذه إن شئنا أفردناها بالذكر؛ لأن الله تعالى أفردتها بالذكر،
فقال: { ليس كمثله شيء } [الشورى: ١١] . وقال تعالى: { وله المثل
الأعلى } ، وقال تعالى: { فلا تضربوا لله الأمثال } [النحل: ٧٤] ؛
وإن شئنا جعلناها داخلة في القسم الأول. النقص. لأن تمثيل الخالق
بالمخلوق يعني النقص؛ بل المفاضلة بين الكامل والناقص تجعل الكامل
ناقصاً، كما قال القائل: . (ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل إن

السيف أمضى من العصا) لو قلت: فلان عنده سيف أمضى من العصا تبين أن السيف هذا رديء، وليس بشيء؛ فربما نفرّد هذا القسم الثالث، وربما ندخله في القسم الأول؛ على كل حال التسبيح ينبغي لنا. عندما نقول: "سبحان الله"، أو: "أسبح الله"، أو ما أشبه ذلك. أن نستحضر هذه المعاني..

قوله تعالى: و {بحمدك} : قال العلماء: الباء هنا للمصاحبة. أي تسبيحاً مصحوباً بالحمد مقروناً به؛ فتكون الجملة متضمنة لتنزيه الله عن النقص، وإثبات الكمال لله بالحمد؛ لأن الحمد: وصف المحمود بالكمال محبة، وتعظيماً؛ فإن وصفت مرة أخرى بكمال فسّمه ثناءً؛ والدليل على هذا ما جاء في الحديث الصحيح أن الله تعالى قال: "قَسَمْتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين؛ فإذا قال: {الحمد لله رب العالمين} قال تعالى: حمدي عبدي؛ وإذا قال: {الرحمن الرحيم} قال تعالى: أثني عليّ عبدي" ؛ لأن نفي النقص يكون قبل إثبات الكمال من أجل أن يرد الكمال على محل خالٍ من النقص..

قوله تعالى: {ونقدس} : "التقديس" معناه التطهير؛ وهو أمر زائد على "التنزيه"؛ لأن "التنزيه" تبرئة، وتخلية؛ و"التطهير" أمر زائد؛ ولهذا نقول في دعاء الاستفتاح: "اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب؛ اللهم نقني من خطاياي كما ينقى الثوب الأبيض من

الذنس؛ اللهم اغسلني من خطاياي بالماء، والثلج، والبرد" : ف الأول:
 طلبُ المباحدة؛ والثاني: طلب التنقية. يعني: التحلية بعد المباحدة؛
 والثالث: طلب الغسل بعد التنقية حتى يزول الأثر بالكلية؛ فيجمع
 الإنسان بين تنزيه الله عزّ وجلّ عن كل عيب ونقص، وتطهيره. أنه لا
 أثر إطلاقاً لما يمكن أن يعلق بالذهن من نقص. انتهى

والتسبيح هو التنزيه على ما تقدم ويؤتى به في مواطن على ما يأتي في
 الفوائد إن شاء الله تعالى وفي فضائله وصيغته أحاديث كثيرة منها ما
 أخرجه الشيخان عن أبي هريرة أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال:
 "مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ؛ حُطَّتْ خَطَايَاهُ، وَإِنْ
 كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ".

وفيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي - صلى الله عليه وسلم -
 :-

"كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ:
 سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ".

وفي مسند أحمد (٧١٠٢) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال قال
 رسول الله صلى الله عليه وسلم: إِنَّ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ
 دَعَا ابْنَيْهِ، فَقَالَ إِنِّي قَاصِرٌ عَلَيْكُمَا الْوَصِيَّةَ، آمُرُكُمَا بِاِئْتِنَيْنِ، وَأَنْهَاكُمَا عَنِ
 اِئْتِنَيْنِ، أَنْهَاكُمَا عَنِ الشُّرْكِ وَالْكَبْرِ وَأَمُرُكُمَا بِ"لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ"، فَإِنَّ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِمَا لَوْ وُضِعَتْ فِي كِفَّةِ الْمِيزَانِ، وَوُضِعَتْ "لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ" فِي الْكِفَّةِ الْأُخْرَى، كَانَتْ أَرْجَحَ وَلَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا حَلَقَةً، فَوُضِعَتْ "لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ"، عَلَيْهِمَا لَفَصَمْتَهَا، أَوْ لَقَصَمْتَهَا، وَأَمْرُكَمَا بِـ "سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ" فَإِنَّهَا صَلَاةٌ كُلُّ شَيْءٍ وَبِهَا يُرْزَقُ كُلُّ شَيْءٍ.

وفي صحيح مسلم (٤٨٤) عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْتَبُ مِنْ قَوْلٍ: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ» قَالَتْ: فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْكَ تُكْتَبُ مِنْ قَوْلٍ: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ؟» فَقَالَ: "خَبَّرَنِي رَبِّي أَنِّي سَأَرَى عِلَامَةً فِي أُمَّتِي، فَإِذَا رَأَيْتَهَا أَكْثَرْتُ مِنْ قَوْلٍ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، فَقَدْ رَأَيْتَهَا { إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ } [النصر: ١]، فَتُح مَكَّةَ، { وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا } [النصر: ٣] "

وفي مسلم (٢٧٢٦) عَنْ جُوَيْرِيَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا بُكْرَةً حِينَ صَلَّى الصُّبْحَ، وَهِيَ فِي مَسْجِدِهَا، ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ أَضْحَى، وَهِيَ جَالِسَةٌ، فَقَالَ: «مَا زِلْتِ عَلَى الْحَالِ الَّتِي فَارَقْتِكِ عَلَيْهَا؟» قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لَقَدْ قُلْتِ بَعْدَكَ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، لَوْ وُزِنَتْ بِمَا قُلْتِ مِنْذُ الْيَوْمِ

لَوَزَنْتَهُنَّ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ وَرِضَا نَفْسِهِ وَزِنَةَ عَرْشِهِ
وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ "

وفيه (٢٧٣١) عَنْ أَبِي ذَرٍّ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ
أَيُّ الْكَلَامِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: " مَا اصْطَفَى اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ أَوْ لِعِبَادِهِ:
سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ "

وفيه (٢٧٣١) عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:
«أَلَا أُخْبِرُكَ بِأَحَبِّ الْكَلَامِ إِلَى اللَّهِ؟» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي
بِأَحَبِّ الْكَلَامِ إِلَى اللَّهِ، فَقَالَ: " إِنَّ أَحَبَّ الْكَلَامِ إِلَى اللَّهِ: سُبْحَانَ اللَّهِ
وَبِحَمْدِهِ "

وفيه (٥٩٥) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّنُورِ بِالذَّرَجَاتِ الْعُلَى، وَالتَّعِيمِ
الْمُقِيمِ، فَقَالَ: «وَمَا ذَاكَ؟» قَالُوا: يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا
نُصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ وَلَا نَتَصَدَّقُ، وَيُعْتِقُونَ وَلَا نُعْتِقُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَفَلَا أَعَلَّمَكُمُ شَيْئًا تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ
وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ؟ وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ صَنَعَ مِثْلَ
مَا صَنَعْتُمْ» قَالُوا: بَلَى، يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «تُسَبِّحُونَ، وَتُكَبِّرُونَ،
وَتَحْمَدُونَ، ذُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً» قَالَ أَبُو صَالِحٍ: فَرَجَعَ

فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: سَمِعَ إِخْوَانُنَا أَهْلُ الْأَمْوَالِ بِمَا فَعَلْنَا، فَفَعَلُوا مِثْلَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ» وَزَادَ غَيْرُ قُتَيْبَةَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ عَنِ اللَّيْثِ، عَنِ ابْنِ عَجَلَانَ، قَالَ سُمِّيُّ: فَحَدَّثْتُ بَعْضَ أَهْلِي هَذَا الْحَدِيثَ، فَقَالَ: وَهَمْتُ، إِيمًا قَالَ «تُسَبِّحُ اللَّهُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَتَحْمَدُ اللَّهُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَتُكَبِّرُ اللَّهُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ» فَرَجَعْتُ إِلَى أَبِي صَالِحٍ فَقُلْتُ لَهُ ذَلِكَ، فَأَخَذَ بِيَدِي فَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، اللَّهُ أَكْبَرُ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، حَتَّى تَبْلُغَ مِنْ جَمِيعِهِنَّ ثَلَاثَةَ وَثَلَاثِينَ.

وفي مسلم (٥٩٦) عَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مُعَقَّبَاتٌ لَا يَخِيبُ قَائِلُهُنَّ - أَوْ فَاعِلُهُنَّ - دُبُرُ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ، ثَلَاثٌ وَثَلَاثُونَ تَسْبِيحَةً، وَثَلَاثٌ وَثَلَاثُونَ تَحْمِيدَةً، وَأَرْبَعٌ وَثَلَاثُونَ تَكْبِيرَةً». وأخرجه البخاري

وفيه (٢٦٩٨) عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ، حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «أَيَعِجْزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكْسِبَ، كُلَّ يَوْمٍ أَلْفَ حَسَنَةٍ؟» فَسَأَلَهُ سَائِلٌ مِنْ جُلَسَائِهِ: كَيْفَ يَكْسِبُ أَحَدُنَا أَلْفَ حَسَنَةٍ؟ قَالَ: «يُسَبِّحُ مِائَةَ تَسْبِيحَةً، فَيَكْتُبُ لَهُ أَلْفُ حَسَنَةٍ، أَوْ يُحِطُّ عَنْهُ أَلْفُ خَطِيئَةٍ».

والأحاديث في صيغ التسبيح وفضله أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر فكم في القرآن والسنة من الحث على التسبيح أو الإخبار عن المسبحين بقوله تعالى: { يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } [التغابن: ١] وقوله تعالى: { سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } [الصف: ١] وكقوله تعالى: { فَسُبْحَانَ اللَّهِ } [الروم: ١٧] وكقوله تعالى: { سُبْحَانَ } [الإسراء: ١] إلى غير ذلك وبالله التوفيق.

ويؤتى بالتسبيح للتنزيه والتعظيم والتعجب والإنكار وغير ذلك من المقاصد يعرف ذلك من تتبع واستقرى مواطن التسبيح من الكتاب والسنة الصحيحة وقد يكون التسبيح واجبا وذلك في مواطن مثل الركوع والسجود ففي صحيح مسلم (٤٧٩) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَشَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السُّتَارَةَ وَالنَّاسُ صُفُوفٌ خَلْفَ أَبِي بَكْرٍ، فَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ مُبَشِّرَاتِ النَّبُوءَةِ إِلَّا الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ، يَرَاهَا الْمُسْلِمُ، أَوْ تُرَى لَهُ، أَلَا وَإِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَاكِعًا أَوْ سَاجِدًا، فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظَّمُوا فِيهِ الرَّبَّ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ، فَقَمِنُ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ» وفيه (٧٧٢) عَنْ حُذَيْفَةَ، قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَانْتَحَ الْبَقْرَةَ، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ، ثُمَّ مَضَى، فَقُلْتُ: يُصَلِّي بِهَا فِي رُكْعَةٍ، فَمَضَى، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ بِهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ، فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ

عِمْرَانَ، فَقَرَأَهَا، يَقْرَأُ مُتْرَسِّلاً، إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ
بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ، ثُمَّ رَكَعَ، فَجَعَلَ يَقُولُ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ
الْعَظِيمِ»، فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ، ثُمَّ قَالَ: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمَدَهُ»،
ثُمَّ قَامَ طَوِيلًا قَرِيبًا مِمَّا رَكَعَ، ثُمَّ سَجَدَ، فَقَالَ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى»،
فَكَانَ سُجُودُهُ قَرِيبًا مِنْ قِيَامِهِ. قَالَ: وَفِي حَدِيثِ جَرِيرٍ مِنَ الزِّيَادَةِ،
فَقَالَ: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمَدَهُ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ»

قال ابن القيم في الوابل الصيب من الكلم الطيب (ص: ٩٢) وقلت
لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى يوماً: سئل بعض أهل العلم
أيهما أنفع للعبد التسبيح أو الاستغفار؟ فقال: إذا كان الثوب نقياً
فالبخور وماء الورد أنفع له، وإذا كان دنساً فالصابون والماء الحار أنفع
له، فقال لي رحمه الله تعالى: فكيف والثياب لا تزال دنسة؟ انتهى

قوله تعالى: قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ

القائل هو الله تعالى ذكره لما سمع من الملائكة تلك المراجعة قال تأديبا
لهم إني أعلم في خلق آدم وذريته من المصالح والحكم ما لا تعلمونه،
واختلف العلماء في معنى هذه الآية الى قولين ذكرهما ابن جرير رحمه
الله (١/ ٤٧٦) فقال بعضهم: يعني بقوله: "أعلم ما لا تعلمون"، مما
اطلع عليه من إبليس، وإضماره المعصية لله وإخفائه الكبر، مما اطلع

عليه تبارك وتعالى منه وخفي على ملائكته. وروى بسنده عن أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس: "إني أعلم ما لا تعلمون"، يقول: إني قد اطّلت من قلب إبليس على ما لم تطلعوا عليه من كبره واغتراره. وروي هذا القول عن مجاهد وابن مسعود رضي الله عنه.

الثاني: إني أعلم ما لا تعلمون من أنه يكون من ذلك الخليفة أهل الطاعة والولاية لله عزوجل، روى هذا القول عن قتادة قال: "إني أعلم ما لا تعلمون"، فكان في علم الله أنه سيكون من ذلك الخليفة أنبياء ورسل وقوم صالحون وساكنو الجنة.

والذي يظهر والله اعلم القول بعموم الآية من أن الله عزوجل علم من إبليس المعصية والكبر والعناد وخلق آدم عليه السلام وذريته لتحقيق مصالح عظيمة وبهذا قال القرطبي (١/ ٢٧٨)

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى إِيَّيَّ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ مِمَّا كَانَ وَمِمَّا يَكُونُ وَمِمَّا هُوَ كَائِنٌ، فهو عام. انتهى

قال السعدي (ص: ٤٩): قال الله تعالى للملائكة: {إِنِّي أَعْلَمُ} من هذا الخليفة {مَا لَا تَعْلَمُونَ} ؛ لأن كلامكم بحسب ما ظننتم، وأنا عالم بالظواهر والسرائر، وأعلم أن الخير الحاصل بخلق هذا الخليفة، أضعاف أضعاف ما في ضمن ذلك من الشر فلو لم يكن في ذلك، إلا أن الله تعالى أراد أن يجتبي منهم الأنبياء والصدّيقين، والشهداء والصالحين،

ولتظهر آياته للخلق، ويحصل من العبوديات التي لم تكن تحصل بدون خلق هذا الخليفة، كالجهاد وغيره، وليظهر ما كمن في غرائز بني آدم من الخير والشر بالامتحان، ولتبين عدوه من وليه، وحزبه من حربه، وليظهر ما كمن في نفس إبليس من الشر الذي انطوى عليه، واتصف به، فهذه حكم عظيمة، يكفي بعضها في ذلك. انتهى

وكان من فضل آدم عليه السلام أن خلقه الله بيده وأمر الملائكة أن يسجدوا له وكلمه الله تعالى واجتباؤه وهداه على ما تقدم ويأتي إن شاء الله تعالى.

وفي مسلم (٢٦١١) عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَمَّا صَوَّرَ اللَّهُ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ تَرَكَهُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَتْرُكُهُ، فَجَعَلَ إِبْلِيسُ يُطِيفُ بِهِ، يَنْظُرُ مَا هُوَ، فَلَمَّا رَأَهُ أَجْوَفَ عَرَفَ أَنَّهُ خُلِقَ خَلْقًا لَا يَتَمَالَكُ» وعند أحمد ط الرسالة (٣٢ / ٣٥٣) عَنْ أَبِي مُوسَى، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةِ قَبْضِهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الْأَرْضِ. جَاءَ مِنْهُمْ الْأَبْيَضُ وَالْأَحْمَرُ وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالْحَبِيثُ، وَالطَّيِّبُ وَالسَّهْلُ، وَالْحَزْنُ وَبَيْنَ ذَلِكَ "

وفي صحيح ابن حبان (٦١٦٥) عَنْ ثَابِتٍ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَمَّا نَفَخَ فِي آدَمَ، فَبَلَغَ الرُّوحَ رَأْسَهُ عَطَسَ، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

فَقَالَ لَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَرْحَمُكَ اللَّهُ» وأخرج نحوه البزار عن أبي هريرة رضي الله عنه وفي سنده مبارك بن فضالة ضعيف.

وأخرج البخاري (٦٢٢٧) ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ، طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا، فَلَمَّا خَلَقَهُ قَالَ: اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أَوْلَيْكَ، النَّفَرِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، جُلُوسًا، فَاسْتَمِعَ مَا يُحْيُونَكَ، فَإِنَّهَا تَحْيِيكَ وَتَحْيِي ذُرِّيَّتَكَ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالُوا: السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَزَادُوهُ: وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ، فَلَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ بَعْدُ حَتَّى الْآنَ "

وأخرجه أحمد في المسند (٢١٠ / ١٤) من طريق علي بن زيد بن جدعان، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: " يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ مُرْدًا بِيضًا جَعَادًا مُكْحَلِينَ، أَبْنَاءَ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ، عَلَى خَلْقِ آدَمَ، سَبْعِينَ ذِرَاعًا فِي سَبْعَةِ أَذْرُعٍ " وقوله في سبعة أذرع منكورة.

وفي سنن الترمذي (٣٠٧٦) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ، فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ

نَسَمَةٌ هُوَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَجَعَلَ بَيْنَ عَيْنَيْ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ وَبَيْضًا مِنْ نُورٍ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى آدَمَ فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ، مَنْ هُوَ لَاءِ؟ قَالَ: هُوَ لَاءِ ذُرِّيَّتِكَ، فَرَأَى رَجُلًا مِنْهُمْ فَأَعْجَبَهُ وَبَيَّضُ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ، فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: هَذَا رَجُلٌ مِنْ آخِرِ الْأُمَمِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ يُقَالُ لَهُ دَاوُدُ فَقَالَ: رَبِّ كَمْ جَعَلْتَ عُمرَهُ؟ قَالَ: سِتِّينَ سَنَةً، قَالَ: أَيُّ رَبِّ، زِدْهُ مِنْ عُمرِي أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَلَمَّا قُضِيَ عُمرُ آدَمَ جَاءَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ، فَقَالَ: أَوْلَمْ يَبْقَ مِنْ عُمرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَوْلَمْ تُعْطِهَا ابْنَكَ دَاوُدَ قَالَ: فَحَدَّ آدَمُ فَحَدَّتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَنَسِيَ آدَمُ فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَخَطِئَ آدَمُ فَخَطِئَتْ ذُرِّيَّتُهُ " «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَقَدْ رُوِيَ مِنْ غَيْرِ وَجْهِ عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»

وعند أحمد (٢٧٤٨٨): عَنِ أَبِي الدَّرْدَاءِ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ حِينَ خَلَقَهُ، فَضَرَبَ كَتِفَهُ الْيُمْنَى، فَأَخْرَجَ ذُرِّيَّةً بَيْضَاءَ، كَأَنَّهُمْ الذَّرُّ، وَضَرَبَ كَتِفَهُ الْيُسْرَى، فَأَخْرَجَ ذُرِّيَّةً سَوْدَاءَ كَأَنَّهُمْ الْحُمَمُ، فَقَالَ لِلَّذِي فِي يَمِينِهِ: إِلَى الْجَنَّةِ، وَلَا أَبَالِي وَقَالَ: لِلَّذِي فِي كَفِّهِ الْيُسْرَى: إِلَى النَّارِ وَلَا أَبَالِي "

وفي مسند أحمد (١٧٥٩٣) عَنِ أَبِي نَضْرَةَ: أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقَالُ لَهُ: أَبُو عَبْدِ اللَّهِ، دَخَلَ عَلَيْهِ أَصْحَابُهُ يَعُودُونَهُ وَهُوَ يَبْكِي، فَقَالُوا لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ أَلَمْ يَقُلْ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ: " خُذْ مِنْ شَارِبِكَ، ثُمَّ أَقِرَّهُ حَتَّى تَلْقَانِي "؟ قَالَ: بَلَى، وَلَكِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: " إِنَّ اللَّهَ قَبَضَ يَمِينَهُ قَبْضَةً، وَأُخْرَى بَالِيَدِ الْأُخْرَى، وَقَالَ: هَذِهِ هَذِهِ، وَهَذِهِ هَذِهِ، وَلَا أُبَالِي ".
فَلَا أُدْرِي فِي أَيِّ الْقَبْضَتَيْنِ أَنَا.

قال السيوطي في الدر المنثور في التفسير بالمأثور (١ / ١٣٣): وأخرج البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن أبي حاتم والاحري في الشريعة والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: تحاج آدم وموسى فحج آدم موسى فقال موسى: أنت آدم الذي أغويت الناس وأخرجتهم من الجنة فقال له آدم: أنت موسى الذي أعطاه الله كل شيء واصطفاه برسالته قال: نعم

قال: فتلومني على أمر قدر عليّ قبل أن أخلق

وأخرج عبد بن حميد في مسنده وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: احتج آدم وموسى

فقال موسى: أنت خلقتك الله بيده أسكنك جنته وأسند لك ملائكته فأخرجت ذريتك من الجنة وأشقيتهم فقال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله بكلامه ورسالاته تلومني في شيء وجدته قد قدر عليّ قبل أن أخلق فحج آدم موسى

وَأَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ وَالْأَجْرِيُّ فِي الشَّرِيعَةِ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ عَنْ
عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ مُوسَى قَالَ
يَا رَبِّ أَرْنَا آدَمَ الَّذِي أَخْرَجْنَا وَنَفْسَهُ مِنَ الْجَنَّةِ فَأَرَاهُ اللَّهُ آدَمَ فَقَالَ: أَنْتَ
أَبُونَا آدَمَ فَقَالَ لَهُ آدَمُ: نَعَمْ

قَالَ: أَنْتَ الَّذِي نَفَخَ اللَّهُ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ وَعَلَّمَكَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا وَأَمَرَ
الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ قَالَ: نَعَمْ

فَقَالَ: مَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ أَخْرَجْتَنَا مِنَ الْجَنَّةِ فَقَالَ لَهُ آدَمُ: وَمَنْ أَنْتَ قَالَ:
مُوسَى قَالَ: أَنْتَ نَبِيُّ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِي كَلَّمَكَ اللَّهُ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ لَمْ
يَجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ رَسُولًا مِنْ خَلْقِهِ قَالَ: نَعَمْ

قَالَ: فَمَا وَجَدْتَ أَنْ ذَلِكَ كَانَ فِي كِتَابِ اللَّهِ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ قَالَ: نَعَمْ
قَالَ: فَلَمْ تَلُومَنِي فِي شَيْءٍ سَبَقَ فِيهِ مِنَ اللَّهِ الْقَضَاءَ قَبْلَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عِنْدَ ذَلِكَ فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى

فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى

وَأَخْرَجَ النَّسَائِيُّ وَأَبُو يَعْلَى وَالطَّبْرَانِيُّ وَالْأَجْرِيُّ عَنْ جُنْدُبِ الْبَجَلِيِّ قَالَ قَالَ
رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى فَقَالَ مُوسَى: يَا آدَمَ
أَنْتَ الَّذِي خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ
وَأَسْكَنَكَ جَنَّتَهُ وَفَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ فَأَخْرَجْتَ وَلَدَكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَقَالَ آدَمُ:

أَنْتَ مُوسَى الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رِسَالَتَهُ وَكَلَّمَكَ وَأَتَاكَ التَّوْرَةَ وَقَرَّبَكَ نَجِيًّا أَنَا
 أَقْدَمُ أُمَّ الدُّكْرِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى
 وَأَخْرَجَ أَبُو بَكْرٍ الشَّافِعِيُّ فِي الْغِيلَانِيَّاتِ عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اِخْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى فَقَالَ مُوسَى: أَنْتَ آدَمُ الَّذِي
 خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ وَعَمَلْتَ الْخَطِيئَةَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ مِنَ
 الْجَنَّةِ قَالَ آدَمُ كَأَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَأَنْزَلَ عَلَيْكَ
 التَّوْرَةَ وَكَلَّمَكَ تَكْلِيمًا فَبِكُمْ خَطِيئَتِي سَبَقَتْ خَلْقِي قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى

وَأَخْرَجَ ابْنُ النُّجَارِ عَنْ ابْنِ عَمْرِو قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:
 التَّقَى آدَمُ وَمُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فَقَالَ لَهُ مُوسَى: أَنْتَ آدَمُ الَّذِي خَلَقَكَ
 اللَّهُ بِيَدِهِ وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ وَأَدْخَلَكَ جَنَّتَهُ ثُمَّ أَخْرَجْتَنَا مِنْهَا فَقَالَ لَهُ
 آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَقَرَّبَكَ نَجِيًّا وَأَنْزَلَ عَلَيْكَ
 التَّوْرَةَ فَاسْأَلْكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ ذَلِكَ بِكُمْ بَجْدِهِ كَتَبَ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ
 قَالَ: أَجِدُهُ كَتَبَ عَلَيْكَ بِالتَّوْرَةِ بِالْفِي عَامَ فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، وَالْعَمْدَةُ
 حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَغَيْرِهِ فِي الْبَابِ.

قوله تعالى: وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا

أي أن الله تعالى اسمه بعد أن خلق آدم عليه السلام وكان ما كان مما قصه علينا من شأن الملائكة الكرام أراد أن يريهم فضله عليهم فعلمه الأسماء كلها.

وآدم مشتق من الأدمة فعن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: بعث ربُّ العزة ملك الموت فأخذ من أديم الأرض، من عذبتها ومالحها، فخلق منه آدم. ومن ثمَّ سُمِّي آدم. لأنه خُلِق من أديم الأرض قال الطبري (١/ ٤٨٢): فعلى التأويل الذي تأول "آدم" من تأوله، بمعنى أنه خُلِق من أديم الأرض، يجب أن يكون أصل "آدم" فعلا سُمِّي به أبو البشر، كما سمي "أحمد" بالفعل من الإحماد، و"أسعد" من الإسعاد، فلذلك لم يُجَرَّ. ويكون تأويله حينئذ: آدم الملك الأرض، يعني به بلغ أدمتها - وأدمتها: وجهها الظاهر لرأي العين، كما أنّ جلدة كل ذي جلدة له أدمة. ومن ذلك سُمِّي الإدام إدامًا، لأنه صار كالجلدة العليا مما هي منه - ثم نقل من الفعل فجعل اسمًا للشخص بعينه. انتهى

وقد اختلف العلماء في ما علمه الله تعالى ذكره إلى ثلاثة أقوال:

الأول: علمه أسماء كل شيء وهذا مروى عن ابن عباس رضي الله عنه من طريق أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس، قال: علم الله آدم الأسماء كلها، وهي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس: إنسانٌ ودابة، وأرض وسهل وبحر وجبل وحمار، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها. وجاء نحوه عن عكرمة وقتادة ومجاهد فعن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، في قول الله: "وعلم آدم الأسماء كلها"، قال: علمه اسم كل شيء.

الثاني: علمه أسماء الملائكة وهذا القول مروى عن الربيع بن أنس.

الثالث: علمه أسماء ذريته وهذا مروى عن ابن زيد وقد روى هذه الآثار ابن جرير وقال رحمه الله (١ / ٤٨٥): إنها أسماء ذريته وأسماء الملائكة، دون أسماء سائر أجناس الخلق. وذلك أن الله جل ثناؤه قال: "ثم عرضهم على الملائكة"، يعني بذلك أعيان المسّمين بالأسماء التي علمها آدم. ولا تكادُ العرب تكفي بالهاء والميم إلا عن أسماء بني آدم والملائكة. وأما إذا كانت عن أسماء البهائم وسائر الخلق سوى من وصفناها، فإنها تكفي عنها بالهاء والألف أو بالهاء والنون، فقالت: "عرضهن" أو "عرضها". واختار هذا القول العثيمين رحمه الله

وقال السعدي رحمه الله (ص: ٤٩): ثم لما كان قول الملائكة عليهم السلام، فيه إشارة إلى فضلهم على الخليفة الذي يجعله الله في الأرض، أراد الله تعالى، أن يبين لهم من فضل آدم، ما يعرفون به فضله، وكمال

حكمة الله وعلمه ف { عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا } أي: أسماء الأشياء، وما هو مسمى بها، فعلمه الاسم والمسمى، أي: الألفاظ والمعاني، حتى المكبر من الأسماء كالقصة، والمصغر كالقصيعة.

وقال ابن كثير رحمه الله: (١ / ٢٢٣) واختار ابن جرير أنه علّمه أسماء الملائكة وأسماء الذرّية؛ لأنه قال: { ثُمَّ عَرَضَهُمْ } وهذا عبارة عما يعقل. وهذا الذي رجّح به ليس بلازم، فإنه لا ينفي أن يدخل معهم غيرهم، ويُعبّر عن الجميع بصيغة من يعقل للتغليب. كما قال: { وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [النور: ٤٥].

[وقد قرأ عبد الله بن مسعود: "ثُمَّ عَرَضَهُنَّ" وقرأ أبي بن كعب: "ثُمَّ عَرَضَهَا" أي: السماوات].

والصحيح أنه علّمه أسماء الأشياء كلها: ذواتها وأفعالها؛ كما قال ابن عباس حتى الفسوة والفسية، يعني أسماء الذوات والأفعال المكبر والمصغر؛ ولهذا قال البخاري في تفسير هذه الآية من كتاب التفسير من صحيحه: حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا مسلم، حدثنا هشام، حدثنا قتادة، عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، وقال لي خليفة: حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا سعيد، عن قتادة عن أنس، عن النبي

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ - : "يَجْتَمِعُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقُولُونَ: لَوْ اسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبِّنَا؟ فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: أَنْتَ أَبُو النَّاسِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَأَسَجَدَ لَكَ مَلَائِكَتُهُ، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ، فَاشْفَعْ لَنَا عِنْدَ رَبِّكَ حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذَكَرُ ذَنْبَهُ فَيَسْتَحِي؛.... الحديث وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ مِنْ حَدِيثِ هِشَامٍ، وَهُوَ ابْنُ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الدُّسْتَوَائِيِّ، عَنْ قَتَادَةَ، بِهِ . وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ مِنْ حَدِيثِ سَعِيدٍ، وَهُوَ ابْنُ أَبِي عَرُوبَةَ، عَنْ قَتَادَةَ وَوَجْهَهُ إِيرَادُهُ هَاهُنَا وَالْمَقْصُودُ مِنْهُ قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: أَنْتَ أَبُو النَّاسِ خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَأَسَجَدَ لَكَ مَلَائِكَتُهُ، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ"، فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّهُ عَلَّمَهُ أَسْمَاءَ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ؛ وَهَذَا قَالَ: { ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ } يَعْنِي: الْمُسَمَّيَاتِ؛ كَمَا قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ قَتَادَةَ. انتهى

وهذا اختيار شيخ الإسلام حيث قال بعد أن ذكر حديث الشفاعة الذي أشار إليه ابن كثير حمله الله كما في مجموع الفتاوى (٧ / ٩٤) وَأَيْضًا قَوْلُهُ: " الْأَسْمَاءُ كُلُّهَا " لَفْظٌ عَامٌّ مُؤَكَّدٌ؛ فَلَا يَجُوزُ تَخْصِيصُهُ بِالِدَّعْوَى. وَقَوْلُهُ: { ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ } لِأَنَّهُ اجْتَمَعَ مَنْ يَعْقِلُ وَمَنْ لَا يَعْقِلُ فَعَلَبَ مَنْ يَعْقِلُ. كَمَا قَالَ: { فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ } . انتهى

قوله تعالى: {ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ}

قال ابن كثير (١ / ٢٢٤): يَعْنِي: الْمُسَمَّيَاتُ؛ كَمَا قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: ثُمَّ عَرَضَ تِلْكَ الْأَسْمَاءَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ {فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}

وَقَالَ السُّدِّيُّ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ أَبِي مَالِكٍ وَعَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - وَعَنْ مُرَّةَ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَعَنْ نَاسٍ مِنَ الصَّحَابَةِ: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا} ثُمَّ عَرَضَ الْخَلْقَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ.

وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ: {ثُمَّ عَرَضَهُمْ} عَرَضَ أَصْحَابَ الْأَسْمَاءِ عَلَى الْمَلَائِكَةِ.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا الْقَاسِمُ، حَدَّثَنَا الْحُسَيْنُ، حَدَّثَنِي الْحَجَّاجُ، عَنْ جَرِيرِ بْنِ حَازِمٍ وَمُبَارِكِ بْنِ فَضَالَةَ، عَنِ الْحَسَنِ - وَأَبِي بَكْرٍ، عَنِ الْحَسَنِ وَقَتَادَةَ - قَالَا عَلَّمَهُ اسْمَ كُلِّ شَيْءٍ، وَجَعَلَ يُسَمِّي كُلَّ شَيْءٍ بِاسْمِهِ، وَعُرِضَتْ عَلَيْهِ أُمَّةٌ أُمَّةً.

وَبِهَذَا الْإِسْنَادِ عَنِ الْحَسَنِ وَقَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ: {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} إِنِّي لَمْ أَخْلُقْ خَلْقًا إِلَّا كُنْتُمْ أَعْلَمَ مِنْهُ، فَأَخْبَرُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ.

وَقَالَ الصَّحَّاحُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٧) لَمْ أَجْعَلْ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً.

وَقَالَ السُّدِّيُّ، عَنْ أَبِي مَالِكٍ وَعَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - وَعَنْ مَرَّةَ
عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَعَنْ نَاسٍ مِنَ الصَّحَابَةِ: إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ أَنَّ بَنِي آدَمَ
يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَيَسْفِكُونَ الدَّمَاءَ. انتهى

وقال القرطبي (١ / ٢٨٤) قَوْلُهُ تَعَالَى: (إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) شَرْطٌ، وَالْجَوَابُ
مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ: إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ أَنَّ بَنِي آدَمَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ
فَأَنْبِئُونِي، قَالَهُ الْمُبَرِّدُ. وَمَعْنَى "صَادِقِينَ" عَالِمِينَ، وَلِذَلِكَ لَمْ يَسْغُ لِلْمَلَائِكَةِ
الْإِجْتِهَادُ وَقَالُوا: "سُبْحَانَكَ!" حَكَاهُ النَّقَّاشُ قَالَ: وَلَوْ لَمْ يَشْتَرِطْ عَلَيْهِمْ
إِلَّا الصِّدْقَ فِي الْإِنْبَاءِ لَجَازَ لَهُمُ الْإِجْتِهَادُ كَمَا جَازَ لِلَّذِي أَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ
عَامٍ حِينَ قَالَ لَهُ: "كَمْ لَبِثْتَ" فَلَمْ يَشْتَرِطْ عَلَيْهِ الْإِصَابَةَ، فَقَالَ وَلَمْ يُصَبِّ
وَلَمْ يُعَنَّفْ، وَهَذَا بَيِّنٌ لَا خَفَاءَ فِيهِ. وَحَكَى الطَّبْرِيُّ وَأَبُو عُبَيْدٍ: أَنَّ بَعْضَ
الْمُفَسِّرِينَ قَالَ إِنَّ مَعْنَى "إِنَّ كُنْتُمْ": إِذْ كُنْتُمْ، وَقَالَا: هَذَا خَطَأٌ.

قال الطبري (١ / ٤٩٠): وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية، تأويل ابن
عباس ومن قال بقوله. ومعنى ذلك: فقال أنبئوني بأسماء من عرضته عليكم
أيها الملائكة - القائلون: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء من
غيرنا، أم منا؟ فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟ إن كنتم صادقين في
قولكم أني إن جعلت خليفتي في الأرض من غيركم عَصَانِي ذريته وأفسدوا
فيها وسفكوا الدماء، وإن جعلتكم فيها أطعموني، واتبعتم أمري بالتعظيم
لي والتقديس. فإنكم إن كنتم لا تعلمون أسماء هؤلاء الذين عرضتهم

عليكم من خلقي، وهم مخلوقون موجودون تروّحهم وتعاينونهم، وعَلِمَهُ
غيركم بتعليمي إِيَّاهُ؛ فَأَنْتُمْ = بما هو غير موجود من الأمور الكائنة التي لم
توجد بَعْدُ، وبما هو مستتر من الأمور -التي هي موجودة عند أعينكم
أخرى أن تكونوا غير عالمين، فلا تسألوني ما ليس لكم به علم، فإني أعلم
بما يصلحكم ويصلح خلقي.

وهذا الفعل من الله جل ثناؤه بملائكته الذين قالوا له: "أَجْعَلْ فِيهَا مِنْ
يُفْسِدُ فِيهَا"، من جهة عتابه جل ذكره إِيَّاهُمْ نظيرُ قوله جل جلاله لنبيه
نوح صلوات الله عليه إذ قال: (رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ
وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ) [سورة هود: ٤٥]: لا تسألن ما ليس لك به علم
إني أعظك أن تكون من الجاهلين. فكذلك الملائكة سألت ربها أن تكون
خُلَفَاءَهُ فِي الْأَرْضِ لِيَسْبَحُوهُ وَيُقَدِّسُوهُ فِيهَا، إذ كان ذرية من أخبرهم أنه
جاعلُهُ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً، يَفْسِدُونَ فِيهَا وَيَسْفِكُونَ الدِّمَاءَ، فقال لهم جل
ذكره: "إني أعلم ما لا تعلمون". انتهى

**قوله تعالى: {قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ
الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) } [البقرة: ٣٢، ٣٣]**

قوله: (قالوا) أي الملائكة (سبحانك) أي نعظمك وننزهك يا الله عن كل
ما لا يليق بك (لا علم لنا إلا ما علمتنا) أي ليس لنا علم إلا من قبلك

وقالوا هذا تواضعا لربهم تعالى ورجوعا عما قالوه وتعظيما لله تعالى الذي لا يعزب عنه شيء في السموات ولا في الرض وتنزيها لله تعالى أن يكون في ملكه شيء إلا وهو على مقتضى علمه وحكمته كما ترى من قولهم إنك أنت العليم الحكيم.

قال الراغب في المفردات (ص: ٣٩٢): السَّبَّحُ: المرّ السَّريع في الماء، وفي الهواء، يقال: سَبَّحَ سَبَّحاً وَسَبَّاحَةً، واستعير لمرّ النجوم في الفلك نحو: وَكُلُّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ [الأنبياء/ ٣٣] ، ولجري الفرس نحو: وَالسَّابِحَاتِ سَبَّحاً [النازعات/ ٣] ، ولسرعة الدَّهَاب في العمل نحو: إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبَّحاً طَوِيلًا [المزمل/ ٧] ، والتَّسْبِيحُ: تنزيه الله تعالى. وأصله: المرّ السَّريع في عبادة الله تعالى، وجعل ذلك في فعل الخير كما جعل الإبعاد في الشَّرِّ، فقيل: أبعده الله، وجعل التَّسْبِيحُ عامًّا في العبادات قولاً كان، أو فعلاً، أو نيّة، قال: فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ [الصفات/ ١٤٣] ، قيل: من المصلّين، والأولى أن يحمل على ثلاثتها، قال: وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ [البقرة/ ٣٠] ، وَسَبَّحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ [غافر/ ٥٥] ، فَسَبَّحَهُ وَأَذْبَارَ السُّجُودِ [ق/ ٤٠] ، قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ [القلم/ ٢٨] ، أي: هَلَّا تعبدونه وتشكرونه، وحمل ذلك على الاستثناء، وهو أن يقول: إن شاء الله، ويدلّ على ذلك قوله: إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلَا يَسْتُنُّونَ [القلم/ ١٧] ، وقال: تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ

فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ [الإسراء/ ٤٤] ، فذلك نحو قوله: وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا [الرعد/ ١٥] ، وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ [النحل/ ٤٩] ، فذلك يقتضي أن يكون تسبيحا على الحقيقة، وسجودا له على وجه لا نفقهه، بدلالة قوله: وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ [الإسراء/ ٤٤] ، ودلالة قوله: وَمَنْ فِيهِنَّ [الإسراء/ ٤٤] ، بعد ذكر السموات والأرض، ولا يصح أن يكون تقديره:

يسبح له من في السموات، ويسجد له من في الأرض، لأنّ هذا ممّا نفقهه، ولأنه محال أن يكون ذلك تقديره، ثم يعطف عليه بقوله:

وَمَنْ فِيهِنَّ وَالْأَشْيَاءَ كُلَّهَا تَسْبِيحُ لَهَا وَتَسْجُدُ لَهَا بَعْضُهَا بِالتَّسْخِيرِ وَبَعْضُهَا بِالِاخْتِيَارِ، وَلَا خِلَافَ أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالذُّبَابَ مُسَبِّحَاتٌ بِالتَّسْخِيرِ، مِنْ حَيْثُ إِنَّ أَحْوَالَهَا تَدُلُّ عَلَى حِكْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِنَّمَا الْخِلَافُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ هَلْ تَسْبِيحُ بِاخْتِيَارٍ؟ وَالآيَةُ تَقْتَضِي ذَلِكَ بِمَا ذَكَرْتُ مِنَ الدَّلَالَةِ، وَ (سُبْحَانَ) أَصْلُهُ مَصْدَرٌ نَحْوُ:

غفران، قَالَ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ [الروم/ ١٧]، وَسُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا [البقرة/ ٣٢]، وَقَوْلُ الشَّاعِرِ: سُبْحَانَ مِنْ عِلْقَمَةِ الْفَاخِرِ

قِيلَ: تَقْدِيرُهُ سُبْحَانَ عِلْقَمَةِ عَلَى طَرِيقِ التَّهَكُّمِ، فزاد فيه (من) ردّا إلى أصله، وقيل:

أراد سبحانه الله من أجل علقمة، فحذف المضاف إليه. والسُّبُوْحُ القدّوس من أسماء الله تعالى، وليس في كلامهم فعول سواهما، وقد يفتحان، نحو: كَلّوب وسمّور، والسُّبْحَةُ: التّسبيح. انتهى

قال الطبري في جامع البيان (١ / ٤٩٤): وفي هذه الآيات الثلاث العبرة لمن اعتبر، والذكرى لمن أذكر، والبيان لمن كان له قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيد، عمّا أودع الله جل ثناؤه آي هذا القرآن من لطائف الحكم التي تعجز عن أوصافها الألسن.

وذلك أن الله جل ثناؤه احتجّ فيها لنبيه صلى الله عليه وسلم على من كان بين ظَهْرانيّه من يهود بني إسرائيل، باطلاعه إياه من علوم الغيب التي لم يكن جل ثناؤه أطلع عليها من خلقه إلا خاصًّا، ولم يكن مُدرِّكًا علمه إلا بالإنباء والإخبار، لتتقرر عندهم صحة نبوته، ويعلموا أن ما أتاهم به فمن عنده، ودلّ فيها على أنّ كل مخبر خبرًا عما قد كان - أو عما هو كائن مما لم يكن، ولم يأت به خبر، ولم يُوضَع له على صحّته برهان، - فمتقولٌ ما يستوجبُ به من ربه العقوبة. ألا ترى أنّ الله جل ذكره ردّ على ملائكته قِيلَهُم: "أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدَّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ" قال: "إني أعلم ما لا تعلمون"، وعرفهم أن قيلَ ذلك لم يكن جائزًا لهم، بما عرّفهم من قصور علمهم عند عرضه ما عرض عليهم من أهل الأسماء، فقال: "أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين".

فلم يكن لهم مَفْرَعٌ إلا الإقرارُ بالعجز، والتبرُّي إليه أن يعلموا إلا ما علّمهم، بقولهم: "سبحانك لا عِلْمَ لنا إلا ما علّمتنا". فكان في ذلك أوضحُ الدلالة وأبينُ الحجة، على كذب مقالة كلِّ من ادعى شيئاً من علوم الغيب من الحُزاة والكهنة والعيافة والمنجّمة. وذكّر بها الذين وصّفنا أمرهم من أهل الكتاب - سوائفَ نعمه على آبائهم، وأياديّه عند أسلافهم، عند إنابتهم إليه، وإقبالهم إلى طاعته، مُستعطفهم بذلك إلى الرشاد، ومُستعيبهم به إلى النجاة. وحذّرهم - بالإصرار والتمادي في البغي والضلال - حلول العقاب بهم، نظيرَ ما أحلّ بعدوّه إبليس، إذ تمادى في الغيِّ والحسار. انتهى

قوله تعالى: {إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} (٣٢) [البقرة: ٣٢]

العليم الذي أحاط علما بكل شيء، إذ العليم الذي يعلم قال تعالى: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ} [البقرة: ٢١٦] وكل اسم يتضمن صفة فالعليم الذي يعلم وذهبت المعتزلة إلى أنه يعلم بذاته لا بصفة لأنهم ينفون الصفات على مذهبهم في التعطيل ونفاة علم الله تعالى من القدرية كفرهم العلماء السنة قال عبد الله بن أحمد (٢ / ٣٨٥) سَمِعْتُ أَبِي رَحِمَهُ اللَّهُ، وَسَأَلَهُ عَلِيُّ بْنُ الْجَهْمِ عَنْ مَنْ قَالَ: بِالْقَدَرِ يَكُونُ كَافِرًا؟ قَالَ: " إِذَا جَحَدَ الْعِلْمَ، إِذَا قَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَكُنْ عَالِمًا حَتَّى خَلَقَ عِلْمًا فَعَلِمَ فَجَحَدَ عِلْمَ

اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَهُوَ كَافِرٌ " وقال: حَوْتَرَةَ بِنِ أَشْرَسَ قَالَ: سَمِعْتُ سَلَامًا أَبَا
الْمُنْدِرِ، غَيْرَ مَرَّةٍ وَهُوَ يَقُولُ: " سَلَوْهُمْ عَنِ الْعِلْمِ، هَلْ عَلِمَ أَوْ لَمْ يَعْلَمْ،
فَإِنْ قَالُوا: قَدْ عَلِمَ، فَلَيْسَ فِي أَيْدِيهِمْ شَيْءٌ، وَإِنْ قَالُوا: لَمْ يَعْلَمْ، فَقَدْ
حَلَّتْ دِمَاؤُهُمْ "

فلا يغيب عنه تعالى ولا يعزب مثقال ذرة في السماوات والأرض، ولا
أصغر من ذلك ولا أكبر إلا هو يعلمه وقد كُتِبَ في اللوح المحفوظ.

وقوله الحكيم: أي ذو الحكمة وهو تعالى له الحكمة التامة التي لا يخرج
عنها مخلوق، ولا يشذ عنها مأمور، فما خلق شيئاً ولا أمر بشيء إلا
لحكمة، والحكمة: وضع الشيء في موضعه اللائق به.

قال الطبري (١ / ٤٩٥): وتأويل ذلك: إنك أنت يا ربنا العليم من غير
تعليم بجميع ما قد كان وما وهو كائن، والعالم للغيوب دون جميع
خلقك. وذلك أنهم نَفَّوْا عن أنفسهم بقولهم: "لا علم لنا إلا ما علَّمتنا"،
أن يكون لهم علم إلا ما علمهم ربهم، وأثبتوا ما نَفَّوْا عن أنفسهم من
ذلك لربهم بقولهم: "إنك أنت العليم"، يعنون بذلك العالم من غير تعليم،
إذ كان مَنْ سِوَاكَ لا يعلم شيئاً إلا بتعليم غيره إياه. والحكيم: هو ذو
الحكمة. كما: حدثني به المثني، قال: حدثنا عبد الله بن صالح، قال:
حدثني معاوية، عن علي، عن ابن عباس: "العليم" الذي قد كمل في
علمه، و"الحكيم" الذي قد كمل في حُكْمِهِ.

وقد قيل، إن معنى الحكيم: الحاكم، كما أنّ العليم بمعنى العالم، والخبير بمعنى الخابر. انتهى قلت: ولا يمنع أن يدل الاسم على معنيين أو أكثر فأسماء الله تعالى بالغة في الحسن كماله قال ابن القيم في بدائع الفوائد (١ / ١٦٨): أن من أسمائه الحسنى ما يكون دالا على عدة صفات ويكون ذلك الاسم متناولا لجميعها تناول الاسم الدال على الصفة **الواحدة** لها كما تقدم بيانه كاسمه العظيم والمجيد والصمد كما قال ابن عباس: فيما رواه عنه ابن أبي حاتم في تفسيره: "الصمد: السيد الذي قد كمل في سؤدده والشريف: الذي قد كمل في شرفه والعظيم: الذي قد كمل في عظمته والحليم الذي قد كمل في حلمه والعليم الذي قد كمل في علمه والحكيم الذي قد كمل في حكمته وهو الذي قد كمل في أنواع شرفه وسؤدده وهو الله سبحانه إسناده ضعيف" هذه صفته لا تنبغي إلا له ليس له كفوا أحد وليس كمثله شيء سبحانه الله الواحد القهار هذا لفظه وهذا مما خفي على كثير ممن تعاطى الكلام في تفسير الأسماء الحسنى ففسر الاسم بدون معناه ونقصه من حيث لا يعلم فمن لم يحط بهذا علما بنحس الاسم الأعظم حقه وهضمه معناه فتدبره. انتهى

قال البغوي ط طيبة (١ / ٨٠): { إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ } بِخَلْقِكَ { الْحَكِيمُ } فِي أَمْرِكَ وَالْحَكِيمُ لَهُ مَعْنَيَانِ: أَحَدُهُمَا الْحَاكِمُ وَهُوَ الْقَاضِي الْعَدْلُ وَالثَّانِي الْمُحْكِمُ لِلْأَمْرِ كَيْ لَا يَتَطَرَّقَ إِلَيْهِ الْفَسَادُ وَأَصْلُ الْحِكْمَةِ فِي اللُّغَةِ: الْمَنْعُ

فَهِيَ تَمْنَعُ صَاحِبَهَا مِنَ الْبَاطِلِ وَمِنْهُ حِكْمَةُ الدَّابَّةِ لِأَنَّهَا تَمْنَعُهَا مِنَ
الْإِعْوِجَاجِ. انتهى

وقال العثيمين في الفاتحة والبقرة (١ / ١٢١): ف {العليم}: ذو العلم
الواسع المحيط بكل شيء جملة وتفصيلاً لما كان، وما يكون من أفعاله،
وأفعال خلقه..

و {الحكيم}: ذو الحكمة البالغة التي تعجز عن إدراكها عقول العقلاء
وإن كانت قد تدرك شيئاً منها؛ و "الحكمة" هي وضع الشيء في موضعه
اللائق به؛ وتكون في شرع الله، وفي قدر الله؛ أما الحكمة في شرعه فإن
جميع الشرائع مطابقة للحكمة في زمانها، ومكانها، وأحوال أممها؛ فما أمر
الله بشيء، فقال العقل الصريح: "ليته لم يأمر به"؛ وما نهي عن شيء،
فقال: "ليته لم ينه عنه"؛ وأما الحكمة في قدره فما من شيء يقدره الله إلا
وهو مشتمل على الحكمة إما عامة؛ وإما خاصة..

واعلم أن الحكمة تكون في نفس الشيء: فوقوعه على الوجه الذي حكم
الله تعالى به في غاية الحكمة؛ وتكون في الغاية المقصودة منه: فأحكام الله
الكونية، والشرعية كلها لغايات محمودة قد تكون معلومة لنا، وقد تكون
مجهولة؛ والأمثلة على هذا كثيرة واضحة.

ول {الحكيم} معنى آخر؛ وهو ذو الحكم، والسلطان التام؛ فلا معقب
لحكمه؛ وحكمه تعالى نوعان: شرعي، وقدري؛ فأما الشرعي فوحيه الذي

جاءت به رسله؛ ومنه قوله تعالى: { أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون } [المائدة: ٥٠] ، وقوله تعالى في سورة الممتحنة: { ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم } [الممتحنة: ١٠] ؛ وأما حكمه القدري فهو ما قضى به قدراً على عباده من شدة، ورخاء، وحزن، وسرور، وغير ذلك؛ ومنه قوله تعالى عن أحد إخوة يوسف: { فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين } (يوسف: ٨٠)

والفرق بين الحكم الشرعي، والكويني: أن الشرعي لا يلزم وقوعه ممن حُكم عليه به؛ ولهذا يكون العصاة من بني آدم، وغيرهم المخالفون لحكم الله الشرعي؛ وأما الحكم القدري فلا معارض له، ولا يخرج أحد عنه؛ بل هو نافذ في عباده على كل حال. انتهى

وقد قرن الله عزوجل بين هذين الاسمين في كتابه في أربعة مواطن من القرآن والقاعدة عند أهل السنة والجماعة في هذا الباب أن الأسماء الحسنی يكون لها كمال حال أفرادها وكمال في اقترائها.

قوله تعالى: { قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ } [البقرة: ٣٣]

القائل هو الله تعالى ذكره حيث أراد أن يظهر للملائكة فضل آدم عليه السلام قال يا آدم أخبرهم بأسمائهم وقد تقدم أن الله تعالى ذكره علم آدم عليه السلام أسماء كل شيء.

قوله تعالى: **فَلَمَّا أَنْبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ { [البقرة: ٣٣] }** أي أخبرهم بأسماء ما علمه تعالى قال الله تعالى للملائكة: **{ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ { }** أي يَا مَلَائِكَتِي **{ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ { }** أي مَا كَانَ مِنْهُمَا وَمَا يَكُونُ لِأَنَّهُ قَدْ قَالَ لَهُمْ **{ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ { }** والغيب ما غاب عن الأنظار قال الراغب في المفردات في غريب القرآن (ص: ٦١٦): **الغَيْبُ** مصدر غَابَتِ الشَّمْسُ وغيرها: إذا استترت عن العين، يقال: غَابَ عَنِّي كَذَا، قال تعالى: **أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ [النمل / ٢٠]**، واستعمل في كلِّ غَائِبٍ عن الحاسَّة، وعمَّا يَغِيبُ عن علم الإنسان بمعنى الغَائِبِ، قال: **وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ [النمل / ٧٥]**، ويقال للشيء: غَيْبٌ وَغَائِبٌ باعتباره بالناس لا بالله تعالى، فإنه لا يغيب عنه شيء، كما لا يعزب عنه مثقال ذرَّة في السَّمَوَاتِ ولا في الأَرْضِ. وقوله: **عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ [الأنعام / ٧٣]**، أي: ما يغيب عنكم وما تشهدونه. انتهى

قوله تعالى: **{ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ { }** أي أعلم ما تظهرون **{ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ { }** وأعلم تخفون وتغيبون وتسترون، وقد اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك إلى ثلاثة أقوال:

القول الأول: ما رُوي عن ابن عباس في ذلك من طريق أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس: "وأعلم ما تبذون" يقول: ما تظهرون، "وما

كنتم تكتمون" يقول: أعلم السرّ كما أعلم العلانية. يعني: ما كتم إبليس في نفسه من الكبر والإغترار.

و عن السُّدِّيِّ في خبر ذكره، عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مُرَّة، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: "وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون"، قال: قولهم: "أجعل فيها من يُفسد فيها"، فهذا الذي أبدوا، "وما كنتم تكتمون"، يعني ما أسرَّ إبليس في نفسه من الكبر .

و عن سعيد بن جبير، قوله: "وأعلم ما تُبدون وما كنتم تكتمون"، قال: ما أسرَّ إبليس في نفسه.

والقول **الثاني**: ما روي عن سفيان في قوله: "وأعلم ما تُبدون وما كنتم تكتمون"، قال: ما أسرَّ إبليس في نفسه من الكبر ألا يسجد لآدم.

والقول **الثالث**: وعن مهدي بن ميمون، قال: سمعت الحسن بن دينار، قال للحسن - ونحن جُلوس عنده في منزله-: يا أبا سعيد، أرأيت قول الله للملائكة: "وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون"، ما الذي كتمت الملائكة؟ فقال الحسن: إن الله لما خلق آدم رأت الملائكة خلقًا عجيبًا، فكأنهم دخلهم من ذلك شيء، فأقبل بعضهم إلى بعض، وأسروا ذلك بينهم، فقالوا: وما يُهمكم من هذا المخلوق! إن الله لن يخلق خلقًا إلا كنا أكرمَ عليه منه.

وعن قتادة، في قوله: "وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون"، قال: أسروا بينهم فقالوا: يخلق الله ما يشاء أن يخلق، فلن يخلق خلقًا إلا ونحن أكرم عليه منه.

عن الربيع بن أنس: "وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون"، فكان الذي أبدوا حين قالوا: "أجعل فيها من يفسد فيها"، وكان الذي كتموا بينهم قولهم: لن يخلق ربنا خلقًا إلا كنا نحن أعلم منه وأكرم. فعرفوا أن الله فضل عليهم آدم في العلم والكرم.

قال ابن كثير (١/ ٢٢٥): فَلَمَّا ظَهَرَ فَضْلُ آدَمَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، عَلَى الْمَلَائِكَةِ، عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فِي سَرِّهِ مَا عَلَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ أَسْمَاءِ الْأَشْيَاءِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمَلَائِكَةِ: { أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ } أَي: أَلَمْ أَتَقَدَّمْ إِلَيْكُمْ أَنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ الظَّاهِرِ وَالْخَفِيِّ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { وَإِنْ بَجَّهْرِ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى } وَكَمَا قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْهُدْهِدِ أَنَّهُ قَالَ لِسُلَيْمَانَ: { أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ } .

وقيل في معنى قوله تعالى: { وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ } غير ما ذكرناه؛ فَرَوَى الضَّحَّاكُ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: { وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ

تَكْتُمُونَ} قَالَ: يَقُولُ: أَعْلَمُ السِّرَّ كَمَا أَعْلَمُ الْعَلَانِيَةَ، يَعْنِي: مَا كَتَمَ إِبْلِيسُ فِي نَفْسِهِ مِنَ الْكِبْرِ وَالْإِعْتِرَارِ.

وَقَالَ السُّدِّيُّ، عَنْ أَبِي مَالِكٍ وَعَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - وَعَنْ مُرَّةَ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَعَنْ نَاسٍ مِنَ الصَّحَابَةِ، قَالَ: قَوْلُهُمْ: {أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا} فَهَذَا الَّذِي أَبَدُوا {وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ} يَعْنِي: مَا أَسَرَ إِبْلِيسُ فِي نَفْسِهِ مِنَ الْكِبْرِ.

وَكَذَلِكَ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَجُحَاهِدٌ، وَالسُّدِّيُّ، وَالضَّحَّاكُ، وَالثَّوْرِيُّ. وَاخْتَارَ ذَلِكَ ابْنُ جَرِيرٍ.

وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَالْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ: هُوَ قَوْلُهُمْ: لَمْ يَخْلُقْ رَبُّنَا خَلْقًا إِلَّا كُنَّا أَعْلَمَ مِنْهُ وَأَكْرَمَ.

وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الرَّازِيُّ، عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ: {وَأَعْلَمَ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ} فَكَانَ الَّذِي أَبَدُوا قَوْلُهُمْ: {أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا} وَكَانَ الَّذِي كَتَمُوا بَيْنَهُمْ قَوْلُهُمْ: لَنْ يَخْلُقَ رَبُّنَا خَلْقًا إِلَّا كُنَّا أَعْلَمَ مِنْهُ وَأَكْرَمَ. فَعَرَفُوا أَنَّ اللَّهَ فَضَّلَ عَلَيْهِمْ آدَمَ فِي الْعِلْمِ، وَالْكَرَمِ.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا يُونُسُ، حَدَّثَنَا ابْنُ وَهْبٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، فِي قِصَّةِ الْمَلَائِكَةِ وَآدَمَ: فَقَالَ اللَّهُ لِلْمَلَائِكَةِ: كَمَا لَمْ تَعْلَمُوا هَذِهِ الْأَسْمَاءَ فَلَيْسَ لَكُمْ عِلْمٌ، إِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَجْعَلَهُمْ لِيُفْسِدُوا فِيهَا، هَذَا

عِنْدِي قَدْ عَلِمْتُهُ؛ وَلِذَلِكَ أَخْفَيْتُ عَنْكُمْ أَنِّي أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يَعْصِينِي وَمَنْ يُطِيعُنِي، قَالَ: وَسَبَقَ مِنَ اللَّهِ {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} قَالَ: وَلَمْ تَعْلَمْ الْمَلَائِكَةُ ذَلِكَ وَلَمْ يَدْرُوهُ قَالَ: وَلَمَّا رَأَوْا مَا أَعْطَى اللَّهُ آدَمَ مِنَ الْعِلْمِ أَقْرَبُوا لَهُ بِالْفَضْلِ.

وَقَالَ ابْنُ حَرِيرٍ: وَأَوْلَى الْأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَهُوَ أَنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَأَعْلَمَ مَا تُبْدُونَ} وَأَعْلَمَ -مَعَ عَلِمِي غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ -مَا تُظْهِرُونَهُ بِالْسِنْتِكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تُخْفُونَ فِي أَنْفُسِكُمْ، فَلَا يَخْفَى عَلَيَّ شَيْءٌ، سِوَاءَ عِنْدِي سَرَائِرِكُمْ، وَعَلَانِيَتِكُمْ.

وَالَّذِي أَظْهَرُوهُ بِالْسِنْتِهِمْ قَوْلُهُمْ: أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا، وَالَّذِي كَانُوا يَكْتُمُونَ مَا كَانَ عَلَيْهِ مُنْطَوِيًّا إِبْلِيسُ مِنَ الْخِلَافِ عَلَى اللَّهِ فِي أَوَامِرِهِ، وَالتَّكْبِيرِ عَنْ طَاعَتِهِ. انتهى

وأولى الأقوال والله أعلم عموم الآية وأن الله تعالى عليم بما أظهره من القول وعليم بما هو مكتوم غير ظاهر سواء في ذلك ما علمه في قلب إبليس أو ما ظنوه من فضيلتهم والله أعلم.

قوله تعالى: **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ** (البقرة: ٣٤)

قوله تعالى: **{ وإذ قلنا }** يعني اذكر إذ قلنا؛ ومثل هذا التعبير يتكرر كثيراً في القرآن، والعلماء يقدرّون لفظ: "اذكر"، وهم بحاجة إلى هذا التقدير؛ لأن "إذ" ظرفية؛ والظرف لا بد له من شيء يتعلق به إما مذكوراً؛ وإما محذوفاً؛ وفي نظم الجمل:

لا بد للجار من التعلق = بفعل أو معناه نحو مرتقي.

ومثله الظرف؛ وجاء الضمير في **{ قلنا }** بضمير الجمع من باب التعظيم. لا التعدد. كما هو معلوم.

قوله تعالى: **{ للملائكة }**: سبق الكلام على ذكر الملائكة.

قوله تعالى: **{ اسجدوا لآدم }**: "السجود" هو السجود على الأرض بأن يضع الساجد جبهته على الأرض خضوعاً، وخشوعاً؛ وليس المراد به هنا الركوع؛ لأن الله تعالى فرّق بين الركوع والسجود، كما في قوله تعالى: **{ تراهم ركعاً سجداً }** [الفتح: ٢٩]، وقوله تعالى: **{ يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا }** [الحج: ٧٧] انتهى من تفسير العثيمين

(١ / ١٢٥) ومما يدل على أن السجود على الأرض ويكون على سبعة

أعضاء حديث

ابن عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَمَرْتُ أَنْ أَسْجُدَ عَلَى سَبْعَةِ أَعْظُمِ الْجُبْهَةِ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ عَلَى أَنْفِهِ وَالْيَدَيْنِ، وَالرَّجْلَيْنِ، وَأَطْرَافِ الْقَدَمَيْنِ، وَلَا نَكْفَتِ الثِّيَابَ، وَلَا الشَّعْرَ» أخرجه صحيح مسلم (٤٩٠).

قال القاسمي في محاسن التأويل (١ / ٢٨٩): للناس في هذا السجود أقوال: أحدها: أنه تكريم لآدم، وطاعة لله، ولم يكن عبادة لآدم.

وقيل: السجود لله، وآدم قبله، أو السجود لآدم تحية، أو السجود لآدم عبادة بأمر الله، وفرضه عليهم. ذكر ابن الأنباري عن الفراء وجماعة من الأئمة، أن سجود الملائكة لآدم، كان تحية، ولم يكن عبادة. وكان سجود تعظيم وتسليم وتحية، لا سجود صلاة وعبادة. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: قال أهل العلم: السجود كان لآدم بأمر الله وفرضه. وعلى هذا إجماع كل من يسمع قوله. فإن الله تعالى قال اسْجُدُوا لِآدَمَ ولم يقل: إلى آدم. وكل حرف له معنى. وفرق بين «سجدت له» وبين «سجدت إليه» قال تعالى: لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ [فصلت: ٣٧] وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ [الرعد: ١٥] أجمع المسلمون على أن السجود للأحجار والأشجار والدواب محرّم. وأما الكعبة، فيقال: كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصلي إلى بيت المقدس، ثم صلى إلى الكعبة، ولا يقال صلى لبيت المقدس، ولا للكعبة. والصواب

أن الخضوع بالقلوب، والاعتراف بالعبودية، لا يصلى على الإطلاق إلا لله سبحانه. وأما السجود فشريعة من الشرائع يتبع الأمر. فلو أمرنا سبحانه أن نسجد لأحد من خلقه، لسجدنا طاعة واتباعاً لأمره.

فسجود الملائكة لآدم عبادة لله وطاعة وقربة يتقربون بها إليه. وهو لآدم تشريف وتعظيم وتكريم. وسجود إخوة يوسف له تحية وسلام. ولم يأت أن آدم سجد للملائكة. بل لم يؤمر بالسجود إلا لله رب العالمين. وبالجملة، أهل السنة قالوا: إنه سجود تعظيم وتكريم وتحية له. وقالت المعتزلة: كان آدم كالقابلة يسجد إليه، ولم يسجدوا له. قالوا ذلك هرباً من أن تكون الآية الكريمة حجة عليهم. فإن أهل السنة قالوا: إبليس من الملائكة، وصالح البشر أفضل من الملائكة، واحتجوا بسجود الملائكة لآدم. وخالفت المعتزلة في ذلك وقالت: الملائكة أفضل من البشر، وسجود الملائكة لآدم كان كالقابلة، ويطلبه ما حكى الله سبحانه عن إبليس قال أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأُحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا [الإسراء: ٦٢]. انتهى

قال ابن عثيمين رحمه الله: قوله تعالى: {فسجدوا} أي من غير تأخير؛ فالفاء هنا للترتيب، والتعقيب؛ {إلا إبليس} هو الشيطان؛ وسمي إبليساً لأنه أبلس من رحمة الله. أي أيس منها يأساً لا رجاء بعده. {أبي} أي امتنع؛ {واستكبر} أي صار ذا كبر؛

قال القاسمي في محاسن التأويل (١/ ٢٩٠): اختلفوا في الملائكة الذين أمروا بالسجود، فقيل: هم الذين كانوا مع إبليس في الأرض. قال تقي الدين بن تيمية: هذا القول ليس من أقوال المسلمين واليهود النصارى. وقيل: هم جميع الملائكة، حتى جبريل وميكائيل. وهذا قول العامة من أهل العلم بالكتاب والسنة. قال ابن تيمية: ومن قال خلافه فقد ردّ القرآن بالكذب والبهتان، لأنه سبحانه قال فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ [الحجر: ٣٠]، وهذا تأكيد للعموم. انتهى

قال الشنقيطي في أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (١/ ٣٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ) لَمْ يُبَيَّنْ هُنَا هَلْ قَالَ لَهُمْ ذَلِكَ قَبْلَ خَلْقِ آدَمَ أَوْ بَعْدَ خَلْقِهِ؟ وَقَدْ صَرَّحَ فِي سُورَةِ «الْحَجْرِ» وَ «ص» بِأَنَّهُ قَالَ لَهُمْ ذَلِكَ قَبْلَ خَلْقِ آدَمَ. فَقَالَ فِي «الْحَجْرِ»: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ) [الآية ٢٨، ٢٩] ، وَقَالَ فِي سُورَةِ «ص»: (إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ) [الآية ٧١، ٧٢] .

قَوْلُهُ تَعَالَى: (إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ) لَمْ يُبَيَّنْ هُنَا مُوجِبَ اسْتِكْبَارِهِ فِي زَعْمِهِ، وَلَكِنَّهُ بَيَّنَّهُ فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ كَقَوْلِهِ: (قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ

نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ) [٧ \ ١٢] ، وَقَوْلِهِ: (قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمِيمٍ مَسْنُونٍ) [١٥ \ ٣٣] .

تَنْبِيهُ

مِثْلُ قِيَاسِ إِبْلِيسَ نَفْسُهُ عَلَى عُنُصْرِهِ، الَّذِي هُوَ النَّارُ وَقِيَاسِهِ آدَمَ عَلَى عُنُصْرِهِ، الَّذِي هُوَ الطِّينُ وَاسْتِنْتَاجُهُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْ آدَمَ. وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُؤَمَّرَ بِالسُّجُودِ لِمَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ، مَعَ وُجُودِ النَّصِّ الصَّرِيحِ الَّذِي هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (اسْجُدُوا لِآدَمَ) يُسَمَّى فِي اصْطِلَاحِ الْأُصُولِيِّينَ فَاسِدُ الْإِعْتِبَارِ. وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِ صَاحِبِ «مَرَاقِي السُّعُودِ»: [الرَّحْزُ]

وَإِخْتِلافُ لِلنَّصِّ أَوْ إِجْمَاعِ دَعَا ... فَسَادَ الْإِعْتِبَارِ كُلُّ مَنْ وَعَى

فَكُلُّ مَنْ رَدَّ نُصُوصَ الْوَحْيِ بِالْأَقْيَسَةِ فَسَلَفُهُ فِي ذَلِكَ إِبْلِيسُ، وَقِيَاسُ إِبْلِيسَ هَذَا لَعَنَهُ اللَّهُ بَاطِلٌ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ: **الأول**: أَنَّهُ فَاسِدُ الْإِعْتِبَارِ ؛ لِمُخَالَفَةِ النَّصِّ الصَّرِيحِ كَمَا تَقَدَّمَ قَرِيبًا.

الثاني: أَنَّا لَا نُسَلِّمُ أَنَّ النَّارَ خَيْرٌ مِنَ الطِّينِ، بَلِ الطِّينُ خَيْرٌ مِنَ النَّارِ ؛ لِأَنَّ طَبِيعَتَهَا الْخِفَّةُ وَالطَّيِّشُ وَالْإِفْسَادُ وَالتَّفْرِيقُ، وَطَبِيعَتُهُ الرِّزَانَةُ وَالْإِصْلَاحُ فَتُودِعُهُ الْحَبَّةَ فَيُعْطِيكَهَا سُنْبُلَةً، وَالتَّوَاةَ فَيُعْطِيكَهَا مِخْلَةً.

وَإِذَا أَرَدَتْ أَنْ تَعْرِفَ قَدْرَ الطِّينِ فَانظُرِي إِلَى الرِّيَاضِ النَّاضِرَةِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الثَّمَارِ اللَّذِيذَةِ، وَالْأَزْهَارِ الْجَمِيلَةِ، وَالرَّوَائِحِ الطَّيِّبَةِ تَعْلَمُ أَنَّ الطِّينَ خَيْرٌ مِنَ النَّارِ.

الثالث: أَنَّا لَوْ سَلَّمْنَا تَسْلِيمًا جَدَلِيًّا أَنَّ النَّارَ خَيْرٌ مِنَ الطِّينِ، فَإِنَّهُ لَا يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ إِبْلِيسَ خَيْرٌ مِنْ آدَمَ ؛ لِأَنَّ شَرَفَ الْأَصْلِ لَا يَقْتَضِي شَرَفَ الْفَرْعِ، بَلْ قَدْ يَكُونُ الْأَصْلُ رَفِيعَ الْفَرْعِ وَضِيعًا، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

[الْبَسِيطُ]

إِذَا افْتَخَرْتَ بِآبَاءٍ لَهُمْ شَرَفٌ ... قُلْنَا صَدَقْتَ وَلَكِنْ بئسَ مَا وَلَدُوا
وَقَالَ الْآخَرُ: [الْمُتَقَارِبُ]

وَمَا يَنْفَعُ الْأَصْلُ مِنْ هَاشِمٍ ... إِذَا كَانَتِ النَّفْسُ مِنْ بَاهِلِهِ. انتهى
قال القاسمي في محاسن التأويل (١ / ٢٩٠):

للعلماء في إبليس، هل كان من الملائكة أم لا؟ قولان: أحدهما أنه كان من الملائكة. قاله ابن عباس وابن مسعود وسعيد بن المسيب، واختاره الشيخ موفق الدين والشيخ أبو الحسن الأشعري وأئمة المالكية وابن جرير الطبري. قال البغوي: هذا قول أكثر المفسرين، لأنه سبحانه أمر الملائكة بالسجود لآدم. قال تعالى: وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ، فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ فَلَوْلَا أَنَّهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، لَمَا تَوَجَّهَ الْأَمْرُ إِلَيْهِ بِالسُّجُودِ، وَلَوْ لَمْ يَتَوَجَّهْ

الأمر إليه بالسجود لم يكن عاصيا، ولما استحق الخزي والنكال. والقول الثاني أنه كان من الجن، ولم يكن من الملائكة. قاله ابن عباس، في رواية، والحسن وقتادة، واختاره الزمخشري وأبو البقاء العكبري والكواشي في تفسيره. لقوله تعالى: **إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ [الكهف: ٥٠]**، فهو أصل الجن، كما أن آدم أصل الإنس، ولأنه خلق من نار، والملائكة خلقوا من نور، ولأن له ذرية، ولا ذرية للملائكة.

قال في الكشف: إنما تناوله الأمر، وهو للملائكة خاصة، لأن إبليس كان في صحبتهم، وكان يعبد الله عبادتهم، فلما أمروا بالسجود لآدم والتواضع له كرامة له، كان الجنّي الذي معهم أجدر بأن يتواضع. والقول الأول هو الصحيح الذي عليه جمهور العلماء وصححه البغوي، وأجابوا عن قوله تعالى: **إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ أَي من الملائكة الذين هم خزنة الجنة.**

قال ابن القيم: الصواب التفصيل في هذه المسألة، وأن القولين في الحقيقة قول واحد. فإن إبليس كان مع الملائكة بصورته وليس منهم بمادته وأصله. كان أصله من نار، وأصل الملائكة من نور. فالنافي كونه من الملائكة، والمثبت، لم يتواردا على محل واحد. وكذلك قال شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية في الفتاوي المصرية: وقيل إن فرقة من الملائكة خلقوا من النار. سموا «جنّا» ، لاستئثارهم عن الأعين، فأبليس كان منهم. والدليل على

ذلك قوله تعالى: **وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسْبًا** [الصفات: ١٥٨] ، وهو قولهم: الملائكة بنات الله، ولما أخرج الله من الملائكة جعل له ذرية.

سئل الشعبي: هل لإبليس زوجة؟ قال: ذلك عرس لم أشهده! قال: ثم قرأت هذه الآية، فعلمت أنه لا يكون له ذرية إلا من زوجة. فقلت: نعم. وقال قوم: ليس له ذرية ولا أولاد، وذريته أعوانه من الشياطين. انتهى

الصحيح ما تقدم بيانه واختاره ابن القيم وابن كثير وغيرهم من المحققين أن الشيطان الرجيم الذي هو إبليس اللعين كان من الجن لا من الملائكة إلا في المصاحبة ويدل على ذلك أمور:

الأول: قوله تعالى: **{إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ}** [الكهف: ٥٠] وهو ظاهر في الدلالة وتأويله من أنه من زمرة من الملائكة من خزان الجنة بعيد.

الثاني: إخبار الله تعالى أنه من الشياطين قال تعالى: **{إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ}** [الأعراف: ٢٧] وهذه الآية في الشياطين إجماعاً.

الثالث: معصيته لله تعالى وكبره وجرأته بخلاف ما عليه الملائكة من الخضوع والتواضع والعبادة لربهم تعالى قال تعالى: **{وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يُسْتَكْبِرُونَ}** (٤٩) **يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}** [النحل: ٤٩ ، ٥٠] وقال

جل ذكره: { عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } [التحریم: ٦] وقال تعالى: { لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهٖ يَعْمَلُونَ } [الأنبياء: ٢٧].

الرابع: شدة كبر إبليس وعناده وهذا دليل على فساد في قلبه.

الخامس: حسده لآدم، والملائكة منزهون عن ذلك.

السادس: تصريحه أن الله تعالى خلقه من نار وقد تقدم الحديث في بيان ذلك بينما الملائكة خلقوا من نور إلى غير ذلك من الأوجه.

قوله تعالى: { وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ } [البقرة: ٣٤] أي صار من الكافرين ملازما لهذا الطريق السيء

قال القاسمي في محاسن التأويل (١ / ٢٩١): في قوله تعالى: وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ قولان: أحدهما أنه وقت العبادة كان منافقا، والثاني أنه كان مؤمنا ثم كفر، وهذا قول الأكثرين. فقيل في معنى الآية وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ في علم الله، أي كان عالما في الأزل أنه سيكفر. والذي عليه الأكثرون أن إبليس أول كافر بالله. أو يقال: معنى الآية أنه صار من الذين وافقوه في الكفر بعد ذلك. واختلف الناس بأي سبب كفر إبليس، لعنه الله. فقالت الخوارج:

إنما كفر بمعصية الله، وكل معصية كفر، وهذا قول باطل بالكتاب والسنة وإجماع الأمة. وقال آخرون: كفر بترك السجود لآدم ومخالفته أمر الله. وقال آخرون: كفر لأنه خالف الأمر الشفاهي من الله، فإن الله خاطب الملائكة وأمرهم بالسجود. ومخالفة الأمر الشفاهي أشد قبحا. وقال جمهور الناس: كفر إبليس لأنه أبى السجود واستكبر وعاند وطعن واعتقد أنه محق في تمرده، واستدل ب «أنا خيرٌ منه» [الأعراف: ١٢] كما يأتي. فكأنه ترك السجود لآدم. تسفيها لأمر الله وحكمته. وهذا الكبر عبر عنه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

بقوله: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» كذا في كتاب الاستعاذة للإمام ابن مفلح الحنبلي رحمه الله تعالى. انتهى

وفي مسلم (٨١): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِذَا قرأ ابنُ آدَمَ السَّجْدَةَ فَسَجَدَ اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يبكي، يَقُولُ: يَا وَيْلَهُ - وَفِي رِوَايَةٍ يَا وَيْلِي - أَمَرَ ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَأَبَيْتُ فَلِي النَّارُ "

وفي هذا رد على من زعم أن الكفر لا يكون إلا بالجحود وسطر هذا في عقيدته أبو جعفر الطحاوي رحمه الله حيث قال: وَلَا يَخْرُجُ الْعَبْدُ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَّا بِجُحُودٍ مَا أَدْخَلَهُ فِيهِ. انتهى وقد رد العلماء على هذا الإطلاق فقال ابن باز رحمه الله: وفي هذا الإطلاق نظر قلت وذلك أن الكفر قد

يكون باللسان كسب الله تعالى أو سب رسوله صلى الله عليه وسلم، وقد يكون بالفعل كالسجود لغير الله تعالى أو الذبح والنذر لغيره، وقد يكون بالاعتقاد كاعتقاد أن الله تعالى في كل مكان أو أن له شريكاً أو معيناً إلى غير ذلك ولم يكن إبليس جاحداً وإنما كان كفره كفر استكبار، وإباء، وإعراض.

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب التميمي في الرسالة المفيدة (ص: ٤٥) والكفر كفران كفر مخرج من الملة وكفر غير مخرج من الملة. النوع الأول: الكفر الذي يخرج من الملة وهو خمسة أنواع:

"النوع الأول" كفر التكذيب، والدليل قوله تعالى: { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ }.

"النوع الثاني" كفر الإباء والاستكبار مع التصديق والدليل قوله تعالى: { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ }.

"النوع الثالث" كفر الشك وهو كفر الظن، والدليل قوله تعالى: { وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ

يُحَاوِرُهُ أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا}.

"النوع الرابع" كفر الإعراض، والدليل قوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ}.

"النوع الخامس" كفر النفاق، والدليل قوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ}.

النوع الثاني: وكفر أصغر لا يخرج من الملة وهو كفر النعمة،

والدليل قوله تعالى: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ}. انتهى

قال ابن القيم في الفوائد (ص: ١٥٧):

أَرْكَانُ الْكُفْرِ أَرْبَعَةٌ الْكِبْرُ وَالْحَسَدُ وَالْغَضَبُ وَالشَّهْوَةُ فَالْكِبْرُ يَمْنَعُهُ الْإِنْقِيَادَ وَالْحَسَدُ يَمْنَعُهُ قَبُولَ النَّصِيحَةِ وَبِذَلِكَ وَالْغَضَبُ يَمْنَعُهُ الْعَدْلَ وَالشَّهْوَةُ تَمْنَعُهُ التَّفَرُّغَ لِلْعِبَادَةِ فَإِذَا انْهَدِمَ رُكْنُ الْكِبْرِ سَهَلَ عَلَيْهِ الْإِنْقِيَادُ وَإِذَا انْهَدِمَ رُكْنُ الْحَسَدِ سَهَلَ عَلَيْهِ قَبُولُ النَّصِيحَةِ وَبِذَلِكَ وَإِذَا انْهَدِمَ رُكْنُ الْغَضَبِ سَهَلَ عَلَيْهِ الْعَدْلُ وَالتَّوَاضُعُ وَإِذَا انْهَدِمَ رُكْنُ الشَّهْوَةِ سَهَلَ عَلَيْهِ الصَّبْرُ وَالْعِفَافُ وَالْعِبَادَةُ وَرَوَّالِ الْجِبَالِ عَنْ أَمَاكِنِهَا. انتهى

قال ابن عثيمين رحمه الله: زعم بعض العلماء أن المراد: كان من الكافرين في علم الله بناءً على أن {كان} فعل ماضٍ والمضي يدل على شيء سابق؛ لكن هناك تخريجاً أحسن من هذا: أن نقول: إن "كان" تأتي أحياناً مسلوبة الزمان، ويراد بها تحقق اتصاف الموصوف بهذه الصفة؛ ومن ذلك قوله تعالى: {وكان الله غفوراً رحيماً} [النساء: ٩٦] ، وقوله تعالى: {وكان الله عزيزاً حكيماً} [النساء: ١٥٨] ، وقوله تعالى: {وكان الله سمياً بصيراً} [النساء: ١٣٤] ، وما أشبهها؛ هذه ليس المعنى أنه كان فيما مضى؛ بل لا يزال؛ فتكون {كان} هنا مسلوبة الزمان، ويراد بها تحقيق اتصاف الموصوف بما دلت عليه الجملة؛ وهذا هو الأقرب، وليس فيه تأويل؛ ويُجرى الكلام على ظاهره. انتهى وما قرره ابن عثيمين رحمه الله هو الموافق لعقيدة السلف رضوان الله عليهم.

قال ابن كثير رحمه الله (١/ ١٣٩): قال بعض المُعَرِّبِينَ: وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ أَيَّ وَصَارَ مِنَ الْكَافِرِينَ بِسَبَبِ امْتِنَاعِهِ كَمَا قَالَ فَكَانَ مِنَ الْمُعَرِّبِينَ [هُود: ٤٣] وَقَالَ: فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ [البقرة: ٣٥] وقال الشاعر: [الطويل] بَتَيْهَاءَ قَفْرٌ وَالْمَطِيَّ كَأَنَّهَا. قَطَا الحُزْنَ قَدْ كَانَتْ فِرَاخًا بُيُوضُهَا «٢» أَيَّ قَدْ صَارَتْ. وَقَالَ ابن فورك: «كان» هنا بمعنى «صار» خطأ تردّه الأحوال. وقال جمهور المتأولين تقديره وَقَدْ كَانَ فِي عِلْمِ اللَّهِ مِنَ الْكَافِرِينَ، وَرَجَحَهُ الْقُرْطُبِيُّ. انتهى

قلت هذا القول منهم غير موافق لعقيدة السلف بل إن إبليس صار من الكافرين حين أبى الامتثال لأمر الله وحين وقع منه الكبر المخرج من الملة،

وَذَكَرَ - أي القُرْطُبِيُّ - هَاهُنَا مَسْأَلَةً فَقَالَ: قَالَ عَلَمًاؤُنَا مَنْ أَظْهَرَ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ مِمَّنْ لَيْسَ بِنَبِيِّ كَرَامَاتٍ وَخَوَارِقَ لِلْعَادَاتِ فَلَيْسَ ذَلِكَ دَالًّا عَلَى وَلَايَتِهِ خِلَافًا لِبَعْضِ الصُّوفِيَّةِ وَالرَّافِضَةِ، هَذَا لَفْظُهُ. ثُمَّ اسْتَدَلَّ عَلَى مَا قَالَ بقوله: ولما اتفقنا على أننا بآناً لا نَقْطَعُ بِهَذَا الَّذِي جَرَى الْخَارِقُ عَلَى يَدَيْهِ أَنْ يُوَافِيَ اللَّهَ بِالْإِيمَانِ وَهُوَ لَا يَقْطَعُ لِنَفْسِهِ، علم أن ذلك ليس يدل على ولايته لله «٤» قُلْتُ: وَقَدْ اسْتَدَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى أَنَّ الْخَارِقَ قَدْ يَكُونُ عَلَى يَدَيْ غَيْرِ الْوَلِيِّ بَلْ قَدْ يَكُونُ عَلَى يَدِ الْفَاجِرِ وَالْكَافِرِ أَيْضًا بِمَا ثَبَتَ عَنِ ابْنِ صَيَّادٍ أَنَّهُ قَالَ: هُوَ الدُّخُّ حِينَ خَبَأَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَارْتَقَبَ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ وَبِمَا كَانَ يَصْدُرُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَمْلَأُ الطَّرِيقَ إِذَا غَضِبَ حَتَّى ضَرَبَهُ عَبْدُ اللَّهِ بنِ عَمْرٍ، وبما ثبت به الْأَحَادِيثُ عَنِ الدَّجَالِ بِمَا يَكُونُ عَلَى يَدَيْهِ مِنَ الْخَوَارِقِ الْكَثِيرَةِ مِنْ أَنَّهُ يَأْمُرُ السَّمَاءَ أَنْ تُمْطِرَ فَتُمْطِرُ، وَالْأَرْضَ أَنْ تُنْبِتَ فَتُنْبِتُ، وَتَتَّبِعُهُ كُنُوزُ الْأَرْضِ مِثْلَ الْيَعَاسِيْبِ، وَأَنَّهُ يَقْتُلُ ذَلِكَ الشَّابَّ ثُمَّ يُحْيِيهِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الْمَهُولَةِ. وَقَدْ قَالَ يُونُسُ بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى الصَّدِيقِيُّ: قُلْتُ لِلشَّافِعِيِّ: كَانَ اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ يَقُولُ: إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَمْشِي عَلَى الْمَاءِ وَيَطِيرُ فِي الْهَوَاءِ فَلَا تَعْتَرُوا بِهِ حَتَّى تَعْرِضُوا أَمْرَهُ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَقَالَ الشَّافِعِيُّ: قَصَرَ

اللَّيْثُ رَحِمَهُ اللَّهُ، بَلْ إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَمْشِي عَلَى الْمَاءِ وَيَطِيرُ فِي الْهَوَاءِ فَلَا تَغْتَرُّوا بِهِ حَتَّى تَعْرِضُوا أَمْرَهُ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ «٥». وَقَدْ حَكَى الرَّازِي وَغَيْرُهُ قَوْلَيْنِ لِلْعُلَمَاءِ: هَلِ الْمَأْمُورُ بِالسُّجُودِ لِأَدَمَ خَاصًّا بِمَلَائِكَةِ الْأَرْضِ أَوْ عَامًّا فِي مَلَائِكَةِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَقَدْ رَجَّحَ كُلًّا مِنْ الْقَوْلَيْنِ طَائِفَةٌ، وَظَاهِرُ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ الْعُمُومُ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ فَهَذِهِ أَرْبَعَةٌ أَوْجُهُ مُقَوِّيَةٌ لِلْعُمُومِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. انْتَهَى

قوله تعالى: وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥)

يقول تعالى ذكره إخبارا عما أكرم به آدم عليه السلام من إباحة الجنة له يا آدم اسكن وامكث أنت وزوجك أي حواء عليها السلام وهي مخلوقة من ضلع آدم كما قال الله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا } [النساء: ١] وفي البخاري (٣٣٣١) ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعٍ وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلْعِ أَعْلَاهُ، فَإِنْ ذَهَبَتْ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ»

وجاء بنحوه عند أحمد في مسنده عن سمرة بن جندب وفيه رجل مبهم ، وقد سماه غير واحد كما سيأتي أبا رجاء عمران بن ملحان العطاردي، وهو ثقة.

وَقَالَ الشَّاعِرُ:

هِيَ الضِّلْعُ الْعَوْجَاءُ لَيْسَتْ تُقِيمُهَا ... أَلَا إِنَّ تَقْوِيمَ الضِّلْعِ انْكِسَارُهَا
أَجْمَعُ ضَعْفًا وَافْتِدَارًا عَلَى الْفَتَى ... أَلَيْسَ عَجِيبًا ضَعْفُهَا وَافْتِدَارُهَا

وذكر السيوطي في الدر المنثور مجموعة من الآثار في سبب تسميتها بجواء فمنها أنه يخرج منها الحي وقيل لأنها خلقت من حي وكلا المعنيين صحيح.

قوله تعالى: { وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ } [البقرة: ٣٥] القائل هو الله تعالى لآدم عليه السلام والجمع للتعظيم كما تقدم قبل واسكن فعل أمر ومعناه اتخذ الجنة مسكنا وموطنا وهو محل السكون قال الراغب في المفردات في غريب القرآن (ص: ٤١٧)

وَالسَّكُنُ: السَّكُونُ وما يُسْكُنُ إليه، قال تعالى: وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا [النحل / ٨٠]
وقال القرطبي (١ / ٢٩٨):

قَوْلُهُ تَعَالَى -: (وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ) لَا خِلَافَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخْرَجَ إِبْلِيسَ عِنْدَ كُفْرِهِ وَأَبْعَدَهُ عَنِ الْجَنَّةِ، وَبَعْدَ إِخْرَاجِهِ قَالَ لِآدَمَ: اسْكُنْ، أَي لَازِمِ الْإِقَامَةَ وَاتَّخِذْهَا مَسْكَنًا، وَهُوَ مَحَلُّ السُّكُونِ. وَسَكَنَ إِلَيْهِ يَسْكُنُ سُكُونًا. وَالسَّكُنُ: النَّارُ، قَالَ الشَّاعِرُ:

قَدْ قَوْمَتْ بِسَكْنٍ وَأَذْهَانِ

وَالسَّكَنَ: كُلُّ مَا سُكِنَ إِلَيْهِ. وَالسَّكِينُ مَعْرُوفٌ سُمِّيَ بِهِ لِأَنَّهُ يُسَكِّنُ حَرَكَةَ الْمَذْبُوحِ، وَمِنْهُ الْمَسْكِينُ لِقَلَّةِ تَصَرُّفِهِ وَحَرَكَتِهِ. وَسُكَّانُ السَّفِينَةِ عَرَبِيٌّ، لِأَنَّهُ يُسَكِّنُهَا عَنِ الاضْطْرَابِ. انتهى

قَوْلُهُ تَعَالَى: { وَزَوْجِكَ } قال الراغب في المفردات في غريب القرآن (ص:

(٣٨٤

يقال لكل واحد من القرينين من الذكر والأنثى في الحيوانات الْمُتَزَوِّجَةُ زَوْجٌ، ولكل قرينين فيها وفي غيرها زوج، كالحفّ والنعل، ولكل ما يقترن بآخر مماثلاً له أو مضاداً زوج. قال تعالى: فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى [القيامة/ ٣٩] ، وقال: وَزَوْجِكَ الْجَنَّةَ [البقرة/ ٣٥] ، وزَوْجَةٌ لغة رديئة، وجمعها زَوْجَاتٌ، قال الشاعر: فبكا بناتي شجوهنّ وزوجتي

وجمع الزوج أزواجٌ. وقوله: هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ [يس/ ٥٦] ، احشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ [الصفات/ ٢٢] ، أي: أقرانهم المقتدين بهم في أفعالهم، وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ [الحجر/ ٨٨] ، أي: أشباها وأقرانا... وقوله: أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّىٰ [طه/ ٥٣] ، أي: أنواعا متشابهة، وكذلك قوله: مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ [لقمان/ ١٠] ، ثمانية أزواج [الأنعام/ ١٤٣] ، أي: أصناف. وقوله: وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً [الواقعة/ ٧] ، أي: قرناء ثلاثا، وهم الذين فسّروهم بما بعد. وقوله: وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ [التكوير/ ٧]، فقد قيل: معناه: قرن كل شيعة بمن شايعهم في الجنة

والنار، نحو: احشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ [الصفات / ٢٢]، وقيل: قرنت الأرواح بأجسادها حسبما نبه عليه قوله في أحد التفسيرين: يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً [الفجر / ٢٧ - ٢٨]، أي: صاحبك. وقيل: قرنت النفوس بأعمالها حسبما نبه عليه قوله: يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمَلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمَلَتْ مِنْ سُوءٍ [آل عمران / ٣٠]، وقوله: وَرَوْحَنَاهُمْ بِجُورِ عَيْنٍ

[الدخان / ٥٤]، أي: قرناهم بهنّ، ولم يجرى في القرآن زوّجناهم حورا، كما يقال زوّجته امرأة، تنبيهها أن ذلك لا يكون على حسب المتعارف فيما بيننا من المناكحة. انتهى

وقال القرطبي (١ / ٣٠١)

قَوْلُهُ تَعَالَى: "وَرَوْحُكَ" لُغَةُ الْقُرْآنِ "رَوْحٌ" بغير هاء، وقد تقدم القول فيه «١». وَقَدْ جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: "رَوْحَةٌ" عَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ مَعَ إِحْدَى نِسَائِهِ فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ فَدَعَاهُ فَجَاءَ فَقَالَ: (يَا فُلَانُ هَذِهِ رَوْحَتِي فُلَانَةٌ): فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ كُنْتُ أَظُنُّ بِهِ فَلَمْ أَكُنْ أَظُنُّ بِكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الْإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ). انتهى

قال الشوكاني في فتح القدير للشوكاني (١ / ٨٠): وَهَذِهِ هِيَ اللَّغَةُ الفصيحة زوج بغير هاء، وقد جاء بهاء قليلاً، كما في صحيح مسلم من

حَدِيثِ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ مَعَ إِحْدَى نِسَائِهِ، فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ فَدَعَاهُ وَقَالَ: «يَا فُلَانُ هَذِهِ زَوْجَتِي فُلَانَةٌ» الْحَدِيثُ، وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

وَإِنَّ الَّذِي يَسْعَى لِيُفْسِدَ زَوْجَتِي ... كَسَاعٍ إِلَى أَسَدِ الشَّرَى يَسْتَمِيلُهَا.
انتهى

وذكر ابن كثير في هذا الموطن كلاما معناه أن خلق حواء عليها السلام كان قبل دخول آدم الجنة وهذا هو الظاهر.

قوله الجنة: الجنة البستان وقد تقدم بيانه وقد اختلف العلماء هنا اختلافا كثيرا هل كانت الجنة هي جنة الخلد أم أنها جنة في الأرض إلى قولين مشهورين وقد أطال ابن القيم رحمه الله في المحاكم والترجيح في ذلك في كتابه حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح

قال القرطبي (١ / ٣٠٢): وَلَا التِّفَاتِ لِمَا ذَهَبَتْ إِلَيْهِ الْمُعْتَرِلَةُ وَالْقَدَرِيَّةُ مِنْ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ وَإِنَّمَا كَانَ فِي جَنَّةٍ بِأَرْضِ عَدْنٍ. وَاسْتَدَلُّوا عَلَى بَدْعَتِهِمْ بِأَنَّهَا لَوْ كَانَتْ جَنَّةَ الْخُلْدِ لَمَا وَصَلَ إِلَيْهِ إِبْلِيسُ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: " لَا لَعْنُ فِيهَا وَلَا تَأْتِيْمٌ " [الطُّورُ: ٢٣] وَقَالَ " لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَعْوًا وَلَا كِذَابًا [النبأ: ٣٥] وَقَالَ: " لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَعْوًا وَلَا تَأْتِيْمًا. إِلَّا قِيْلًا سَلَامًا [الواقعة: ٢٦ - ٢٥]. وَأَنَّهُ لَا يُخْرَجُ مِنْهَا أَهْلُهَا لِقَوْلِهِ: " وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ [الحجر: ٤٨]. وَأَيْضًا فَإِنَّ جَنَّةَ الْخُلْدِ هِيَ دَارُ الْقُدْسِ،

قُدِّسَتْ عَنِ الْخَطَايَا وَالْمَعَاصِي تَطْهِيرًا لَهَا. وَقَدْ لَعَا فِيهَا إِبْلِيسُ وَكَذَّبَ، وَأُخْرِجَ مِنْهَا آدَمُ وَحَوَّاءُ بِمَعْصِيَتَيْهِمَا. قَالُوا: وَكَيْفَ يُجُوزُ عَلَى آدَمَ مَعَ مَكَانِهِ مِنَ اللَّهِ وَكَمَالِ عَقْلِهِ أَنْ يَطْلُبَ شَجَرَةَ الْخُلْدِ وَهُوَ فِي دَارِ الْخُلْدِ وَالْمَلِكِ الَّذِي لَا يَبْلَى؟ فَالْجَوَابُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَرَّفَ الْجَنَّةَ بِالْأَلْفِ وَاللَّامِ، وَمَنْ قَالَ: أَسْأَلُ اللَّهَ الْجَنَّةَ، لَمْ يُفْهَمْ مِنْهُ فِي تَعَارُفِ الْخُلُقِ إِلَّا طَلَبُ جَنَّةِ الْخُلْدِ. وَلَا يَسْتَحِيلُ فِي الْعَقْلِ دُخُولُ إِبْلِيسَ الْجَنَّةَ لِتَعْرِيرِ آدَمَ، وَقَدْ لَقِيَ مُوسَى آدَمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فَقَالَ لَهُ مُوسَى: أَنْتَ أَشَقِيَّتَ ذُرِّيَّتِكَ وَأَخْرَجْتَهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ، فَأَدْخَلَ الْأَلْفَ وَاللَّامَ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّهَا جَنَّةُ الْخُلْدِ الْمَعْرُوفَةُ، فَلَمْ يُنْكِرْ ذَلِكَ آدَمُ، وَلَوْ كَانَتْ غَيْرَهَا لَرَدَّ عَلَى مُوسَى، فَلَمَّا سَكَتَ آدَمُ عَلَى مَا قَرَّرَهُ مُوسَى صَحَّ أَنَّ الدَّارَ الَّتِي أَخْرَجَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْهَا بِخِلَافِ الدَّارِ الَّتِي أُخْرِجُوا إِلَيْهَا. وَأَمَّا مَا احْتَجُّوا بِهِ مِنَ الْآيِ فَذَلِكَ إِنَّمَا جَعَلَهُ اللَّهُ فِيهَا بَعْدَ دُخُولِ أَهْلِهَا فِيهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَمْتَنِعُ أَنْ تَكُونَ دَارَ الْخُلْدِ لِمَنْ أَرَادَ اللَّهُ تَخْلِيدَهُ فِيهَا وَقَدْ يُخْرَجُ مِنْهَا مَنْ قُضِيَ عَلَيْهِ بِالْفَنَاءِ. وَقَدْ أَجْمَعَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ عَلَى أَنَّ الْمَلَائِكَةَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ وَيَخْرُجُونَ مِنْهَا، وَقَدْ كَانَ مَفَاتِيحُهَا بِيَدِ إِبْلِيسَ ثُمَّ انْتَزَعَتْ مِنْهُ بَعْدَ الْمَعْصِيَةِ - قُلْتُ لَا أَعْلَمُ لِهَذَا أَصْلًا -، وَقَدْ دَخَلَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ ثُمَّ خَرَجَ مِنْهَا وَأَخْبَرَ بِمَا فِيهَا وَأَنَّهَا هِيَ جَنَّةُ الْخُلْدِ حَقًّا. وَأَمَّا قَوْلُهُمْ: إِنَّ الْجَنَّةَ دَارُ الْقُدْسِ وَقَدْ طَهَّرَهَا اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْخَطَايَا فَحَهْلُ مِنْهُمْ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ

تَعَالَى أَمَرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ وَهِيَ الشَّامُ، وَأَجْمَعَ أَهْلُ الشَّرَائِعِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدَّسَهَا وَقَدْ شُوهِدَ فِيهَا الْمَعَاصِي وَالْكُفْرُ وَالْكَذِبُ وَلَمْ يَكُنْ تَقْدِيسُهَا مِمَّا يَمْنَعُ فِيهَا الْمَعَاصِي، وَكَذَلِكَ دَارُ الْقُدْسِ. قَالَ أَبُو الْحَسَنِ بْنُ بَطَّالٍ: وَقَدْ حَكَى بَعْضُ الْمَشَائِخِ أَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ جُمِعُوا عَلَى أَنَّ جَنَّةَ الْخُلْدِ هِيَ الَّتِي أُهْبِطَ مِنْهَا آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَا مَعْنَى لِقَوْلِ مَنْ خَالَفَهُمْ. وَقَوْلُهُمْ: كَيْفَ يَجُوزُ عَلَى آدَمَ فِي كَمَالِ عَقْلِهِ أَنْ يَطْلُبَ شَجَرَةَ الْخُلْدِ وَهُوَ فِي دَارِ الْخُلْدِ، فَيَعَكْسُ عَلَيْهِمْ وَيُقَالُ: كَيْفَ يَجُوزُ عَلَى آدَمَ وَهُوَ فِي كَمَالِ عَقْلِهِ أَنْ يَطْلُبَ شَجَرَةَ الْخُلْدِ فِي دَارِ الْفَنَاءِ! هَذَا مَا لَا يَجُوزُ عَلَى مَنْ لَهُ أَدْنَى مُسْكَةٍ مِنْ عَقْلِ، فَكَيْفَ بِآدَمَ الَّذِي هُوَ أَرْجَحُ الْخَلْقِ عَقْلًا. انتهى

وزد على ما ذكره قوله تعالى: {إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى} (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى} [طه: ١١٨، ١١٩] ، وهذا لا يكون في جنة الدنيا.

ومن ذلك ما جاء في حديث الشفاعة عند مسلم (١٩٥) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَحَدِيثَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " يَجْمَعُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى النَّاسَ، فَيَقُومُ الْمُؤْمِنُونَ حَتَّى تُزْلَفَ لَهُمُ الْجَنَّةُ، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: يَا أَبَانَا، اسْتَفْتَحْنَا لَنَا الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: وَهَلْ أَخْرَجَكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَّا خَطِيئَةُ أَبِيكُمْ آدَمَ، لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، اذْهَبُوا إِلَى ابْنِي إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ

اللَّهِ "، قَالَ: " فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، إِنَّمَا كُنْتُ خَلِيلًا مِنْ وَرَاءَ وَرَاءَ، اعْمِدُوا إِلَى مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي كَلَّمَهُ اللَّهُ تَكْلِيمًا، فَيَأْتُونَ مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُولُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى كَلِمَةَ اللَّهِ وَرُوحِهِ، فَيَقُولُ عِيسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُومُ فَيُؤَذِّنُ لَهُ، وَتُرْسَلُ الْأَمَانَةُ وَالرَّحْمُ، فَتَقُومَانِ جَنبَتِي الصِّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَيَمُرُّ أَوْلَاكُمْ كَالْبَرْقِ " قَالَ: قُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي أَيُّ شَيْءٍ كَمَرَّ الْبَرْقِ؟ قَالَ: " أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْبَرْقِ كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ؟ ثُمَّ كَمَرَّ الرِّيحِ، ثُمَّ كَمَرَّ الطَّيْرِ، وَشَدَّ الرَّجَالِ، تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَاهُمْ وَنَبِيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ يَقُولُ: رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ، حَتَّى تَعْجَزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ، حَتَّى يَجِيءَ الرَّجُلُ فَلَا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلَّا زَحْفًا "، قَالَ: «وَفِي حَافَتِي الصِّرَاطِ كَلَالِيْبُ مُعَلَّقَةٌ مَأْمُورَةٌ بِأَخْذِ مَنْ أَمَرَتْ بِهِ، فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ، وَمَكْدُوشٌ فِي النَّارِ» وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي هُرَيْرَةَ بِيَدِهِ إِنَّ قَعْرَ جَهَنَّمَ لَسَبْعُونَ خَرِيفًا. والشاهد قوله عليه السلام وَهَلْ أَخْرَجَكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَّا خَطِيئَةٌ أَبِيكُمْ آدَمَ وَمَنْ قَالَ بِالذَّلِيلِ أَفْلَحَ.

وللشيخ الإسلام في هذه المسألة قولان فقوله الأول أنها جنة الخلد والقول الثاني أنها جنة في الدنيا قال رحمه الله كما في مجموع الفتاوى (٤ / ٣٤٧)

وَ " الْجَنَّةُ " الَّتِي أَسْكَنَهَا آدَمَ وَرَزَوَجَتَهُ عِنْدَ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ: هِيَ جَنَّةُ الْخُلْدِ وَمَنْ قَالَ: إِنَّهَا جَنَّةٌ فِي الْأَرْضِ بِأَرْضِ الْهِنْدِ أَوْ بِأَرْضِ جُدَّةَ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ فَهُوَ مِنَ الْمُتَفَلِّسِفَةِ وَالْمُلْحِدِينَ أَوْ مِنْ إِخْوَانِهِمُ الْمُتَكَلِّمِينَ الْمُبْتَدِعِينَ فَإِنَّ هَذَا يَقُولُهُ مَنْ يَقُولُهُ مِنَ الْمُتَفَلِّسِفَةِ وَالْمُعْتَرِلَةِ. وَالْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ يَرُدُّانِ هَذَا الْقَوْلَ وَسَلَفُ الْأُمَّةِ وَأَيْمَتُهَا مُنْفِقُونَ عَلَى بَطْلَانِ هَذَا الْقَوْلِ. قَالَ تَعَالَى: { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ } { وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَرَوْجُكَ الْجَنَّةَ } إِلَى قَوْلِهِ: { وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ } فَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَمْرُهُمْ بِالْهَبُوطِ وَأَنَّ بَعْضَهُمْ عَدُوٌّ لِبَعْضٍ ثُمَّ قَالَ: { وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ } . وَهَذَا يُبَيِّنُ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّمَا اهْبَطُوا إِلَى الْأَرْضِ؛ فَإِنَّهُمْ لَوْ كَانُوا فِي الْأَرْضِ وَانْتَقَلُوا إِلَى أَرْضٍ أُخْرَى كَانَتْ قَوْمَ مُوسَى مِنْ أَرْضٍ إِلَى أَرْضٍ لَكَانَ مُسْتَقَرُّهُمْ وَمَتَاعُهُمْ إِلَى حِينٍ فِي الْأَرْضِ قَبْلَ الْهَبُوطِ وَبَعْدَهُ؛ وَكَذَلِكَ قَالَ فِي الْأَعْرَافِ لَمَّا قَالَ إِبْلِيسُ { أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ } { قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا } . فَقَوْلُهُ: { فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا } يُبَيِّنُ اخْتِصَاصَ السَّمَاءِ بِالْجَنَّةِ بِهَذَا الْحُكْمِ؛ فَإِنَّ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ: { مِنْهَا } عَائِدٌ إِلَى مَعْلُومٍ غَيْرِ مَذْكُورٍ فِي اللَّفْظِ وَهَذَا بِخِلَافِ قَوْلِهِ: { اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا

سَأَلْتُمْ { فَإِنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ هُنَاكَ مَا أَهْبَطُوا فِيهِ وَقَالَ هُنَا: { أَهْبَطُوا } لِأَنَّ
 الْهَبُوطَ يَكُونُ مِنْ عُلُوٍّ إِلَى سُفْلٍ وَعِنْدَ أَرْضِ السَّرَاةِ حَيْثُ كَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ
 حِيَالَ السَّرَاةِ الْمُشْرِفَةِ عَلَى الْمِصْرِ الَّذِي يَهْبِطُونَ إِلَيْهِ وَمَنْ هَبَطَ مِنْ جَبَلٍ
 إِلَى وَادٍ قِيلَ لَهُ: هَبَطَ. (وَأَيْضًا فَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانُوا يَسِيرُونَ وَيَرْحَلُونَ
 وَالَّذِي يَسِيرُ وَيَرْحَلُ إِذَا جَاءَ بِلَدَةٍ يُقَالُ: نَزَلَ فِيهَا؛ لِأَنَّ فِي عَادَتِهِ أَنَّهُ
 يَرْكَبُ فِي سَيْرِهِ فَإِذَا وَصَلَ نَزَلَ عَنْ دَوَابِّهِ. يُقَالُ: نَزَلَ الْعَسْكَرُ بِأَرْضٍ كَذَا
 وَنَزَلَ الْقَفْلُ بِأَرْضٍ كَذَا؛ لِنُزُولِهِمْ عَنْ الدَّوَابِّ. وَلَفْظُ التُّزُولِ كَلْفِظِ الْهَبُوطِ
 فَلَا يُسْتَعْمَلُ هَبَطَ إِلَّا إِذَا كَانَ مِنْ عُلُوٍّ إِلَى سُفْلٍ. وَقَوْلُهُ: { رَبَّنَا ظَلَمْنَا
 أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } { قَالَ أَهْبَطُوا }
 الْآيَتَيْنِ. فَقَوْلُهُ هُنَا بَعْدَ قَوْلِهِ: { أَهْبَطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي
 الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ } يُبَيِّنُ أَنَّهُمْ هَبَطُوا إِلَى الْأَرْضِ مِنْ غَيْرِهَا
 وَقَالَ: { فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ } دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ
 يَكُونُوا قَبْلَ ذَلِكَ بِمَكَانٍ فِيهِ يَحْيَوْنَ وَفِيهِ يَمُوتُونَ وَمِنْهُ يُخْرَجُونَ وَإِنَّمَا صَارُوا
 إِلَيْهِ لَمَّا أَهْبَطُوا مِنَ الْجَنَّةِ. وَالتُّصُوصُ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ وَكَذَلِكَ كَلَامُ السَّلَفِ
 وَالْأئِمَّةِ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " { اِحْتَجَّ آدَمَ وَمُوسَى فَقَالَ مُوسَى: يَا آدَمَ أَنْتَ أَبُو
 الْبَشَرِ خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتُهُ فَلِمَاذَا
 أَخْرَجْتَنَا وَذَرَيْتَكَ مِنَ الْجَنَّةِ؟ فَقَالَ لَهُ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللَّهُ

بِرِسَالَتِهِ وَكَلَامِهِ فَهَلْ تَجِدُ فِي التَّوْرَةِ: وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى؟ قَالَ نَعَمْ قَالَ: فَلِمَ إِذَا تَلَوْنِي عَلَى أَمْرٍ قَدَّرَهُ اللَّهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ؟ فَقَالَ: فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى } " وَمُوسَى إِنَّمَا لَمْ آدَمَ لِمَا حَصَلَ لَهُ وَذُرِّيَّتُهُ بِالْخُرُوجِ مِنَ الْجَنَّةِ مِنَ الْمَشَقَّةِ وَالنَّكَدِ فَلَوْ كَانَ ذَلِكَ بُسْتَانًا فِي الْأَرْضِ لَكَانَ غَيْرُهُ مِنْ بَسَاتِينِ الْأَرْضِ يُعَوِّضُ عَنْهُ. (وَأَدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ احْتَجَّ بِالْقَدَرِ؛ لِأَنَّ الْعَبْدَ مَأْمُورٌ عَلَى أَنْ يَصْبِرَ عَلَى مَا قَدَّرَهُ اللَّهُ مِنَ الْمَصَائِبِ وَيَتُوبَ إِلَيْهِ وَيَسْتَغْفِرَهُ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْمَعَايِبِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. انتهى

قوله تعالى: {وَكُلَّا مِنْهَا رَعْدًا حَيْثُ شِئْتُمَا}

الأكل معروف وقوله منها أي من الجنة وفي فتح القدير للشوكاني (١) / (٨٠)

وَرَعْدًا بِفَتْحِ الْمُعْجَمَةِ، وَقَرَأَ النَّحَعِيُّ وَابْنُ وَثَّابٍ بِسُكُونِهَا، وَالرَّعْدُ: الْعَيْشُ الْهَنِيءُ الَّذِي لَا عَنَاءَ فِيهِ، وَحَيْثُ مَبْنِيَّةٌ عَلَى الضَّمِّ، وَفِيهَا لُغَاتٌ كَثِيرَةٌ مَذْكُورَةٌ فِي كُتُبِ الْعَرَبِيَّةِ. انتهى

وقال الطبري (١/ ٥١٥): أما الرَّعْدُ، فإنه الواسع من العيش، الهنيء الذي لا يُعْنِي صاحبه. يقال: أرغد فلان: إذا أصاب واسعاً من العيش الهنيء، كما قال امرؤ القيس بن حُجر:

بَيْنَمَا الْمَرْءُ تَرَاهُ نَاعِمًا ... يَأْمَنُ الْأَحْدَاثَ فِي عَيْشٍ رَعْدًا انتهى

قوله: { شئتما } من المشيئة وهي الإرادة وعناه أنكم مخيرون في الأكل والتنعم من أي ثمارها ونعيمها.

قوله: { وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ } لا ناهية والقرب الدنو قال الشوكاني في فتح القدير (١ / ٨٠): قَالَ فِي الصَّحَاحِ: قَرَّبَ الشَّيْءُ بِالضَّمِّ يَقْرُبُ قُرْبًا: أَي دَنَا، وَقَرَّبْتُهُ بِالْكَسْرِ أَقْرَبُهُ قُرْبَانًا: أَي دَنَوْتُ مِنْهُ، وَقَرَبْتُ أَقْرَبُ قَرَابَةً مِثْلَ أَكْتُبُ كِتَابَةً: إِذَا سِرْتُ إِلَى الْمَاءِ وَبَيْنَكَ وَبَيْنَهُ لَيْلَةٌ، وَالِاسْمُ الْقُرْبُ، قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: قُلْتُ لِأَعْرَابِيٍّ مَا الْقُرْبُ؟ قَالَ: سَيْرُ اللَّيْلِ لِوُرُودِ الْعَدِيِّ وَالنَّهْيُ عَنِ الْقُرْبِ فِيهِ سَدٌّ لِلدَّرِيعَةِ وَقَطْعٌ لِلْوَسِيلَةِ، وَهَذَا جَاءَ بِهِ عَوَضًا عَنِ الْأَكْلِ، وَلَا يَخْفَى أَنَّ النَّهْيَ عَنِ الْقُرْبِ لَا يَسْتَلْزِمُ النَّهْيَ عَنِ الْأَكْلِ، لِأَنَّهُ قَدْ يَأْكُلُ مِنْ ثَمَرِ الشَّجَرَةِ مَنْ هُوَ بَعِيدٌ عَنْهَا إِذَا يُحْمَلُ إِلَيْهِ، فَالْأَوْلَى أَنْ يُقَالَ: الْمَنْعُ مِنَ الْأَكْلِ مُسْتَفَادٌ مِنَ الْمَقَامِ. انتهى قلت الصحيح الأول فإن النهي عن القرب يلزم منه النهي عن الأكل.

قال الطبري (١ / ٥١٦): والشجر في كلام العرب: كل ما قام على ساق، ومنه قول الله جل ثناؤه: { وَالنَّحْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ } [سورة الرحمن: ٦]، يعني بالنجم ما نجم من الأرض من نبت، وبالشجر ما استقل على ساق. انتهى

ثم ساق رحمه الله اختلاف أهل التفسير في نوع الشجرة فقال بعضهم: هي السنبلة، وقال بعضهم هي الكرمة وقال بعضهم هي التينة، وقال

بعضهم هي النخلة، وقال بعضهم هي اللوز وقال بعضهم هي الأترج وقال بعضهم هي البر والقول الحق أن الله تعالى ذكرها أنها شجرة ولم يبين نوعها والتكلف في معرفة نوعها داخل تحت النهي عن التكلف في قوله تعالى: { قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ } [ص: ٨٦].

قال ابن كثير (١ / ٢٣٥) بعد أن ذكر هذا الأقوال: فَهَذِهِ أَقْوَالٌ سِتَّةٌ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ.

قَالَ الْإِمَامُ الْعَلَامَةُ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ، رَحِمَهُ اللَّهُ: وَالصَّوَابُ فِي ذَلِكَ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ اللَّهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ نَهَى آدَمَ وَرَوْجَتَهُ عَنْ أَكْلِ شَجَرَةٍ بَعَيْنَهَا مِنْ أَشْجَارِ الْجَنَّةِ، دُونَ سَائِرِ أَشْجَارِهَا، فَأَكَلَا مِنْهَا، وَلَا عِلْمَ عِنْدَنَا بِأَيِّ شَجَرَةٍ كَانَتْ عَلَى التَّعْيِينِ؟ لِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَضَعْ لِعِبَادِهِ دَلِيلًا عَلَى ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ وَلَا مِنَ السُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ. وَقَدْ قِيلَ: كَانَتْ شَجَرَةَ الْبُرِّ. وَقِيلَ: كَانَتْ شَجَرَةَ الْعِنَبِ، وَقِيلَ: كَانَتْ شَجَرَةَ التِّينِ. وَجَائِزٌ أَنْ تَكُونَ وَاحِدَةً مِنْهَا، وَذَلِكَ عِلْمٌ، إِذَا عُلِمَ يَنْفَعُ الْعَالَمَ بِهِ عِلْمُهُ، وَإِنْ جَهَلَهُ جَاهِلٌ لَمْ يَضُرَّهُ جَهْلُهُ بِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَكَذَلِكَ رَجَّحَ الْإِمَامُ فَخْرُ الدِّينِ الرَّازِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ وَغَيْرِهِ، وَهُوَ الصَّوَابُ. انتهى

قوله تعالى: { فتكونا من الظالمين } : أي فتصيرا من الظالمين بسبب المعصية، والظلم وضع الشيء في غير موضعه ومنه ما يكون كفرا كالشرك

بالله تعالى قال تعالى { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان: ١٣] وأكثر المذكور في القرآن من هذا النوع وقد يكون ظلم دون ظلم

قال الراغب في المفردات (ص: ٥٣٧):

والظُّلْمُ يقال في مجاوزة الحقّ الذي يجري مجرى نقطة الدائرة، ويقال فيما يكثر وفيما يقلّ من التّجاوز، ولهذا يستعمل في الذّنب الكبير، وفي الذّنب الصّغير، ولذلك قيل لآدم في تعديّه ظالم، وفي إبليس ظالم، وإن كان بين الظُّلْمَيْنِ بون بعيد. قال بعض الحكماء: الظُّلْمُ ثلاثة:

الأول: ظُلم بين الإنسان وبين الله تعالى، وأعظمه: الكفر والشّرك والنّفاق، ولذلك قال: { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان / ١٣]، وإيّاه قصد بقوله: { أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ } [هود / ١٨]، { وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا } [الإنسان / ٣١]، في أي كثيرة، وقال: { فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ } [الزمر / ٣٢]، { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا } [الأنعام / ٩٣].

والثاني: ظُلم بينه وبين الناس، وإيّاه قصد بقوله: { وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ إِلَى قَوْلِهِ: { إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ }، وبقوله: { إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ } [الشورى / ٤٢]، وبقوله: { وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا } [الإسراء / ٣٣].

والثالث: ظَلَمَ بينه وبين نفسه، وإيَّاه قصد بقوله: {فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ} [فاطر/ ٣٢]، وقوله: {ظَلَمْتُ نَفْسِي} [النمل/ ٤٤]، {إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ} [النساء/ ٦٤]، {فَتَكُونُوا مِنَ الظَّالِمِينَ} [البقرة/ ٣٥]، أي: من الظَّالِمِينَ أنفسهم، {وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ} [البقرة/ ٢٣١].

وكلّ هذه الثلاثة في الحقيقة ظَلَمٌ للنفس، فإنّ الإنسان في أول ما يهَمُّ بالظُّلم فقد ظَلَمَ نفسه، فإذا الظَّالِمُ أبدا مبتدئ في الظُّلم. انتهى

وقد بوب البخاري رحمه الله في صحيحه باب: ظَلَمٌ دُونَ ظَلَمٍ وذكر حديث رقم (٣٢) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا} [الأنعام: ٨٢] إِيْمَانَهُمْ بِظُلْمٍ قَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّنَا لَمْ يَظْلَمْ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [لقمان: ١٣]. وأخرجه مسلم قال الحافظ في فتح الباري (١/ ٨٧) (قَوْلُهُ بَابُ ظَلَمٍ دُونَ ظَلَمٍ دُونَ)

يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ بِمَعْنَى غَيْرِ أَيِّ أَنْوَاعِ الظُّلْمِ مُتَعَايِرَةٌ أَوْ بِمَعْنَى الْأَدْنَى أَيِّ بَعْضِهَا أَخْفُ مِنْ بَعْضٍ وَهُوَ أَظْهَرُ فِي مَقْصُودِ الْمُصَنِّفِ وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ لَفْظُ حَدِيثِ رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي كِتَابِ الْإِيْمَانِ مِنْ حَدِيثِ عَطَاءٍ وَرَوَاهُ أَيضًا مِنْ طَرِيقِ طَاوُسٍ عَنْ بَنِ عَبَّاسٍ بِمَعْنَاهُ وَهُوَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ الْأَيَّةَ فَاسْتَعْمَلَهُ الْمُؤَلَّفُ تَرْجَمَهُ وَاسْتَدَلَّ لَهُ بِالْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ

وَوَجْهُ الدَّلَالَةِ مِنْهُ أَنَّ الصَّحَابَةَ فَهِمُوا مِنْ قَوْلِهِ بِظُلْمٍ عُمُومٍ أَنْوَاعِ الْمَعَاصِي
وَلَمْ يُنَكِّرْ عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَلِكَ وَإِنَّمَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّ الْمُرَادَ
أَعْظَمَ أَنْوَاعِ الظُّلْمِ وَهُوَ الشُّرْكَ عَلَى مَا سَنُوضِّحُهُ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ لِلظُّلْمِ
مَرَاتِبَ مُتَفَاوِتَةً وَمُنَاسِبَةً إِيرَادِ هَذَا عَقَبَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ أَنَّ الْمَعَاصِي غَيْرَ
الشُّرْكَ لَا يَنْسَبُ صَاحِبُهَا إِلَى الْكُفْرِ الْمُخْرِجِ عَنِ الْمِلَّةِ عَلَى هَذَا التَّفْصِيلِ
ظَاهِرَةٌ. انتهى

والمراد بالظلم هنا المعصية لأن الأنبياء معصومون من الشرك ودل على أن
الأكل من الشجرة كانت معصية لأنه وصف بالظلم ولما ترتب عليها من
العقوبة.

قال القاسمي في محاسن التأويل (١ / ٢٩٤): وقال شيخ الإسلام تقي
الدين بن تيمية وجماعة من المتأخرين: الصواب أن آدم عليه السلام، لما
قاسمه عدو الله أنه ناصح، وأكد كلامه بأنواع من التأكيدات:
أحدها: القسم.

والثاني: الإتيان بجملة اسمية لا فعلية.

والثالث: تصديرها بأداة التأكيد. الرابع الإتيان بلام التأكيد في الخبر.

الخامس: الإتيان به اسم فاعل لا فعلا دالا على الحدث.

السادس: تقدم المعمول على القليل فيه. ولم يظن آدم أن أحدا يحلف بالله كاذبا يمين غموس، فظن صدقه، وأنه إن أكل منها لم يخرج من الجنة، ورأى أن الأكل، وإن كان فيه مفسدة، فمصلحة الخلود أرجح، ولعله يتأتى له استدراك مفسدة اليمين في أثناء ذلك باعتذار أو توبة، كما تجد هذا التأويل في نفس كل مؤمن أقدم على معصية.

قال ابن مفلح: فآدم عليه السلام لم يخرج من الجنة إلا بالتأويل، فالتأويل لنص الله أخرجه، وإلا فهو لم يقصد المعصية، والمخالفة، وأن يكون ظالما مستحقا للشقاء. انتهى.

ويذكر العلماء هنا مسألة وهي أيهما أعظم ضررا ترك المأمور أو فعل المحظور ورجح ابن القيم وغيره أن جنس ترك المأمور أعظم من جنس فعل المحظور مستدلا بقصة آدم مع إبليس اللعين حيث ترك إبليس فعل المأمور فطرد من رحمة الله.

قال شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى (٢٠ / ٨٨): **أَوَّلَ ذَنْبٍ عُصِيَّ اللَّهُ بِهِ كَانَ مِنْ أَبِي الْجِنَّ وَأَبِي الْإِنْسِ أَبَوَيْ الثَّقَلَيْنِ الْمَأْمُورَيْنِ وَكَانَ ذَنْبُ أَبِي الْجِنَّ أَكْبَرَ وَأَسْبَقَ وَهُوَ تَرَكُ الْمَأْمُورِ بِهِ وَهُوَ السُّجُودُ إِبَاءً وَاسْتِكْبَارًا وَذَنْبُ أَبِي الْإِنْسِ كَانَ ذَنْبًا صَغِيرًا** { فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ } **وَهُوَ إِنَّمَا فَعَلَ الْمَنْهِيَّ عَنْهُ وَهُوَ الْأَكْلُ مِنَ الشَّجَرَةِ؛** انتهى

قال ابن القيم في عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص: ٣٩)

ان الذنوب كلها ترجع إلى هذين الأصلين ترك المأمور وفعل المحظور ولو فعل العبد المحظور كله من أوله إلى آخره حتى أتى من مأمور الإيمان بأدنى أدنى مثقال ذرة منه نجا بذلك من الخلود في النار ولو ترك كل محظور ولم يأت بمأمور الإيمان لكان مخلدا في السعير فأى شيء مثاقيل الدر منه تخرج من النار إلى شيء وزن الجبال منه أضعافا مضاعفة لا تقتضي الخلود في النار مع وجود ذلك المأمور أو أدنى شيء منه.

أن جميع المحظورات من أولها إلى آخرها تسقط بمأمور التوبة ولا تسقط المأمورات كلها معصية المخالفة الا بالشرك أو الوفاة عليه ولا خلاف بين الأمة ان كل محظور يسقط بالتوبة منه واختلفوا هل تسقط الطاعة بالمعصية وفي المسألة نزاع وتفاصيل ليس هذا موضعه.

أن ذنب الأب كان يفعل المحظور فكان عاقبته أن اجتباه ربه فتاب عليه وهدى وذنوب إبليس كان بترك المأمور فكان عاقبته ما ذكر الله سبحانه وجعل هذا عبرة للذرية إلى يوم القيامة. انتهى

وقد حرم الله تعالى الظلم على نفسه كما في حديث أبي ذر رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى ((يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته محرما بينكم فلا تظالموا)) وقد قال تعالى: {وما ربك بظلام للعبيد} وقال تعالى: {ولا يظلم ربك أحدا}

فهي من الصفات المنفية التي يجب أن تتضمن كمال الضد وهو إثبات عدل الله تعالى.

قوله تعالى: {فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٣٦)} [البقرة: ٣٦]

{فَأَزَلَّهُمَا} من الزلة أي الخطيئة قال الطبري (١ / ٥٢٤):

اختلفت القرأة في قراءة ذلك. فقرأته عامتهم، "فَأَزَلَّهُمَا" بتشديد اللام، بمعنى: استزهمما، من قولك زلَّ الرجل في دينه: إذا هفا فيه وأخطأ، فأتى ما ليس له إتيانه فيه. وأزله غيره: إذا سبب له ما يزلُّ من أجله في دينه أو دنياه، ولذلك أضاف الله تعالى ذكره إلى إبليس خُروج آدم وزوجته من الجنة، فقال: "فأخرجهما" يعني إبليس "مما كانا فيه"، لأنه كان الذي سبب لهما الخطيئة التي عاقبهما الله عليها بإخراجهما من الجنة.

وقرأه آخرون: "فَأَزَلَّهُمَا"، بمعنى إزالة الشيء عن الشيء، وذلك تنحيته عنه. وقد روي عن ابن عباس في تأويل قوله: "فَأَزَلَّهُمَا"، ما: - حدثنا القاسم، قال: حدثنا الحسين، قال: حدثني حجاج، عن ابن جريج، قال: قال ابن عباس في تأويل قوله تعالى: "فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ" قال: أغواهما.

وأولى القراءتين بالصواب قراءة من قرأ: "فَأَزَلَّهُمَا"، لأن الله جل ثناؤه قد أخبر في الحرف الذي يتلوه. بأن إبليس أخرجهما مما كانا فيه. وذلك هو معنى قوله "فَأَزَلَّهُمَا"، فلا وجه - إذ كان معنى الإزالة معنى التنحية والإخراج - أن يقال: "فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ" عنها فأخرجهما مما كانا فيه

فيكون كقوله: "فأزلهما الشيطان عنها فأزلهما مما كانا فيه. ولكن المفهوم أن يقال: فاستزلهما إبليس عن طاعة الله - كما قال جل ثناؤه: "فأزلهما الشيطان"، وقرأت به القراء - فأخرجهما باستزاله إياهما من الجنة. انتهى وقال ابن كثير (١/ ٢٣٥)

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: { فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا } يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: { عَنْهَا } عَائِدًا إِلَى الْجَنَّةِ، فَيَكُونُ مَعْنَى الْكَلَامِ كَمَا قَالَ حَمَزَةُ وَ عَاصِمٌ بِنُ بَهْدَلَةَ، وَهُوَ ابْنُ أَبِي النَّجُودِ، فَأَزَلَّهُمَا، أَي: فَنَحَّاهُمَا. وَيَصِحُّ أَنْ يَكُونَ عَائِدًا عَلَى أَقْرَبِ الْمَذْكُورِينَ، وَهُوَ الشَّحْرَةُ، فَيَكُونُ مَعْنَى الْكَلَامِ كَمَا قَالَ الْحَسَنُ وَقْتَادَةُ { فَأَزَلَّهُمَا } أَي: مِنْ قَبِيلِ الزَّلِيلِ، فَعَلَى هَذَا يَكُونُ تَقْدِيرُ الْكَلَامِ { فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا } أَي: بِسَبَبِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: { يُؤْفِكُ عَنْهُ مَنْ أَفَكَ } [الذَّارِيَاتِ: ٩] أَي: يُصْرِفُ بِسَبَبِهِ مَنْ هُوَ مَأْفُوكٌ؛ وَهَذَا قَالَ تَعَالَى: { فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ } أَي: مِنَ اللَّبَاسِ وَالْمَنْزِلِ الرَّحْبِ وَالرِّزْقِ الْهَنِيِّ وَالرَّاحَةِ. انتهى

قوله الشيطان: هو علم على إبليس عند إطلاقه وقد تقدم معنى الشيطان قال الراغب المفردات في غريب القرآن (ص: ٤٥٤):

الشَّيْطَانُ النُّونُ فِيهِ أَصْلِيَّةٌ، وَهُوَ مِنْ: شَطَنَ أَي: تَبَاعَدَ، وَمِنْهُ: بَثْرَ شَطُونٌ، وَشَطَنَتِ الدَّارُ، وَغَرَبَةُ شَطُونٌ، وَقِيلَ: بَلِ النُّونُ فِيهِ زَائِدَةٌ، مِنْ:

شَاطَ يَشِيطُ: احترق غضبا، فَالشَّيْطَانُ مخلوق من النار كما دلّ عليه قوله تعالى: { خَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ } [الرحمن/ ١٥]، ولكونه من ذلك اختصّ بفرط القوّة الغضبيّة والحميّة الدّميمة، وامتنع من السّجود لآدم، قال أبو عبيدة: الشّيطان اسم لكلّ عارم من الجنّ والإنس والحيوانات.

وقد ذكر العلماء في هذا الموطن أثارا كثيرة في كيفية وسوسة إبليس لآدم عليه السلام المذكور في قول الله تعالى: { فَوَسَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوَآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوَآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ }، ولم أرى من الآثار ما تقوم به حجة إلا وجوب الإيمان بظاهر القرآن والله أعلم.

قال الطبري (١ / ٥٣٢): فأما سبب وصوله إلى الجنة حتى كلم آدم بعد أن أخرجته الله منها وطرده عنها، فليس فيما روي عن ابن عباس ووهب بن منبه في ذلك معنى يجوز لذي فهم مُدافعته، إذ كان ذلك قولاً لا يدفعه عقل ولا خبر يلزم تصديقه من حجة بخلافه، وهو من الأمور الممكنة. والقول في ذلك أنه وصل إلى خطابهما على ما أخبرنا الله جل ثناؤه؛ وممكن أن يكون وصل إلى ذلك بنحو الذي قاله المتأولون، بل ذلك

- إن شاء الله - كذلك، لتتابع أقوال أهل التأويل على تصحيح ذلك. وإن كان ابن إسحاق قد قال في ذلك ما: حدثنا به ابن حميد، قلت: ابن حميد كذاب قال: حدثنا سلمة، قال: قال ابن إسحاق في ذلك، والله أعلم، كما قال ابن عباس وأهل التوراة: إنه خلص إلى آدم وزوجته بسُلطانه الذي جعل الله له لبيتلي به آدم وذريته، وأنه يأتي ابن آدم في نومه وفي يقظته، وفي كل حال من أحواله، حتى يخلص إلى ما أراد منه، حتى يدعوهُ إلى المعصية، ويوقع في نفسه الشهوة وهو لا يراه. وقد قال الله عز وجل: "فأزلهما الشيطان عنها، فأخرجهما مما كانا فيه"، وقال: (يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتَهُمَا إِنَّهُ يَرَآكُم هُوَ وَقَبِيلُهُ مِمَّنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ) [سورة الأعراف: ٢٧] وقد قال الله لنبيه عليه السلام: (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ) إلى آخر السورة. ثم ذكر الأخبار التي رويت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم. ثم قال ابن إسحاق: وإنما أمر ابن آدم فيما بينه وبين عدو الله، كأمره فيما بينه وبين آدم. فقال الله: (فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ) [سورة الأعراف: ١٣]. ثم خلص إلى آدم وزوجته حتى كلمهما، كما قص الله علينا من خبرهما، فقال: (فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ

عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى) [سورة طه: ١٢٠]، فخلص إليهما بما
خلص إلى ذريته من حيث لا يريانه - فالله أعلم أي ذلك كان. انتهى

وذكر المفسرون أن إبليس اللعين دخل على آدم من جهة حواء فهي التي
زينت له الأكل من الشجرة وهذا الظاهر لقول رسول الله صلى الله عليه
وسلم: «لَوْلَا بَنُو إِسْرَائِيلَ لَمْ يَخْنَزِ اللَّحْمُ، وَلَوْلَا حَوَاءُ لَمْ تَخَنَّ أَنْثَى زَوْجَهَا»
أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وقوله: "لم تخن أنثى زوجها" فيه إشارة إلى ما وقع من حواء في تزوينها
لآدم الأكل من الشجرة حتى وقع في ذلك، فمعنى خيانتها: أنها قبلت ما
زين لها إبليس حتى زينته لآدم، ولما كانت هي أم بنات آدم أشبهنها
بالولادة ونزع العرق، فلا تكاد امرأة تسلم من خيانة زوجها بالفعل أو
بالقول، وليس المراد بالخيانة هنا ارتكاب الفواحش حاشا وكلا، ولكن لما
مالت إلى شهوة النفس من أكل الشجرة، وحسنت ذلك لآدم، عد ذلك
خيانة له، وأما من جاء بعدها من النساء فخيانة كل واحدة منهن
بحسبها، وقريب من هذا حديث "جَحَدَ آدَمُ فَجَحَدَتْ ذَرْيَتُهُ"، وفي
الحديث إشارة إلى تسلية الرجال فيما يقع لهم من نسائهم بما وقع من
أمهن الكبرى، وأن ذلك من طبيعتهم فلا يُفْرِطُ في لوم من وقع منها شيء
من غير قصد إليه، أو على سبيل الثُّدُورِ، وينبغي لهن أن لا يتمكنَّ بهذا

في الاسترسال في هذا النوع، بل يضبطن أنفسهن، ويجاهدن هواهن، والله المستعان. انتهى كلام الحافظ.

قوله: { فأخرجهما مما كانا فيه } أي كان سببا في إخراجهما من الجنة فأضاف الله الفعل إلى سببه.

قال القرطبي (١ / ٣١٢): فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ " إِذَا جَعَلَ أَرَا لَ مِنْ زَالَ عَنِ الْمَكَانِ فَقَوْلُهُ: " فَأَخْرَجَهُمَا " تَأْكِيدٌ وَبَيَانٌ لِلزَّوَالِ، إِذْ قَدْ يُمَكِّنُ أَنْ يَزُولَا عَنْ مَكَانٍ كَانَا فِيهِ إِلَى مَكَانٍ آخَرَ مِنَ الْجَنَّةِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، وَإِنَّمَا كَانَ إِخْرَاجُهُمَا مِنَ الْجَنَّةِ إِلَى الْأَرْضِ، لِأَنَّهُمَا خُلِقَا مِنْهَا، وَلِيَكُونَ آدَمُ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ. وَلَمْ يَقْصِدْ إِبْلِيسُ -لَعَنَهُ اللَّهُ- إِخْرَاجَهُ مِنْهَا وَإِنَّمَا قَصَدَ إِسْقَاطَهُ مِنْ مَرْتَبَتِهِ وَإِبْعَادِهِ كَمَا أُبْعِدَ هُوَ، فَلَمْ يَبْلُغْ مَقْصِدَهُ وَلَا أَدْرَكَ مُرَادَهُ، بَلِ ازْدَادَ سُخْنَةَ عَيْنٍ وَغَيْظَ نَفْسٍ وَخَيْبَةَ ظَنٍّ. قَالَ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: " ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى [طه: ١٢٢] فَصَارَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَلِيفَةَ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ بَعْدَ أَنْ كَانَ جَارًّا لَهُ فِي دَارِهِ، فَكَمْ بَيْنَ الْخَلِيفَةِ وَالْجَارِّ! صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَنُسِبَ ذَلِكَ إِلَى إِبْلِيسَ، لِأَنَّهُ كَانَ بِسَبَبِهِ وَإِغْوَائِهِ. وَلَا خِلَافَ بَيْنَ أَهْلِ التَّأْوِيلِ وَغَيْرِهِمْ أَنَّ إِبْلِيسَ كَانَ مُتَوَلِّئًا إِغْوَاءِ آدَمَ، وَاخْتَلَفَ فِي الْكَيْفِيَّةِ، فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَجُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ أَغْوَاهُمَا مُشَافَهَةً، وَدَلِيلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: " وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُ مِّنَ النَّاصِحِينَ " وَالْمُقَاسَمَةُ ظَاهِرُهَا الْمُشَافَهَةُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ، وَذَكَرَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ وَهْبٍ

بْنِ مُنْبِّهِ،: دَخَلَ الْجَنَّةَ فِي فَمِ الْحَيَّةِ وَهِيَ ذَاتُ أَرْبَعٍ كَالْبُخْتِيَّةِ مِنْ أَحْسَنِ دَابَّةٍ خَلَقَهَا اللَّهُ تَعَالَى بَعْدَ أَنْ عَرَضَ

نَفْسَهُ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْحَيَوَانَ فَلَمْ يُدْخِلْهُ إِلَّا الْحَيَّةَ، _ وذكر كلاما لا دليل عليه تقوم به حجة _ وقال وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: إِنَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ إِلَى آدَمَ بَعْدَ مَا أُخْرِجَ مِنْهَا وَإِنَّمَا أَعْوَى بِشَيْطَانِهِ وَسُلْطَانِهِ وَوَسْوَاسِهِ الَّتِي أَعْطَاهُ اللَّهُ تَعَالَى، كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ ابْنِ آدَمَ بِمَجْرَى الدَّمِ). وَاللَّهُ أَعْلَمُ. انتهى

قال ابن كثير (١/ ٢٣٨):

وَأَجَابَ الْجُمْهُورُ بِأَجْوَبَةٍ، أَحَدُهَا: أَنَّهُ مُنِعَ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ مُكْرَمًا، فَأَمَّا عَلَى وَجْهِ الرَّذْعِ وَالْإِهَانَةِ، فَلَا يَمْتَنِعُ؛ وَهَذَا قَالَ بَعْضُهُمْ: كَمَا جَاءَ فِي التَّوْرَةِ أَنَّهُ دَخَلَ فِي فَمِ الْحَيَّةِ إِلَى الْجَنَّةِ، وَقَدْ قَالَ بَعْضُهُمْ: يَحْتَمِلُ أَنَّهُ وَسْوَاسَ لِهَمَّا وَهُوَ خَارِجُ بَابِ الْجَنَّةِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: يَحْتَمِلُ أَنَّهُ وَسْوَاسَ لِهَمَّا وَهُوَ فِي الْأَرْضِ، وَهُمَا فِي السَّمَاءِ، ذَكَرَهَا الرَّحْشَرِيُّ وَغَيْرُهُ. انتهى

ومع ذلك يكفي الإيمان بظاهر القرآن دون بحث وتنقيب عن الذي لم نخبر به فنؤمن أنه وسوس لهما وقاسمهما وعرهما والله المستعان.

قوله تعالى: { وَفَلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ } [البقرة: ٣٦].

{ وَقُلْنَا } أي الله قال لهم والجمع للتعظيم، { اهْبُطُوا } أي اخرجوا منها نزولاً وفيه دلالة على أن الجنة في السماء على ما يأتي.

قال الراغب في المفردات في غريب القرآن (ص: ٨٣٢)

الهُبُوطُ: الانحدار على سبيل القهر كهبوط الحجر، والهَبُوطُ بالفتح: المنحدر. يقال:

هَبَطْتُ أَنَا، وَهَبَطْتُ غَيْرِي، يكون اللّازم والمتعدّي على لفظ واحد. قال تعالى: وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ [البقرة/ ٧٤] يقال: هَبَطْتُ وَهَبَطْتُهُ هَبْطًا، وإذا استعمل في الإنسان الهَبُوطُ فعلى سبيل الاستخفاف بخلاف الإنزال، فَإِنَّ الْإِنْزَالَ ذَكَرَهُ تَعَالَى فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي نَبَّهَ عَلَى شَرْفِهَا، كإِنْزَالِ الْمَلَائِكَةِ وَالْقُرْآنِ وَالْمَطَرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَالهَبُوطُ ذَكَرَ حَيْثُ نَبَّهَ عَلَى الْغَضِّ نَحْوُ: وَقُلْنَا اهْبُطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ [البقرة/ ٣٦]، فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا [الأعراف/ ١٣] ، اهْبُطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ [البقرة/ ٦١] وليس في قوله: فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ [البقرة/ ٦١] تعظيم وتشريف، ألا ترى أنه تعالى قال: وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ [البقرة/ ٦١]. انتهى

واختلف أهل التأويل في معنى قوله ((اهبطوا منها جميعاً)) مع إجماعهم على أن آدم وحواء داخلان في الخبر وقد ساق الآثار بأسانيدنا ابن جرير في تفسيره قال الشوكاني في فتح القدير (١ / ٨١): اهْبُطُوا خِطَابٌ لِآدَمَ

وَحَوَاءَ، وَخُوطِبَا بِمَا يُخَاطَبُ بِهِ الْجَمْعُ لِأَنَّ الْإِثْنَيْنِ أَقَلُّ الْجَمْعِ عِنْدَ الْبَعْضِ مِنْ أَيْمَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَقِيلَ إِنَّهُ خِطَابٌ لَهُمَا وَلِذَرَّتِيهِمَا، لِأَنَّهُمَا لَمَّا كَانَا أَصْلَ هَذَا النَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ جُعِلَا بِمَنْزِلَتِهِ، وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِنَّ هَذِهِ الْجُمْلَةَ الْوَاقِعَةَ حَالًا مُبَيَّنًا لِلْهَيْئَةِ الثَّابِتَةِ لِلْمَأْمُورِينَ بِالْهَبُوطِ تُفِيدُ ذَلِكَ. انتهى

قوله { بعضكم لبعض عدو } العدو ضد الصديق ومعنى ذلك أن العداوة بين بني الإنسان والشياطين وقد قال الله تعالى موضحا ذلك { وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٦٨) } [البقرة: ١٦٨] وقال تعالى: { إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) } [فاطر: ٦] إلى غير ذلك من الآيات، وقد تكون كذلك بين الصنف البشري كما هو الحال في عداوة الكفار للمسلمين والعكس.

وقد ذكر العلماء في هذا الموطن من تفاسيرهم آثارا في تحديد مكان هبوط آدم وحواء والشيطان لكن لم يثبت منها شيء عن النبي صلى الله عليه وسلم.

والثابت في تحديد يوم خروجه من الجنة حديث أبي هريرة: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا» أخرجه مسلم (٨٥٤)

وقوله تعالى: **{ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٣٦) }** [البقرة: ٣٦] قوله: **{ وَلَكُمْ }** أي لآدم وذريته وإذا قلنا بأن الخطاب في اهبطوا داخل فيه إبليس فيكون داخل هو وذريته في قوله ولكم.

{ مُسْتَقَرٌّ } أي مقر وقرار قال القرطبي (١ / ٣٢١) أي مَوْضِعٌ اسْتَقَرَّارٍ. قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَابْنُ زَيْدٍ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: "مُسْتَقَرٌّ" يَعْنِي الْقُبُورَ. قُلْتُ: وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: "جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا" [غافر: ٦٤] يَحْتَمِلُ الْمَعْنَيْنِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. انتهى وأختار هذا القول الشوكاني فقال في فتح القدير (١ / ٨١): وَالْمُرَادُ بِالْمُسْتَقَرِّ: مَوْضِعُ الْإِسْتِقْرَارِ، **{ وَمِنْهُ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا }** وَقَدْ يَكُونُ بِمَعْنَى الْإِسْتِقْرَارِ، وَمِنْهُ: **{ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ }** فَالآيَةُ مُحْتَمَلَةٌ لِلْمَعْنَيْنِ، وَمِثْلُهَا قَوْلُهُ: **{ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا }** قلت والله أعلم المراد بمستقر أي في الحياة الدنيا حيث يعيشون فيها ويأكلون ويتبعلون وغير ذلك بدليل ما بعدها وهو قوله: **{ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ }** أي إلى الموت. قال السعدي في تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٠) ثم ذكر منتهى الإهباط إلى الأرض، فقال: **{ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ }** أي: مسكن وقرار، **{ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ }** انقضاء آجالكم، ثم تنتقلون منها للدار التي خلقت لها، وخلقت لكم، ففيها أن مدة هذه الحياة، مؤقتة عارضة، ليست مسكنا حقيقيا، وإنما هي معبر يتزود منها لتلك الدار، ولا تعمر للاستقرار. انتهى

{ومتاع} القرطبي (١ / ٣٢١): الْمَتَاعُ مَا يُسْتَمْتَعُ بِهِ مِنْ أَكْلِ وَبُسِّ وَحَيَاةٍ وَحَدِيثٍ وَأُنْسٍ وَعَيْرِ ذَلِكَ، وَمِنْهُ سُمِّيَتْ مُتَعَةُ النِّكَاحِ لِأَنَّهَا يُتَمَتَّعُ بِهَا. وَأَنْشَدَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ حِينَ وَقَفَ عَلَى قَبْرِ ابْنِهِ أَيُّوبَ إِثْرَ دَفْنِهِ:

وَقَفْتُ عَلَى قَبْرِ غَرِيبٍ بِقَفْرَةٍ ... مَتَاعٌ قَلِيلٌ مِنْ حَبِيبٍ مُفَارِقٍ. انتهى

{إلى حين} الحين في اللغة يطلق على الوقت البعيد وله غير ذلك من الإطلاقات

قال القرطبي (١ / ٣٢٢): قَالَ الْأَزْهَرِيُّ: الْحَيْنُ اسْمٌ كَالْوَقْتِ يَصْلُحُ لِجَمِيعِ الْأَزْمَانِ كُلِّهَا طَالَتْ أَوْ قَصُرَتْ. وَالْمَعْنَى أَنَّهُ يُتَمَتَّعُ بِهَا فِي كُلِّ وَقْتٍ وَلَا يَنْقَطِعُ نَفْعُهَا الْبَتَّةَ. انتهى

وقال الراغب في (ص: ٢٦٧):

الحين: وقت بلوغ الشيء وحصوله، وهو مبهم المعنى ويتخصّص بالمضاف إليه، نحو قوله تعالى: وَلَا تَحِينَ مَنَاصِيَ ، ومن قال حين يأتي على أوجه: للأجل، نحو:

فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ [الصفات / ١٤٨] ، وللسنة، نحو قوله تعالى: تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا [إبراهيم / ٢٥] ، وللساعة، نحو: حِينَ تُمَسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ [الروم / ١٧] ، وللزمان المطلق، نحو: هَلْ أَتَى عَلَى

الْإِنْسَانِ حِينَ مَنَ الدَّهْرِ [الدهر / ١] ، وَتَعَلَّمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ [ص / ٨٨] . فَإِنَّمَا فَسَّرَ ذَلِكَ بِحَسَبِ مَا وَجَدَهُ قَدْ عُلِقَ بِهِ، وَيُقَالُ:

عاملته مُحَايِنَةً: حيناً وحيناً، وَأَحْيَيْتُ بِالْمَكَانِ:

أَقَمْتُ بِهِ حِينًا، وَحَانَ حِينٌ كَذَا، أَي: قَرَبَ أَوَانَهُ، وَحَيَّيْتُ الشَّيْءَ: جَعَلْتُ لَهُ حِينًا، وَالْحِينُ عَمَّرَ بِهِ عَنِ حِينِ الْمَوْتِ. انْتَهَى

وهذا من عجيب بلاغة القرآن الكريم وإعجازه حيث جمع في هذه الآية الحياة البشرية منذ إخراج آدم من الجنة وإلى قيام ساعة كل إنسان بل وإلى قيام الساعة العظمى وفي الآية ترهيب عظيم من حيث أن الإنسان قادم على ربه تعالى طال عمره أم قصر ويجازى على ما قدم وقد قال تعالى:

{ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ } [الزمر: ٣٠، ٣١] وفي الحديث عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَنْ تَزُولَ قَدَمَا عَبْدٍ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ خِصَالٍ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ أَصَابَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ»

قال الرازي في مفاتيح الغيب (٣ / ٤٦٥):

اعْلَمَ أَنَّ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ تَحْذِيرًا عَظِيمًا عَنْ كُلِّ الْمَعَاصِي مِنْ وُجُوهٍ:
أَحَدُهَا: أَنَّ مَنْ تَصَوَّرَ مَا جَرَى عَلَى آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِسَبَبِ إِقْدَامِهِ عَلَى
هَذِهِ الرِّزَّةِ الصَّغِيرَةِ، كَانَ عَلَى وَجَلٍ شَدِيدٍ مِنَ الْمَعَاصِي، قَالَ الشَّاعِرُ:

يَا نَاطِرًا يَرْتَوِ بِعَيْنِي رَاقِدٍ ... وَمُشَاهِدًا لِلْأَمْرِ غَيْرَ مُشَاهِدٍ

تَصِلُ الدُّنُوبَ إِلَى الدُّنُوبِ وَتَرْتَجِي ... دَرَكَ الْجَنَانِ وَنَيْلَ فَوْزِ الْعَابِدِ

أَنْسَيْتَ أَنَّ اللَّهَ أَخْرَجَ آدَمًا ... مِنْهَا إِلَى الدُّنْيَا بِذَنْبٍ وَاحِدٍ

وَعَنْ فَتْحِ الْمُوصِلِيِّ أَنَّهُ قَالَ: كُنَّا قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَسَبَّانَا إِبْلِيسُ إِلَى
الدُّنْيَا، فَلَيْسَ لَنَا إِلَّا الْهَمُّ وَالْحُزْنُ حَتَّى نُرَدَّ إِلَى الدَّارِ الَّتِي أُخْرِجْنَا مِنْهَا،
وَتَأْنِيهَا: التَّحْذِيرُ عَنِ الْإِسْتِكْبَارِ وَالْحَسَدِ وَالْحِرْصِ، عَنْ فَتَاوَةِ فِي قَوْلِهِ
تَعَالَى:

أَبِي وَاسْتَكْبَرَ [البقرة: ٣٤] ، قَالَ حَسَدَ عَدُوُّ اللَّهِ إِبْلِيسُ آدَمَ عَلَى مَا
أَعْطَاهُ اللَّهُ مِنَ الْكِرَامَةِ فَقَالَ: أَنَا نَارِيٌّ وَهَذَا طِينِيٌّ ثُمَّ أَلْقَى الْحِرْصَ فِي قَلْبِ
آدَمَ حَتَّى حَمَلَهُ عَلَى ارْتِكَابِ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ ثُمَّ أَلْقَى الْحَسَدَ فِي قَلْبِ قَابِيلَ
حَتَّى قَتَلَ هَابِيلَ. وَتَأْلُفُهَا: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَيْنَ الْعَدَاوَةِ الشَّدِيدَةِ بَيْنَ
ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَإِبْلِيسَ، وَهَذَا تَنْبِيهُ عَظِيمٌ عَلَى وُجُوبِ الْحَذَرِ.

قوله تعالى: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ
التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) } [البقرة: ٣٧]

هذا إخبار من الله تعالى عن آدم عليه السلام وحواء بعد أن وقعا في الأكل من الشجرة التي نهاهم الله عنها فحصل منهم الندم فكان من رحمة الله به أن أوحى إليه بكلمات يدعو الله تعالى ويتوسل بهن لقبول توبته قال القرطبي (١ / ٣٢٣): تَلَقَّى قِيلَ مَعْنَاهُ: فَهِمَ وَفَطِنَ. وَقِيلَ: قَبِلَ وَأَخَذَ وَكَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَتَلَقَّى الْوَحْيَ أَي يَسْتَقْبِلُهُ وَيَأْخُذُهُ وَيَتَلَقَّفُهُ تَقُولُ: خَرَجْنَا نَتَلَقَّى الْحَجِيجَ أَي نَسْتَقْبِلُهُمْ وَقِيلَ: مَعْنَى تَلَقَّى تَلَقَّنَ. وهذا في الْمَعْنَى صَحِيحٌ وَلَكِنْ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ التَّلَقَّى مِنَ التَّلَقَّنِ فِي الْأَصْلِ لِأَنَّ أَحَدَ الْحَرْفَيْنِ إِذَا يُقْلَبُ يَاءٌ إِذَا تَجَانَسَا. انتهى

وقال العثيمين في تفسير الفاتحة والبقرة (١ / ١٣٤): {من ربه} فيه إضافة الربوبية إلى آدم؛ وهي الربوبية الخاصة. انتهى أقول بأن الربوبية الخاصة هي المقتضية للنصر والتأييد والحفظ وغير ذلك من لوازمها، ومن هذا الباب قول الله تعالى: {إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا} [النمل: ٩١]، وقوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا} [الجن: ٢٠]، وقوله تعالى: {إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّدَكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ} [آل عمران: ١٢٤] والربوبية العامة فهي شاملة لجميع المخلوقات وهي ربوبية الخلق والملك والقهر

وشواهدة كثيرة ومنها قوله تعالى: { رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا }
 [مریم: ٦٥] وقوله عزوجل: { رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ } [الرحمن:
 ١٧] وقوله تعالى: { قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ } [الفلق: ١]، وقوله تعالى:
 { قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ } [الناس: ١] إلى غير ذلك.

وقد اختلف أهل التفسير في هذه الكلمات إلى أقوال ذكرها ابن جرير
 والقرطبي وغيرهما بما ملخصه أن أحسن ما يقال في هذه الكلمات هو ما
 ذكره تعالى في سورة الأعراف: رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا
 لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ " [الأعراف: ٢٣]. وهذا القول مروى عن ابن
 عباس والحسن وسعيد ابن جبيرة والضحاك.

وتضمنت هذه الآية أنواع من التوسلات قال العثيمين في تفسير الفاتحة
 والبقرة (١ / ١٣٥): وفي قول الإنسان: "ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا
 وترحمنا لنكونن من الخاسرين" أربعة أنواع من التوسل؛ **الأول**: التوسل
 بالربوبية؛ **الثاني**: التوسل بحال العبد: { ظلمنا أنفسنا }؛ **الثالث**: تفويض
 الأمر إلى الله؛ لقوله: { وإن لم تغفر لنا ... } إلخ؛ **الرابع**: ذكر حال
 العبد إذا لم تحصل له مغفرة الله ورحمته؛ لقوله تعالى: { لنكونن من
 الخاسرين } ، وهي تشبه التوسل بحال العبد؛ بل هي توسل بحال العبد؛
 وعليه فيكون توسل العبد بحاله توسلاً بحاله قبل الدعاء، وبحاله بعد الدعاء
 إذا لم يحصل مقصوده.. انتهى

والتوسل من المسائل المهمة وهو منقسم إلى قسمين مشروع وممنوع، والمشروع منقسم إلى ثلاثة أقسام.

الأول: التوسل بأسماء الله تعالى وصفاته قال تعالى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا} [الأعراف: ١٨٠].

الثاني: التوسل بالأعمال الصالحة قال تعالى: {رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ} [آل عمران: ١٩٣] ومنه حديث ابن عمر رضي الله عنهم في الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار فدعوا الله بصالح أعمالهم ففرج الله عنهم ما هم فيه وخرجوا يمشون.

الثالث: التوسل بدعاء الرجل الصالح وأدلته كثيرة فكم كان الصحابة يأتون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويسألونه الدعاء. والممنوع منقسم إلى قسمين:

الأول: توسل مبتدع وهو التوسل بذوات وحق وجاه الرجل الصالح كقول بعضهم بحق محمد صلى الله عليه وسلم وجاهه ونحو ذلك.

الثاني: تسل شركي وهو دعاء غير الله تعالى من الأصنام والقبور والأولياء.

قوله تعالى { فَتَابَ عَلَيْهِ } [البقرة: ٣٧] مثل قوله تعالى: { ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى } [طه: ١٢٢] والتوبة الرجوع قال الراغب في المفردات في غريب القرآن (ص: ١٦٩)

التَّوْبُ: ترك الذنب على أجمل الوجوه، وهو أبلغ وجوه الاعتذار، فإنَّ الاعتذار على ثلاثة أوجه: إمَّا أن يقول المعتذر: لم أفعل، أو يقول:

فعلت لأجل كذا، أو فعلت وأسأت وقد أقلعت، ولا رابع لذلك، وهذا الأخير هو التوبة، والتَّوْبَةُ في الشرع: ترك الذنب لقبحه والندم على ما فرط منه، والعزيمة على ترك المعاودة، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالأعمال بالإعادة، فمتى اجتمعت هذه الأربع فقد كملت شرائط التوبة. وتاب إلى الله، فذكر «إلى الله» يقتضي الإنابة، نحو: فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ [البقرة/ ٥٤]، وَتُوبُوا إِلَىٰ اللَّهِ جَمِيعًا [النور/ ٣١]، أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَىٰ اللَّهِ [المائدة/ ٧٤]، وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، أي: قبل توبته، منه: لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَىٰ النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ [التوبة/ ١١٧]، ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا [التوبة/ ١١٨]، فَتَابَ عَلَيْهِمْ وَعَفَا عَنْكُمْ [البقرة/ ١٨٧].

والتائب يقال لباذل التوبة ولقابل التوبة، فالعبد تائب إلى الله، والله تائب على عبده.

والتَّوَّابُ: العبد الكثير التوبة، وذلك بتركه كلَّ وقت بعض الذنوب على الترتيب حتى يصير تاركا لجميعه، وقد يقال ذلك لله تعالى لكثرة قبوله توبة

العباد حالاً بعد حال. وقوله: وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً [الفرقان / ٧١]، أي: التوبة التامة، وهو الجمع بين ترك القبيح وتحري الجميل. عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ [الرعد / ٣٠]، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ [البقرة / ٥٤]. انتهى

وقال ابن كثير (١ / ٢٤٠):

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: { إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } أَي: إِنَّهُ يَتُوبُ عَلَيَّ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَنَابَ، كَقَوْلِهِ: { أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ } [التَّوْبَةُ: ١٠٤] وَقَوْلُهُ: { وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا } [النساء: ١١] ، وَقَوْلُهُ: { وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً } [الْفُرْقَان: ٧١] وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى يَغْفِرُ الذُّنُوبَ وَيَتُوبُ عَلَى مَنْ يَتُوبُ وَهَذَا مِنْ لُطْفِهِ بِخَلْقِهِ وَرَحْمَتِهِ بِعَبِيدِهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. ولها شروط وآداب تضمنتها كتابي شروط التوبة إلى الله ونذكر منه هنا جملاً إن شاء الله.

والتوبة واجبة على الفور قال تعالى: وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً [النور / ٣١]، والمسوف لها مرتكب لكبيرة يجب عليه أن يتوب منها، وهي جائزة في جميع الذنوب من الشرك فما دونه ولها شروط عامة وخاصة على اختلاف ما يتاب منه فأما العامة فهي خمسة:

الأول: الإخلاص فهي عبادة وكل عبادة لا بد لها من نية قال تعالى: { وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ } [البينة: ٥] وفي حديث عمر المتفق عليه إنما الأعمال بالنية.

الثاني: أن تكون في زمن يقبل فيه التوبة عن عبد الله بن عمر، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ، مَا لَمْ يُغْرَغِرْ» أخرج ابن ماجه وغيره.

الثالث: الندم على فعل الذنب وفي الأثر التوبة ندم.

الرابع: الإقلاع عن الذنب فالمتعاطي للذنب ليس بتائب.

الخامس: العزم على عدم العود، ولا يلزم عدم العود بالكلية.

وهذه الشروط الخمسة في الذنوب التي بين العبد وبين الله تعالى غد حقوقه تعالى مبنية على المسامحة قال تعالى: { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ } [النساء: ٤٨]، وأما إذا كان الحقوق فيما بين العباد فلا بد من شرط آخر.

السادس: وهو رد الحق إلى أهله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم -:

"مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَحَدٍ مِنْ عَرَضِهِ، أَوْ شَيْءٌ؛ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ

مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ، فَحُمِلَ عَلَيْهِ".

وإن كان الذنب بدعة يضاف إلى ما تقدم شرطان وهما البيان والإصلاح قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [البقرة: ١٥٩، ١٦٠].

وإن كان الذنب نفاق فيضاف إلى الخمسة الشروط العامة الإخلاص والإصلاح والاعتصام بدين الإسلام قال تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَهُمْ صَرِيحًا (١٤٥) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ} [النساء: ١٤٥، ١٤٦].

وأما الكفر فشرطه واحد وهو الانتهاء عنه مع إحسان الإسلام قال تعالى: {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ} [الأنفال: ٣٨] وهذه الشروط مع بيانها وأقوال العلماء فيها ضمنته كتابي المذكور والله الحمد والمنة.

تنبيه: قال الشوكاني في تفسيره (١ / ٨٢) وَاقْتَصَرَ عَلَى ذِكْرِ التَّوْبَةِ عَلَى آدَمَ دُونَ حَوَاءَ مَعَ اشْتِرَاكِهِمَا فِي الذَّنْبِ، لِأَنَّ الْكَلَامَ مِنْ أَوَّلِ الْقِصَّةِ مَعَهُ

استمر على ذلك، واستغنى بالتوبة عليه عن ذكر التوبة عليها لكونها تابعة له، كما استغنى بنسبة الذنب إليه عن نسبته إليها في قوله: { وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى }

قال العثيمين في تفسير الفاتحة والبقرة (١ / ١٣٦)

واعلم أن الله تعالى على عبده منتين؛ التوبة الأولى قبل توبة العبد؛ وهي التوفيق للتوبة؛ والتوبة الثانية بعد توبة العبد؛ وهي قبول التوبة؛ وكلاهما في القرآن؛ قال الله. تبارك وتعالى: { وعلى الثلاثة الذين خُلّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا } [التوبة: ١١٨]: فقوله تعالى: { ثم تاب عليهم } أي وفقهم للتوبة، وقوله تعالى: { ليتوبوا } أي يقوموا بالتوبة إلى الله؛ وأما توبة القبول ففي قوله تعالى: { وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات } (الشورى: ٢٥) انتهى

وفي الآية إثبات اسم التواب لله تعالى وهو من الأسماء الحسنى وكل اسم يتضمن صفة واسم الرحيم المتضمن للرحمة العظيمة التي وسعت كل شيء قال تعالى: { وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ } [الأعراف: ١٥٦] والرحيم هو ذو الرحمة قال تعالى: { وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ } [الأنعام: ١٣٣] وقال تعالى: { وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ } [الكهف: ٥٨]

وقد زعم المبتدعة من المعتزلة والأشاعرة أن الرحمة في حق الله مجاز وأن الله تعالى غير متصف بصفة الرحمة تعالى الله عن قولهم قال ابن القيم رحمه الله كما في مختصر الصواعق المرسله على الجهمية والمعتلة (ص: ٣٥٩)

مِمَّا ادَّعَوْا أَنَّهُ بِمَجَازِ اسْمِهِ سُبْحَانَهُ (الرَّحْمَنُ) وَقَالُوا وَصَفُهُ بِالرَّحْمَةِ بِمَجَازٍ، قَالُوا: لِأَنَّ الرَّأْفَةَ وَالرَّحْمَةَ هِيَ رِقَّةٌ تَعْتَرِي الْقَلْبَ، وَهِيَ مِنَ الْكَيْفِيَّاتِ النَّفْسِيَّةِ، وَاللَّهُ مُنَزَّهٌ عَنْهَا، وَهَذَا بَاطِلٌ مِنْ وُجُوهِ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُمْ جَحَدُوا حَقِيقَةَ الرَّحْمَةِ فَقَالُوا إِنَّ نِسْبَتَهَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مُحَالٌ، وَأَنَّهُ لَيْسَ بِرَحِيمٍ بِعِبَادِهِ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَقَدْ سَبَقَهُمْ إِلَى هَذَا النَّفْيِ مُشْرِكُو الْعَرَبِ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ } [الفرقان: ٦٠] فَأَنْكَرُوا حَقِيقَةَ اسْمِ الرَّحْمَنِ أَنْ يُسَمَّى بِذَلِكَ، وَلَمْ يَكُونُوا يُنْكِرُونَ ذَاتَهُ وَرُبُوبِيَّتَهُ، وَلَا مَا يَجْعَلُهُ الْمُعْطَلَةَ مَعْنَى اسْمِ الرَّحْمَنِ مِنَ الْإِحْسَانِ، فَإِنَّ أَحَدًا لَمْ يُنْكِرُوا إِحْسَانَ اللَّهِ إِلَى خَلْقِهِ.

فَإِنْ قِيلَ: فَلَوْ كَانَ هَذَا كَمَا ذَكَرْتُمْ لَأَنْكَرُوا اسْمَ الرَّحِيمِ لِأَنَّ الْمَعْنَى وَاحِدٌ. قِيلَ: إِنَّمَا لَمْ يُنْكِرُوا الرَّحِيمَ لِأَنَّ وُجُودَ الرَّحْمَنِ فِي أَسْمَائِهِ أَكْثَرَ مِنْ وُجُودِ الرَّحِيمِ.

وَلِهَذَا قَالَ: { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى } [طه: ٥] ، { ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ } [الفرقان: ٥٩] ، { إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنْ

{ الرَّحْمَنُ } [مريم: ٤٥] ، { رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ }
 { النَّبَأُ: ٣٧ } { الرَّحْمَنُ - عَلَّمَ الْقُرْآنَ } [الرحمن: ١ - ٢] وَإِنَّمَا جَاءَ الرَّحِيمُ
 مُقَيَّدًا كَقَوْلِهِ: { وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا } [الأحزاب: ٤٣] وَقَوْلِهِ: { إِنَّهُ
 بِهِمْ رَعُوفٌ رَحِيمٌ } [التوبة: ١١٧] ، وَمَقْرُونًا بِاسْمِ الرَّحْمَنِ كَمَا فِي
 الْفَاتِحَةِ، أَوْ بِاسْمِ آخَرَ نَحْوِ: { الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ } [الشعراء: ٩] وَأَيْضًا فَالرَّحْمَنُ
 جَاءَ عَلَى بِنَاءِ فَعْلَانِ الدَّالِّ عَلَى الصِّفَةِ الثَّابِتَةِ اللَّازِمَةِ الْكَامِلَةِ كَمَا يُشْعُرُ
 بِهِ هَذَا الْبِنَاءُ نَحْوَ غَضْبَانَ وَنَدْمَانَ وَحَيْرَانَ، فَالرَّحْمَنُ مِنْ صِفَتِهِ الرَّحْمَةُ،
 وَالرَّحِيمُ مَنْ يَرْحَمُ بِالْفِعْلِ.

وَأَيْضًا فَلَا يَخْلُو إِنْكَارُهُمْ لِهَذَا الْإِسْمِ إِذَا أُنْ تَكُونُ دَلَالَتُهُ عَلَى حَقِيقَةِ
 الرَّحْمَةِ أَوْ لَا، فَإِنْ كَانَ الْأَوَّلُ فَمَنْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ حَقِيقَةً فَقَدْ وَاْفَقَهُمْ،
 وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ فَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ مَوْضِعَ الْإِسْمِ وَحَقِيقَتَهُ صِفَةُ الرَّحْمَةِ
 الْقَائِمَةُ بِمَوْصُوفِهَا، فَلَوْ كَانَتْ حَقِيقَةُ الْإِسْمِ مُنْتَفِيَةً فِي نَفْسِ الْأَمْرِ لَكَانَ
 طَعْنُهُمْ أَقْوَى، وَكَانَ ذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ وَصْفِهِ بِالْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَالتَّوْمِ وَالْجُورِ
 وَنَحْوِهَا مِمَّا يَلِيقُ بِهِ وَبِالْجُمْلَةِ فَالَّذِي أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ رَحْمَانًا عَلَى الْحَقِيقَةِ
 هُوَ (جَهْمُ بْنُ صَفْوَانَ) وَشِيعَتُهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى
 فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ } [الأعراف: ١٨٠] .

وَمِنْ أَعْظَمِ الْإِلْحَادِ فِي أَسْمَائِهِ إِنْكَارُ حَقَائِقِهَا وَمَعَانِيهَا وَالتَّصْرِيحُ بِأَنَّهَا
 بَحَارَاتٌ وَهُوَ أَنْوَاعٌ هَذَا أَحَدُهَا، الثَّانِي: جَحْدُهَا وَإِنْكَارُهَا بِالْكَلْبِيَّةِ، الثَّلَاثُ:

تَشْبِيهُهُ فِيهَا بِصِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ وَمَعَانِي أَسْمَائِهِ، وَأَنَّ الثَّابِتَ لَهُ مِنْهَا مُمَثِّلٌ
لِلثَّابِتِ لِخَلْقِهِ، وَهَذَا يَذْكُرُهُ الْمُتَكَلِّمُونَ فِي كُتُبِهِمْ وَيَجْعَلُونَهَا مَقَالَةً لِبَعْضِ
النَّاسِ، وَهَذِهِ كُتُبُ الْمَقَالَاتِ بَيْنَ أَظْهُرِنَا لَا نَعْلَمُ ذَلِكَ مَقَالَةً لِطَائِفَةٍ مِنَ
الطَّوَائِفِ الْبَتَّةِ، ... قَوْلُهُمْ: (الرَّحْمَةُ رِقَّةُ الْقَلْبِ) تُرِيدُونَ رَحْمَةَ الْمَخْلُوقِ، أَمْ
رَحْمَةَ الْخَالِقِ، أَمْ كُلُّ مَا سُمِّيَ رَحْمَةً، شَاهِدًا أَوْ غَائِبًا، فَإِنْ قُلْتُمْ بِالْأَوَّلِ
صَدَقْتُمْ وَمَنْ يَنْفَعَكُم ذَلِكَ شَيْئًا، وَإِنْ قُلْتُمْ بِالثَّانِي وَالثَّلَاثِ كُنْتُمْ قَائِلِينَ غَيْرِ
الْحَقِّ، فَإِنَّ الرَّحْمَةَ صِفَةُ الرَّحِيمِ وَهِيَ فِي كُلِّ مَوْصُوفٍ بِحَسَبِهِ، فَإِنْ كَانَ
الْمَوْصُوفُ حَيَوَانًا لَهُ قَلْبٌ فَرَحْمَتُهُ مِنْ جِنْسِهِ رِقَّةٌ قَائِمَةٌ بِقَلْبِهِ، وَإِنْ كَانَ
مَلَكًا فَرَحْمَتُهُ تُنَاسِبُ ذَاتَهُ، فَإِذَا اتَّصَفَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ بِالرَّحْمَةِ حَقِيقَةً، لَمْ
يَلَزَمْ أَنْ تَكُونَ رَحْمَتُهُ مِنْ جِنْسِ الْمَخْلُوقِ لِمَخْلُوقٍ، وَهَذَا يَطْرُدُ فِي سَائِرِ
الصِّفَاتِ كَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالسَّمْعِ وَالْبَصْرِ وَالْحَيَاةَ وَالْإِرَادَةَ الْإِزَامًا وَحَوَابًا،
فَكَيْفَ يَكُونُ رَحْمَةً أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ مَجَازًا دُونَ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ؟ . وتكلم رحمه
الله من أوجه كثيرة يبين ثبوت اتصاف الله تعالى بالرحمة. انتهى

قوله تعالى {قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة:

[٣٨

قوله قلنا القائل هو الله تعالى وقوله اهبطوا: الواو ضمير جمع، وعبر به عن اثنين لأن آدم، وحواء هما أبوا بني آدم؛ فوجه الخطاب إليهما بصيغة الجمع باعتبارهما مع الذرية؛ هذا هو الظاهر؛ وأما حملة على أن أقل الجمع اثنين، وأن ضمير الجمع هنا بمعنى ضمير التثنية فبعيد؛ لأن كون أقل الجمع اثنين شاذ في اللغة العربية؛ وأما قوله تعالى: {إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما} [التحریم: ٤] فإن الأفتح في المتعدد إذا أضيف إلى متعدد أن يكون بلفظ الجمع. وإن كان المراد به اثنين؛ انتهى من تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (١/ ١٣٧)

وقال القرطبي (١/ ٣٢٧): قَوْلُهُ تَعَالَى: (قُلْنَا اهْبِطُوا) كَرَّرَ الْأَمْرَ عَلَى جِهَةِ التَّغْلِيظِ وَتَأْكِيدِهِ، كَمَا تَقُولُ لِرَجُلٍ: قُمْ قُمْ. وَقِيلَ: كَرَّرَ الْأَمْرَ لِمَا عُلِّقَ بِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمَا حُكْمًا غَيْرَ حُكْمِ الْآخِرِ فَعُلِّقَ بِالْأَوَّلِ الْعِدَاوَةَ وَبِالثَّانِي إِيْتَانِ الْهُدَى. وَقِيلَ: اهْبُوطُ الْأَوَّلُ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَى السَّمَاءِ وَالثَّانِي مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ. وَعَلَى هَذَا يَكُونُ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْجَنَّةَ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ حَدِيثُ الْإِسْرَاءِ عَلَى مَا يَأْتِي. (جَمِيعًا) نُصِبَ عَلَى الْحَالِ. انتهى

وقال الشوكاني (١ / ٨٢): فَكَرَّرَهُ لِلتَّوَكِيدِ وَالتَّغْلِيظِ. وَقِيلَ: إِنَّهُ لَمَّا تَعَلَّقَ بِهِ حُكْمٌ غَيْرُ الْحُكْمِ الْأَوَّلِ كَرَّرَهُ وَلَا تَرَاحُمَ بَيْنَ الْمُقْتَضِيَّاتِ. فَقَدْ يَكُونُ التَّكْرِيرُ لِلْأَمْرَيْنِ مَعًا. انتهى

وقد تقدم القول في معنى قوله تعالى اهبطوا منها جميعا وأنها شاملة لآدم وحواء وإبليس عليه لعائن الله ترى.

قال العثيمين في تفسير الفاتحة والبقرة (١ / ١٣٨)

قوله تعالى: {فإما} أصلها: "فإن ما": أدغمت النون في "ما"؛ و "إن" شرطية، و "ما" زائدة للتوكيد؛

و {يأتينكم} فعل مضارع مؤكد بنون التوكيد؛ ولذلك لم يكن مجزوماً؛ بل كان مبنياً على الفتح؛ لاتصاله بنون التوكيد لفظاً، وتقديراً. انتهى

قوله تعالى: {يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي} أي من الله تعالى، وقوله: {هدى} البيان والوحي وقد فسره أيضا العلماء بالعلم النافع وهو شامل لذلك كله على ما تقدم بيانه في أول سورة البقرة وفي سورة الفاتحة.

قال في الباب في علوم الكتاب (١ / ٥٨١):

اختلف في «الهُدَى» فقال «السَّدي»: كتاب الله، وقال قوم: الهدى الرِّسل، وهذا

إنما يتم لو كان المخاطب بهذا الكلام آدم وبنيه، فالرُّسل إلى آدم من الملائكة، وإلى بنيه من البشر.

وقيل: المراد من الهدى كل دلالة وبيان.

وقيل: التوفيق للهداية. انتهى

والذي يظهر أن المراد بالهدى هنا هو البيان والدلالة والإرشاد إذ لو كان المراد به التوفيق لم يكن لقوله فمن تبع هداي.

ودلت الآية بقوله {مني هدى} على أن أفعال العباد خلق لله تعالى خلافا لما تقوله المعتزلة وقد تقدم الكلام على هذه المسألة في تفسير سورة الفاتحة وقال ابن القيم في شفاء العليل (ص: ٥٤): فصل: ومن الدليل على خلق أعمال العباد قوله تعالى: {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ} فأخبر أنه هو الذي جعل السراويل وهي الدروع والثياب المصنوعة ومادتها لا تسمى سراويل إلا أن بعد تحيلها صنعة الآدميين وعملهم فإذا كانت مجعولة لله فهي مخلوقة له بجملتها صورتها ومادتها وهيأتها ونظير هذا قوله: {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ} فأخبر سبحانه أن البيوت المصنوعة المستقرة والمتنقلة مجعولة له وهي إنما صارت بيوتا بالصنعة الآدمية ونظيره قوله تعالى: {وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي

الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ، وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ } فأخبر سبحانه وتعالى أنه خالق الفلك المصنوع للعباد وأبعد من قال أن المراد بمثله هو الإبل فإنه إخراج المماثل حقيقة واعتبار لما هو بعيد عن المماثلة ونظير ذلك قوله تعالى حكاية عن خليله أنه قال لقومه أتعبدون ما ننحتون والله خلقكم وما تعملون فإن كانت ما مصدرية كما قدره بعضهم فالاستدلال ظاهر وليس بقوي إذ لا تناسب بين إنكاره عليهم عبادة ما ينحتونه بأيديهم وبين إخبارهم بأن الله خالق أعمالهم من عبادة تلك الآلهة ونحتها وغير ذلك فالأولى أن تكون ما موصولة أي والله خلقكم وخلق آلهتكم التي عملتموها بأيديكم فهي مخلوقة له لا آلهة شركاء معه فأخبر أنه خلق معمولهم وقد حله عملهم وصنعهم ولا يقال المراد مادته فإن مادته غير معموله لهم وإنما يصير معمولاً بعد عملهم.

فصل: وقد أخبر سبحانه أنه هو الذي جعل أئمة الخير يدعون إلى الهدى وأئمة الشر يدعون إلى النار فتلك الإمامة والدعوة يجعله فهي معمولة له وفعل لهم قال تعالى عن آل فرعون: { وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ } وقال عن أئمة الهدى: { وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا } فأخبر أن هذا وهذا يجعله مع كونه كسبا وفعلاً للأئمة ونظير ذلك قول الخليل: { رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ } فأخبر الخليل أنه سبحانه هو الذي يجعل المسلم مسلماً وعند القدرية هو الذي جعل نفسه مسلماً لا أن الله جعله مسلماً

ولا جعله إماما يهدي بأمره ولا جعل الآخر إماما يدعوا إلى النار على الحقيقة بل هم الجاعلون لأنفسهم كذلك حقيقة ونسبة هذا الجعل إلى الله مجاز بمعنى التسمية أي سمنا مسلمين لك وكذلك جعلناهم أئمة أي سميناهم كذلك وهم جعلوا أنفسهم أئمة رشد وضلال فمنهم الحقيقة ومنه المجاز والتعبير.

فصل: ومن ذلك إخباره سبحانه بأنه هو الذي يلهم العبد فجوره وتقواه والإلهام الإلقاء في القلب لا مجرد البيان والتعليم كما قاله طائفة من المفسرين إذ لا يقال لمن بين لغيره شيئا وعلمه إياه أنه قد ألهمه ذلك هذا لا يعرف في اللغة البتة بل الصواب ما قاله ابن زيد قال جعل فيها فجورها وتقواها وعليه حديث عمران بن حصين: "أن رجلا من مزينة أو جهينة أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس فيه ويكدحون أشيء قضى عليهم ومضى عليهم من قدر سابق أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم قال: بل شيء قضى عليهم ومضى قال: ففيم العمل قال: من خلقه الله لإحدى المنزلتين استعمله بعمل أهلها وتصديق ذلك في كتاب الله: { وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا } " فقراءته هذه الآية عقيب إخباره بتقديم القضاء والقدر السابق يدل على أن المراد بالإلهام استعمالها فيما سبق لها لا مجرد تعريفها فإن التعريف والبيان لا يستلزم وقوع ما سبق به القضاء والقدر ومن فسر الآية

من السلف بالتعليم والتعريف فمراده تعريف مستلزم لحصول ذلك لا تعريف مجرد عن الحصول فإنه لا يسمى إلهاما وبالله التوفيق.

فصل:

ومن ذلك قوله تعالى: { وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ، أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ } وذات الصدور كلمة لما يشتمل عليه الصدر من الاعتقادات والإرادات. انتهى وقد توسع ابن القيم رحمه الله تعالى في بيان ذلك مبينا فساد قول أهل البدع.

ولالإمام أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري كتابا نافعا سماه خلق أفعال العباد أتى على مذهب المعتزلة من جذوره ومنه قوله (ص: ٤٦): قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: فَأَمَّا أَفْعَالُ الْعِبَادِ فَقَدْ حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا مَرْوَانُ بْنُ مُعَاوِيَةَ، حَدَّثَنَا أَبُو مَالِكٍ عَنْ رَبِيعِ بْنِ جِرَاشٍ، عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ يَصْنَعُ كُلَّ صَانِعٍ وَصَنَعَتَهُ» وَتَلَا بَعْضُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ: { وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ } [الصفات: ٩٦] ، فَأَخْبَرَ أَنَّ الصَّنَاعَاتِ وَأَهْلَهَا مَخْلُوقَةٌ، وَقَالَ حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ، حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ، عَنْ الْأَعْمَشِ، عَنْ شَقِيقٍ، عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ كُلَّ صَانِعٍ وَصَنَعَتَهُ، إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ صَانِعَ الْحَزْمِ وَصَنَعَتَهُ» رَوَاهُ وَكَيْعٌ عَنْ الْأَعْمَشِ انْتَهَى

وقوله تعالى: {فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ} [البقرة: ٣٨] أي أخذ به تصديقاً بأخباره، وامثالاً لأحكامه؛ وأضافه الله لنفسه لأنه الذي شرعه لعباده، ولأنه موصل إليه.. وفي هذا رد على الجبرية فإن للعباد أفعالاً وقدرة واستطاعة على ما تقدم.

قوله تعالى {فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة: ٣٨] قال السعدي (ص: ٥٠): قوله: {فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}، وفي الآية الأخرى: {فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى}.

فرتب على اتباع هداه أربعة أشياء:

نفي الخوف والحزن والفرق بينهما، أن المكروه إن كان قد مضى، أحدث الحزن، وإن كان منتظراً، أحدث الخوف، فنفاهما عن اتباع هداه وإذا انتفيا، حصل ضدتهما، وهو الأمن التام، وكذلك نفي الضلال والشقاء عن اتباع هداه وإذا انتفيا ثبت ضدتهما، وهو الهدى والسعادة، فمن اتبع هداه، حصل له الأمن والسعادة الدنيوية والأخروية والهدى، وانتفى عنه كل مكروه، من الخوف، والحزن، والضلال، والشقاء، فحصل له المرغوب، واندفع عنه المرهوب، وهذا عكس من لم يتبع هداه، فكفر به، وكذب بآياته.

ف { أولئك أصحاب النار } أي: الملازمون لها، ملازمة الصاحب لصاحبه، والغريم لغريمه، { هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } لا يخرجون منها، ولا يفتر عنهم العذاب ولا هم ينصرون.

وفي هذه الآيات وما أشبهها، انقسام الخلق من الجن والإنس، إلى أهل السعادة، وأهل الشقاوة، وفيها صفات الفريقين والأعمال الموجبة لذلك، وأن الجن كالإنس في الثواب والعقاب، كما أنهم مثلهم، في الأمر والنهي.

قال ابن كثير (١ / ٢٤٠): يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّا أَنْذَرَ بِهِ آدَمَ وَزَوْجَتَهُ وَإِبْلِيسَ حَتَّى أَهْبَطَهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ، وَالْمُرَادُ الدَّرِيَّةُ: أَنَّهُ سَيُنزِلُ الْكُتُبَ، وَيَبْعَثُ الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ؛ كَمَا قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: الْهُدَى الْأَنْبِيَاءُ وَالرُّسُلُ وَالْبَيَانُ، وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: الْهُدَى مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَقَالَ الْحَسَنُ: الْهُدَى الْقُرْآنُ. وَهَذَا الْقَوْلَانِ صَحِيحَانِ، وَقَوْلُ أَبِي الْعَالِيَةِ أَعَمُّ.

{ فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ } أي: مَنْ أَقْبَلَ عَلَى مَا أَنْزَلْتُ بِهِ الْكُتُبَ وَأَرْسَلْتُ بِهِ الرُّسُلَ { فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ } أي: فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ مِنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ { وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } عَلَى مَا فَاتَهُمْ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا، كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ طه: { قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى } [طه: ١٢٣] قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَلَا يَضِلُّ فِي الدُّنْيَا وَلَا يَشْقَى فِي الْآخِرَةِ. { وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى } [طه: ١٢٤] كَمَا قَالَ هَاهُنَا: { وَالَّذِينَ

كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ { أَي: مُخَلَّدُونَ فِيهَا، لَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهَا، وَلَا مَحِيصَ.

وَقَدْ أوردَ ابْنُ جَرِيرٍ، رَحِمَهُ اللهُ، هَاهُنَا حَدِيثًا سَاقَهُ مِنْ طَرِيقَيْنِ، عَنْ أَبِي مَسْلَمَةَ سَعِيدِ بْنِ يَزِيدٍ، عَنْ أَبِي نَضْرَةَ الْمُنْذِرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ قُطَيْبَةَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ - وَاسْمُهُ سَعْدُ بْنُ مَالِكِ بْنِ سِنَانَ الْخُدْرِي - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ، لَكِنَّ أَقْوَامًا أَصَابَتْهُمْ النَّارُ بِخَطَايَاهُمْ، أَوْ بِذُنُوبِهِمْ فَأَمَاتَتْهُمْ إِمَاتَةً، حَتَّى إِذَا صَارُوا فَحَمًا أَدْنَ فِي الشَّفَاعَةِ". وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ شُعْبَةَ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بِهِ .

وَذَكَرَ هَذَا الْإِهْبَاطَ الثَّانِي لِمَا تَعَلَّقَ بِهِ مَا بَعْدَهُ مِنَ الْمَعْنَى الْمُغَايِرِ لِلأَوَّلِ، وَزَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ تَأْكِيدٌ وَتَكْرِيرٌ، كَمَا تَقُولُ: قُمْ قُمْ، وَقَالَ آخَرُونَ: بَلِ الْإِهْبَاطُ الأَوَّلُ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَالثَّانِي مِنَ سَمَاءِ الدُّنْيَا إِلَى الأَرْضِ، وَالصَّحِيحُ الأَوَّلُ، وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِأَسْرَارِ كِتَابِهِ أَنْتَهَى

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} (البقرة: ٣٩)

قوله: {والذين} معطوف على قوله {فمن تبع هداي}، وقوله {كفروا} تقدم معنى الكفر في أول سورة البقرة والمراد به هنا من أعرض عن دين الله تعالى علما وعملا وقوله: {وكذبوا} الكذب ضد الصدق فمعناه لم يصدقوا بما جاء من عند الله تعالى من الوحي والهدى، والكذب من عظيم الذنوب سواء كان من قولهم بكذبهم على الله تعالى ورسله، أو كان من فعلهم بردهم للصدق الذي جاء به الرسل صلوات الله عليهم قال تعالى: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٣٢) وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} [الزمر: ٣٢، ٣٣]

قال العثيمين (١ / ١٤٠): قوله تعالى: {الذين كفروا} مبتدأ؛ وجملة: {أولئك أصحاب النار} خبر المبتدأ؛ وجملة: {هم فيها خالدون} في موضع نصب على الحال. يعني حال كونهم خالدين. ويجوز أن تكون استئنافية لبيان ما لهم.

قوله تعالى: {الذين كفروا} أي بالأمر؛ {وكذبوا} أي بالخبر؛ فعندهم جحود، واستكبار؛ وهذان هما الأساسان للكفر؛ لأن الكفر يدور على شيئين: إما استكبار؛ وإما جحود؛ فكفر إبليس: كفر استكبار؛ لأنه مقر

بالله، لكنه استكبر؛ وكفر فرعون، وقومه: كفر جحود؛ لقوله تعالى: **{وجحدوا بها}** : فهم في ألسنتهم مكذبون، لكنهم في نفوسهم مصدقون؛ لقوله تعالى: **{واستيقنتها أنفسهم}** [النمل: ١٤] ..

فقوله تعالى: **{والذين كفروا}** أي كفروا بالله، فاستكبروا عن طاعته، ولم ينقادوا لها؛ **{وكذبوا بآياتنا}** أي بالآيات الشرعية؛ وإن انضاف إلى ذلك الآيات الكونية زاد الأمر شدة؛ لكن المهم الآيات الشرعية؛ لأن من المكذبين الكافرين من آمنوا بالآيات الكونية دون الشرعية؛ فمثلاً كفار قريش مؤمنون بالآيات الكونية مقرون بأن الله خالق السموات، والأرض، وأنه المحيي، وأنه المميت، وأنه المدبر لجميع الأمور؛ لكنهم كفروا بالآيات الشرعية.

قوله تعالى: **{أولئك}** أي المذكورون؛ وأشار إليهم بإشارة البعيد لانحطاط رتبتهم لا ترفيعاً لهم، وتعلية لهم؛ **{أصحاب النار}** أي الملازمون لها؛ ولهذا لا تأتي "أصحاب النار" إلا في الكفار؛ لا تأتي في المؤمنين أبداً؛ لأن المراد الذين هم مصاحبون لها؛ والمصاحب لا بد أن يلازم من صاحبه؛ **{هم فيها خالدون}** أي ماكتون؛ والمراد بذلك المكث، الدائم الأبدي؛ ودليل ذلك ثلاث آيات في كتاب الله؛ آية في النساء، وآية في الأحزاب، وآية في الجن؛ أما آية النساء فقوله تعالى: **{إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً*}** إلا طريق جهنم خالدين فيها

أبداً} [النساء: ١٦٨، ١٦٩] ؛ وأما آية الأحزاب فقوله تعالى: {إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً* خالدين فيها أبداً} [الأحزاب: ٦٤، ٦٥] ؛ وأما آية الجن فقوله تعالى: {ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً} [الجن: ٢٣] . انتهى

وقد تقدم الكلام على وجود الجنة والنار الآن وانهما مخلوقتان وزد على ذلك أنهما لا يفنيان أبداً ولا يبیدان لأن الله تعالى خلقهما للبقاء لا للفناء، والجنة في السماء لما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: فعن أنسٍ: أَنَّ أُمَّ الرَّبِيعِ بِنْتَ الْبَرَاءِ، وَهِيَ أُمُّ حَارِثَةَ بْنِ سُرَّاقَةَ أَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَقَدْ هَلَكَ حَارِثَةُ يَوْمَ بَدْرٍ وَهُوَ غَلَامٌ، أَصَابَهُ عَرَبٌ سَهْمٍ، وَفِي رِوَايَةٍ: سَهْمٌ غَرَبٌ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَدْ عَلِمْتَ مَوْعِعَ حَارِثَةَ مِنْ قَلْبِي، فَإِنْ كَانَ فِي الْجَنَّةِ لَمْ أَبْكِ عَلَيْهِ، وَفِي رِوَايَةٍ: صَبْرْتُ وَاحْتَسَبْتُ، وَإِلَّا سَوْفَ تَرَى مَا أَصْنَعُ، وَفِي رِوَايَةٍ: اجْتَهَدْتُ عَلَيْهِ فِي الْبُكَاءِ، فَقَالَ لَهَا: يَا أُمَّ حَارِثَةَ أَوْ هَبِلْتِ؟ أَجِنَّةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ؟ إِنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَإِنَّهُ فِي الْفَرْدُوسِ الْأَعْلَى."

والنار في الأرض السفلى ففي حديث البراء رضي الله عنه عند أحمد (١٨٥٣٤): في قصة المحتضر ولعله يأتي بطوله إن شاء الله والشاهد منه هنا: فَيَصْعَدُونَ بِهَا -أي روح الكافر-، فَلَا يَمْرُؤُونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنْ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْحَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانٌ بِنُ فُلَانٍ بِأَقْبَحِ

أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمِّي بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا،
 فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ، فَلَا يُفْتَحُ لَهُ "، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { لَا
 تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلْبَسَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ
 الْحِيَاظِ } [الأعراف: ٤٠] فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: " اَكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سَجِّينِ
 فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرَحًا.

فوائد هذه القصة

جعل الله تعالى القرآن مباركا قال تعالى: { وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ } [الأنعام: ٩٢] { وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ } [الأنبياء: ٥٠] { كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ } [ص: ٢٩] { وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } [الأنعام: ١٥٥] قال ابن القيم في الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (ص: ٨٥):

فَإِنَّ الرَّبَّ هُوَ الَّذِي يُبَارِكُ وَحْدَهُ، وَالْبَرَكَةُ كُلُّهَا مِنْهُ، وَكُلُّ مَا نُسِبَ إِلَيْهِ مُبَارَكٌ، فَكَلَامُهُ مُبَارَكٌ، وَرَسُولُهُ مُبَارَكٌ، وَعَبْدُهُ الْمُؤْمِنُ النَّافِعُ لِخَلْقِهِ مُبَارَكٌ، وَبَيْتُهُ الْحَرَامُ مُبَارَكٌ، وَكَنَانَتُهُ مِنْ أَرْضِهِ، وَهِيَ الشَّامُ أَرْضُ الْبَرَكَةِ، وَصَفَهَا بِالْبَرَكَةِ فِي سِتِّ آيَاتٍ مِنْ كِتَابِهِ، فَلَا مُبَارَكَ إِلَّا هُوَ وَحْدَهُ، وَلَا مُبَارَكَ إِلَّا مَا نُسِبَ إِلَيْهِ، أَعْنِي إِلَى أُلُوهِيَّتِهِ وَحُبَّتِهِ وَرِضَاهُ، وَإِلَّا فَالْكَوْنُ كُلُّهُ مَنْسُوبٌ إِلَى رُبُوبِيَّتِهِ وَخَلْقِهِ، وَكُلُّ مَا بَاعَدَهُ مِنْ نَفْسِهِ مِنَ الْأَعْيَانِ وَالْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ فَلَا بَرَكَةَ فِيهِ، وَلَا خَيْرَ فِيهِ، وَكُلُّ مَا كَانَ مِنْهُ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ فَفِيهِ مِنَ الْبَرَكَةِ عَلَى حَسَبِ قُرْبِهِ مِنْهُ. انتهى

فمهما تكلم المفسرون تجدد عند التأمل والتحقيق أن الآيات المباركات دالة على معاني جلييلة من أمور ديننا غير ما ذكر وقد تكون هذه المعاني المذكورة بالمنطوق أو المفهوم مأخوذة بالتضمن أو الإلزام ونعلم ذلك بتدبر

القرآن وتعقله وتفهمه قال ابن القيم رحمه الله في مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١ / ٤٤٩ - ٥٥١)

وَأَمَّا التَّأَمُّلُ فِي الْقُرْآنِ فَهُوَ تَحْدِيقُ نَاطِرِ الْقَلْبِ إِلَى مَعَانِيهِ، وَجَمْعُ الْفِكْرِ عَلَى تَدَبُّرِهِ وَتَعَقُّلِهِ، وَهُوَ الْمَقْصُودُ بِإِنزَالِهِ، لَا مُجَرَّدُ تِلَاوَتِهِ بِلَا فَهْمٍ وَلَا تَدَبُّرٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى { كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ } [ص: ٢٩] وَقَالَ تَعَالَى { أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا } [محمد: ٢٤] وَقَالَ تَعَالَى { أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ } [المؤمنون: ٦٨] وَقَالَ تَعَالَى { إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } [الزخرف: ٣] وَقَالَ الْحَسَنُ: نَزَلَ الْقُرْآنُ لِيَتَدَبَّرَ وَيُعْمَلَ بِهِ. فَاتَّخَذُوا تِلَاوَتَهُ عَمَلًا.

فَلَيْسَ شَيْءٌ أَنْفَعَ لِلْعَبْدِ فِي مَعَاشِهِ وَمَعَادِهِ، وَأَقْرَبَ إِلَى نَجَاتِهِ مِنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ، وَإِطَالَةِ التَّأَمُّلِ فِيهِ، وَجَمْعِ الْفِكْرِ عَلَى مَعَانِي آيَاتِهِ، فَإِنَّهَا تُطْلِعُ الْعَبْدَ عَلَى مَعَالِمِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ بِحَدَافِيرِهِمَا، وَعَلَى طُرُقَاتِهِمَا وَأَسْبَابِهِمَا وَغَايَاتِهِمَا وَثَمَرَاتِهِمَا، وَمَالَ أَهْلِهِمَا، وَتَثَلُّ فِي يَدِهِ مَفَاتِيحَ كُنُوزِ السَّعَادَةِ وَالْعُلُومِ النَّافِعَةِ، وَتُثَبِّتُ قَوَاعِدَ الْإِيمَانِ فِي قَلْبِهِ، وَتُشَيِّدُ بُنْيَانَهُ وَتُوطِدُ أَرْكَانَهُ، وَتُثْرِيهِ صُورَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ فِي قَلْبِهِ، وَتُحْضِرُهُ بَيْنَ الْأُمَمِ، وَتُثْرِيهِ أَيَّامَ اللَّهِ فِيهِمْ، وَتُبَصِّرُهُ مَوَاقِعَ الْعِبَرِ، وَتُشْهِدُهُ عَدْلَ اللَّهِ وَفَضْلَهُ، وَتُعَرِّفُهُ ذَاتَهُ، وَأَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالَهُ، وَمَا يُحِبُّهُ وَمَا يُبْغِضُهُ، وَصِرَاطَهُ الْمَوْصِلَ إِلَيْهِ، وَمَا لِسَالِكِيهِ بَعْدَ الْوُصُولِ وَالْقُدُومِ عَلَيْهِ، وَقَوَاطِعِ الطَّرِيقِ وَأَفَاتِحِهَا، وَتُعَرِّفُهُ النَّفْسَ

وَصِفَاتِهَا، وَمُفْسِدَاتِ الْأَعْمَالِ وَمُصَحِّحَاتِهَا وَتُعَرِّفُهُ طَرِيقَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ وَأَعْمَاهُمْ، وَأَحْوَاهُمْ وَسِيمَاهُمْ، وَمَرَاتِبِ أَهْلِ السَّعَادَةِ وَأَهْلِ الشَّقَاوَةِ، وَأَقْسَامِ الْخَلْقِ وَاجْتِمَاعَهُمْ فِيَمَا يَجْتَمِعُونَ فِيهِ، وَافْتِرَاقَهُمْ فِيَمَا يَفْتَرِقُونَ فِيهِ. وَبِالْجُمْلَةِ تُعَرِّفُهُ الرَّبَّ الْمَدْعُوَّ إِلَيْهِ، وَطَرِيقَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ، وَمَا لَهُ مِنَ الْكِرَامَةِ إِذَا قَدِمَ عَلَيْهِ.

وَتُعَرِّفُهُ فِي مُقَابِلِ ذَلِكَ ثَلَاثَةَ أُخْرَى: مَا يَدْعُو إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ، وَالطَّرِيقَ الْمُوَصِّلَةَ إِلَيْهِ، وَمَا لِلْمُسْتَجِيبِ لِدَعْوَتِهِ مِنَ الْإِهَانَةِ وَالْعَذَابِ بَعْدَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ.

فَهَذِهِ سِتَّةُ أُمُورٍ ضَرُورِيٍّ لِلْعَبْدِ مَعْرِفَتُهَا، وَمُشَاهَدَتُهَا وَمُطَالَعَتُهَا، فَتُشْهِدُهُ الْأَخِرَةَ حَتَّى كَانَتْ فِيهَا، وَتَعْيِيْبُهُ عَنِ الدُّنْيَا حَتَّى كَانَتْ لَيْسَ فِيهَا، وَتُمَيِّزُ لَهُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ فِي كُلِّ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ الْعَالَمُ. فَتُرِيهِ الْحَقَّ حَقًّا، وَالْبَاطِلَ بَاطِلًا، وَتُعْطِيهِ فُرْقَانًا وَنُورًا يُفَرِّقُ بِهِ بَيْنَ الْهُدَى وَالضَّلَالِ، وَالْغَيِّ وَالرَّشَادِ، وَتُعْطِيهِ قُوَّةً فِي قَلْبِهِ، وَحَيَاةً، وَسَعَةً وَانْشِرَاحًا وَبَهْجَةً وَسُرُورًا، فَيَصِيرُ فِي شَأْنِ النَّاسِ فِي شَأْنٍ آخَرَ.

فَإِنَّ مَعَايِي الْقُرْآنِ دَائِرَةٌ عَلَى التَّوْحِيدِ وَبَرَآئِيْنِهِ، وَالْعِلْمِ بِاللَّهِ وَمَا لَهُ مِنْ أَوْصَافِ الْكَمَالِ، وَمَا يُنَزِّهُهُ عَنْهُ مِنْ سِمَاتِ النَّقْصِ، وَعَلَى الْإِيْمَانِ بِالرُّسُلِ، وَذَكَرِ بَرَآئِيْنِ صِدْقِهِمْ، وَأَدِلَّةَ صِحَّةِ نُبُوَّتِهِمْ، وَالتَّعْرِيفِ بِحُقُوقِهِمْ، وَحُقُوقِ مُرْسَلِيهِمْ، وَعَلَى الْإِيْمَانِ بِمَلَائِكَتِهِ، وَهُمْ رُسُلُهُ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ، وَتَدْبِيرِهِمْ

الْأُمُورَ بِإِذْنِهِ وَمَشِيئَتِهِ، وَمَا جُعِلُوا عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ الْعَالَمِ الْعُلُويِّ وَالسُّفْلِيِّ، وَمَا يَخْتَصُّ بِالنَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ مِنْهُمْ، مِنْ حِينَ يَسْتَقِرُّ فِي رَحِمِ أُمِّهِ إِلَى يَوْمِ يُوْفَى رَبَّهُ وَيَقْدَمُ عَلَيْهِ، وَعَلَى الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا أَعَدَّ اللَّهُ فِيهِ لِأَوْلِيَائِهِ مِنْ دَارِ النَّعِيمِ الْمُطْلَقِ الَّتِي لَا يَشْعُرُونَ فِيهَا بِالْأَلَمِ وَلَا نَكَدٍ وَتَنْغِيصٍ، وَمَا أَعَدَّ لِأَعْدَائِهِ مِنْ دَارِ الْعِقَابِ الْوَيْلِ الَّتِي لَا يُجَالِطُهَا سُرُورٌ وَلَا رَحَاءٌ وَلَا رَاحَةٌ وَلَا فَرْحٌ. وَتَفَاصِيلِ ذَلِكَ أَمَّمْ تَفْصِيلٍ وَأَبَيَّنَهُ، وَعَلَى تَفَاصِيلِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَالشَّرْعِ وَالْقَدْرِ، وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَالْمَوَاعِظِ وَالْعِبَرِ، وَالْقَصَصِ وَالْأَمْثَالِ، وَالْأَسْبَابِ وَالْحِكْمِ، وَالْمَبَادِيِ وَالْغَايَاتِ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ.

فَلَا تَزَالُ مَعَانِيهِ تُنْهَضُ الْعَبْدَ إِلَى رَبِّهِ بِالْوَعْدِ الْجَمِيلِ، وَتُحَذِّرُهُ وَتُخَوِّفُهُ بِوَعِيدِهِ مِنَ الْعَذَابِ الْوَيْلِ، وَتُحْتِئُهُ عَلَى التَّضَمُّرِ وَالتَّخْفِيفِ لِلِقَاءِ الْيَوْمِ الثَّقِيلِ، وَتَهْدِيهِ فِي ظُلْمِ الْأَرَاءِ وَالْمَذَاهِبِ إِلَى سَوَاءِ السَّبِيلِ، وَتَصُدُّهُ عَنِ اقْتِحَامِ طُرُقِ الْبِدْعِ وَالْأَضَالِيلِ وَتَبْعَتُهُ عَلَى الْإِزْدِيَادِ مِنَ النِّعَمِ بِشُكْرِ رَبِّهِ الْجَلِيلِ، وَتُبْصِرُهُ بِحُدُودِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَتُوقِفُهُ عَلَيْهَا لِغَلَا يَتَعَدَّهَا فَيَقَعَ فِي الْعَنَاءِ الطَّوِيلِ، وَتُثَبِّتُ قَلْبَهُ عَنِ الزَّيْغِ وَالْمَيْلِ عَنِ الْحَقِّ وَالتَّحْوِيلِ، وَتُسَهِّلُ عَلَيْهِ الْأُمُورَ الصَّعَابَ وَالْعَقَبَاتِ الشَّاقَّةَ غَايَةَ التَّسْهِيلِ، وَتُنَادِيهِ كُلَّمَا فَتَرَتْ عَزَمَاتُهُ وَوَنَى فِي سَيْرِهِ تَقَدَّمَ الرُّكْبُ وَفَاتَكَ الدَّلِيلُ، فَاللِّحَاقَ اللَّحَاقَ، وَالرَّحِيلَ الرَّحِيلَ، وَتَحْدُو بِهِ وَتَسِيرُ أَمَامَهُ سَيْرَ الدَّلِيلِ، وَكُلَّمَا خَرَجَ عَلَيْهِ

كَمِينٌ مِنْ كَمَائِنِ الْعَدُوِّ، أَوْ قَاطِعٌ مِنْ قُطَاعِ الطَّرِيقِ نَادَتْهُ: الْحَذَرَ الْحَذَرَ!
فَاعْتَصِمَ بِاللَّهِ، وَاسْتَعَانَ بِهِ، وَقَالَ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

وَفِي تَأْمُلِ الْقُرْآنِ وَتَدَبُّرِهِ، وَتَفْهَمِهِ، أَضْعَافٌ أَضْعَافٍ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْحِكْمِ
وَالْفَوَائِدِ.

وَبِالْجُمْلَةِ فَهُوَ أَعْظَمُ الْكُنُوزِ، طَلَسَّمُهُ الْغَوْصُ بِالْفِكْرِ إِلَى قَرَارِ مَعَانِيهِ.

نَزَّةٌ فُؤَادَكَ عَنْ سِوَى رَوْضَاتِهِ ... فَرِيَاضُهُ حِلٌّ لِكُلِّ مَنْزَرِهِ

وَالْفَهْمُ طَلَسَّمٌ لِكَنْزِ عُلُومِهِ ... فَاقْصِدْ إِلَى الطَّلَسِّمِ تَحْظُ بِكَنْزِهِ

لَا تَخْشَ مِنْ بَدَعٍ لَهُمْ وَحَوَادِثٍ ... مَا دُمْتَ فِي كَنْفِ الْكِتَابِ وَحِرْزِهِ

مَنْ كَانَ حَارِسَهُ الْكِتَابُ وَدِرْعَهُ ... لَمْ يَخْشَ مِنْ طَعْنِ الْعَدُوِّ وَوَحْزِهِ

لَا تَخْشَ مِنْ شُبُهَاتِهِمْ وَاحْمِلْ إِذَا ... مَا قَابَلْتِكَ بِنَصْرِهِ وَبِعِزِّهِ

وَاللَّهُ مَا هَابَ امْرُؤٌ شُبُهَاتِهِمْ ... إِلَّا لِضَعْفِ الْقَلْبِ مِنْهُ وَعَجْزِهِ

يَا وَيْحَ تَيْسٍ ظَالِعٍ يَبْغِي مُسَا ... بَقَّةَ الْهَزْبِ بِعَدُوهِ وَبِجَمْرِهِ

وَدُخَانَ زَبَلٍ يَرْتَقِي لِلشَّمْسِ يَسْ ... تُرْ عَيْنَهَا لَمَّا سَرَى فِي أَرِّهِ

وَجَبَانَ قَلْبٍ أَعْزَلَ قَدْ رَامَ يَأْسٍ ... رُ فَارِسًا شَاكِي السَّلَاحِ بِهَزِّهِ. انتهى

وسأذكر هنا ما يسره الله تعالى وفتح به علي لا على سبيل الحصر ولكن
من باب بيان بعض ما يحتاجه المكلف وبالله التوفيق.

الأولى: فيها بيان وتضمن لأركان الإيمان الستة التي جمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث عمر رضي الله عنه قال: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخْذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ، وَيُصَدِّقُهُ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، واتفق عليه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه كان النبي صلى الله عليه وسلم بارزاً يوماً للناس، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: مَا الْإِيمَانُ؟ قَالَ: «الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَبِلِقَائِهِ، وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ». قَالَ: مَا الْإِسْلَامُ؟ قَالَ: " الْإِسْلَامُ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ، وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ ". قَالَ: مَا الْإِحْسَانُ؟ قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ

كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، ومن أول ما تضمنته هذه الآيات الإيمان بالله تعالى حيث وفيها ما يتعلق بأقسام التوحيد الثلاثة توحيد الربوبية والإلهية والأسماء والصفات التي هي حق الله تعالى على العباد ففي الصحيحين عن مُعَاذِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى جِمَارٍ يُقَالُ لَهُ عُفَيْرٌ، فَقَالَ: «يَا مُعَاذُ، هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ؟»، قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ؟ قَالَ: «لَا تُبَشِّرُهُمْ، فَيَتَّكِلُوا» ويؤخذ هذا من مواطن من هذه القصة فمنها قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} فيه بيان للتوحيد الذي هو حق الله على العبيد وهذا ظاهر في مواطن.

فقوله: {ربك} دليل على توحيد الربوبية وهو إفراد الله بالخلق والملك والتدبير وإن شئت أن تقول إفراد الله بأفعاله، وهذا النوع من التوحيد مستلزم للنوع الثاني من التوحيد وهو توحيد الإلهية وهو إفراد الله بأفعال المكلفين، عن شئت أن تقول إفراد الله بالعبادة وهذا التوحيد من أجله أنزلت الكتب وأرسلت الرسل ووجدت الخليفة كما هو معلوم والإقرار بتوحيد الربوبية وحده لا يُدخل في الإسلام، والنوع الثالث من التوحيد هو

توحيد الأسماء والصفات وقد تضمنت هذه الآيات مجموعة من الأسماء والصفات فمنها إثبات اسم الرب والتواب والرحيم وإثبات صفة الكلام وغير ذلك.

والإيمان بالملائكة مأخوذ من التصريح بذكرهم والخطاب الذي جرى بينهم وبين ربهم وبيان ما هم عليه من جميل فعالهم وعظيم خصالهم والإيمان بهم يزيد الإيمان إذا أن العبد ليس بشيء إلى ما سخرهم الله تعالى عليه من الطاعة والمداومة عليها فهم سلام الله تعالى عليهم المسبحون والصابغون والذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون خلهم الله تعالى وسخرهم فيما سخرهم من أمر العالم العلوي والسفلي فهم الموكلون بالقطر وبكتابة أعمال بني آدم والملائكة خلق كثير لا يعلم عددهم إلا الذي خلقهم: (وما يعلم جنود ربك إلا هو) [المدثر: ٣١].

وإذا أردت أن تعلم كثرتهم، فاسمع ما قاله جبريل عن البيت المعمور، عندما سأله الرسول صلى الله عليه وسلم عنه: (هذا البيت المعمور يصلي فيه في كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه آخر ما عليهم).

وفي صحيح مسلم عن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها) وقد رجح بعض أهل العلم في هذا الحديث الوقف ومع ذلك سيكون من الموقوف الذي له حكم الرفع إذ لا مجال للعقل في مثل هذا.

وإذا تأملت النصوص الواردة في الملائكة التي تقوم على الإنسان علمت مدى كثرتهم، فهناك ملائكة موكلون بالنطفة، وملائكة موكلة بكتابة أعمال المكلفين، وملائكة حفظه، وقرين ملكي هدايته وإرشاده.

فما بالك بالملائكة الموكلة بالقطر حتى روي في بعض الآثار أن مع كل قطرة ملكا وهم خزنة الجنة والنار وليس المجال مجال بسط وإنما إشارة إلى ما دلت عليه الآيات.

ووما دلت عليه من أركان الإيمان بالإيمان بالكتب المنزلة من الله تعالى وهذا مأخوذ من قوله تعالى: {فإما يأتينكم مني هدى} ومنه ما أنزله الله تعالى من الوحي على رسله والكتب التي أنزلها تعالى كثيرة بكثرة الأنبياء والمرسلين فقد قال تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الحديد: ٢٥] ففي هذه الآية دليل على أن مع كل رسول كتاب.

وفيه الإشارة إلى الإيمان بالرسول إذ هم الذين يوحي إليهم الله تعالى بالهدى كما قال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} [النحل: ٣٦] ثم إن آدم عليه السلام كان نبيا ففي صحيح ابن حبان (٦١٩٠) عن أبي أمامة، أَنَّ رَجُلًا، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْبِيَّ كَانَ آدَمُ؟ قَالَ: «نَعَمْ، مُكَلَّمٌ»، قَالَ: فَكَمْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نُوحٍ؟ قَالَ:

«عَشْرَةُ قُرُونٍ» ورسَل اللهُ وأنبيائه كثير قال تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ} [غافر: ٧٨] قال ابن عطية في المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١٣٧ / ٢)

وقوله تعالى: وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ يقتضي كثرة الأنبياء دون تحديد بعدد، وقد قال تعالى وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ [فاطر: ٢٤] وقال تعالى: وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا [الفرقان: ٣٨] وما يذكر من عدد الأنبياء فغير صحيح، الله أعلم بعدتهم، صلى الله عليهم. انتهى

وفيها بيان الإيمان باليوم الآخر وهذا مأخوذ من قوله تعالى: {وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ} [البقرة: ٣٦] ومن قوله: {فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا يَخَوْفُ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة: ٣٨، ٣٩] واليوم الآخر داخل فيه القبر وما يليه فعن هانئ مولى عثمان، قال:

كَانَ عُمَانُ إِذَا وَقَفَ عَلَى قَبْرِ بَكِي، حَتَّى يُبَلِّغَ لِحَيْتَهُ، فَقِيلَ لَهُ: تَذَكَّرُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ فَلَا تَبْكِي، وَتَبْكِي مِنْ هَذَا؟ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: " الْقَبْرُ أَوَّلُ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ، فَإِنْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ، فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ ". قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " مَا رَأَيْتُ مَنْظَرًا قَطُّ إِلَّا وَالْقَبْرُ أَفْضَعُ مِنْهُ " أخرجه أحمد ط الرسالة (١ / ٥٠٣) وقد تقدم الكلام عليه في أول السورة والحمد لله.

ومنها الإيمان بالقدر وهذا مأخوذ من تحقق ما قصه الله تعالى من شأن آدم عليه السلام وبيان أن الله بكل شيء عليم والقدر علم الله وسره ومراتبه أربع الأولى العلم: ودليلها في هذا الموطن: { قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ } [البقرة: ٣٠] وقوله تعالى: { أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ } [البقرة: ٣٣] وهذا دال على علم الله تعالى بجميع الموجودات وأنه لا يخرج عن علمه شيء من صغيرها أو كبيرها.

الثانية الكتابة: وأدلتها كثيرة ويمكن استنباطها من هذا الموطن من قوله تعالى { وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا } [البقرة: ٣٥] مع ما هو معلوم من أن الله تعالى كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف عام وعرشه على الماء كما تقدم من حديث ابن عمرو رضي الله عنه أخرجه مسلم.

المرتبة الثالثة المشيئة وأنه لا يقع في هذا العالم إلا ما شاءه الله تعالى وقدره فوجود آدم وخلق إبليس وكل ما ذكره الله من شأنهما كان بمشيئته تعالى قال تعالى: { وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ } [الأنعام: ١٣٧] وقال تعالى: { وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ } [المائدة: ٤٨].

الرابعة الخلق فالله تعالى خالق كل شيء كما أخبر بذلك عن نفسه ومن جملة ذلك خلق إبليس وعمله وخلق آدم وعمله على ما تقدم بيانه وقد تقد حديث أبي هريرة رضي الله عنه في قصة موسى مع آدم عليهما السلام وفيه أتومني على شيء قدره الله عليّ قبل أن يخلق السموات والأرض فحج آدم موسى.

الثانية: فيها بيان فضل الملائكة عليهم السلام وما هم عليه من العلم والمبادرة إلى طاعة الله على ما هو ظاهر في الآية من أوجه الأول كونهم استنبطوا وجود الفساد في الأرض من ذرية هذا الخليفة الثاني رجوعهم عن اعتراضهم حين أقام الله عليهم الحجة بعلم آدم عليه السلام الثالث المبادرة إلى السجود لآدم عليه السلام بخلاف إبليس اللعين.

الثالثة: فيها ربط الأمور بأسبابها فالله تعالى ذكره لا يعجزه شيء لكال علمه وقدرته قال تعالى: **{ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا }** [فاطر: ٤٤] وقد تقدم بيان خلق آدم ولو أراد أن يخلقه بقوله كن لكان قال تعالى: **{ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }** [البقرة: ١١٧] وقال تعالى: **{ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }** [النحل: ٤٠].

الرابعة: فيها بيان أن الطاعات سبب لصلاح البلاد والعباد كما أن المعاصي سبب لفساد البلاد والعباد وهذا مأخوذ من قوله تعالى { **أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ** } [البقرة: ٣٠] وقد قال تعالى: { **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** } [الروم: ٤١].

قال ابن القيم في الجواب الكافي (ص: ٦٤)

فَصْلٌ

الدُّنُوبُ تُحَدِّثُ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ

وَمِنْ آثَارِ الدُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي: أَنَّهَا تُحَدِّثُ فِي الْأَرْضِ أَنْوَاعًا مِنَ الْفَسَادِ فِي الْمِيَاهِ وَالْهَوَاءِ، وَالزَّرْعِ، وَالثَّمَارِ، وَالْمَسَاكِينِ، قَالَ تَعَالَى: { **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** } [سُورَةُ الرُّومِ: ٤١].

قَالَ مُجَاهِدٌ: إِذَا وَلِيَ الظَّالِمُ سَعَى بِالظُّلْمِ وَالْفَسَادِ فَيَحْسِبُ اللَّهُ بِذَلِكَ الْقَطْرَ، فَيَهْلِكُ الْحَرْثُ وَالنَّسْلُ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ، ثُمَّ قَرَأَ: { **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** } [سُورَةُ الرُّومِ: ٤١].

ثُمَّ قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ مَا هُوَ بِحَرْكُم هَذَا، وَلَكِنْ كُلُّ قَرْيَةٍ عَلَى مَاءٍ جَارٍ فَهُوَ بَحْرٌ،

وَقَالَ عِكْرِمَةُ: ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، أَمَا إِنِّي لَا أَقُولُ لَكُمْ: بِحَرْكُم هَذَا، وَلَكِنْ كُلُّ قَرْيَةٍ عَلَى مَاءٍ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: أَمَا الْبَرُّ فَأَهْلُ الْعَمُودِ، وَأَمَا الْبَحْرُ فَأَهْلُ الْقَرْيِ وَالرِّيفِ، قُلْتُ: وَقَدْ سَمَى اللَّهُ تَعَالَى الْمَاءَ الْعَذْبَ بَحْرًا، فَقَالَ: { وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ } [سُورَةُ فَاطِرٍ: ١٢] . وَلَيْسَ فِي الْعَالَمِ بَحْرٌ حُلُوٌّ وَقِفْ، وَإِنَّمَا هِيَ الْأَنْهَارُ الْجَارِيَةُ، وَالْبَحْرُ الْمَالِحُ هُوَ السَّاكِنُ، فَسَمَى الْقَرْيَ الَّتِي عَلَيْهَا الْمِيَاهُ الْجَارِيَةُ بِاسْمِ تِلْكَ الْمِيَاهِ.

وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ { ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ } قَالَ: الدُّنُوبُ.

قُلْتُ: أَرَادَ أَنَّ الدُّنُوبَ سَبَبُ الْفَسَادِ الَّذِي ظَهَرَ، وَإِنْ أَرَادَ أَنَّ الْفَسَادَ الَّذِي ظَهَرَ هُوَ الدُّنُوبُ نَفْسُهَا فَتَكُونُ اللَّامُ فِي قَوْلِهِ: { لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا } لَامُ الْعَاقِبَةِ وَالتَّعْلِيلِ، وَعَلَى الْأَوَّلِ فَالْمُرَادُ بِالْفَسَادِ: النَّقْصُ وَالشَّرُّ وَالْآلَامُ الَّتِي يُحْدِثُهَا اللَّهُ فِي الْأَرْضِ عِنْدَ مَعَاصِي الْعِبَادِ، فَكَلَّمَا أَحَدُثُوا ذَنْبًا أَحَدَثَ اللَّهُ لَهُمْ عُقُوبَةً، كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: كَلَّمَا أَحَدَثْتُمْ ذَنْبًا أَحَدَثَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ سُلْطَانِهِ عُقُوبَةً.

وَالظَّاهِرُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّ الْفَسَادَ الْمُرَادَ بِهِ الذُّنُوبُ وَمُوجِبَاتُهَا، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: {لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا} فَهَذَا حَالُنَا، وَإِنَّمَا أَذَقْنَا الشَّيْءَ الْيَسِيرَ مِنْ أَعْمَالِنَا، وَلَوْ أَذَقْنَا كُلَّ أَعْمَالِنَا لَمَا تَرَكَ عَلَيَّ ظَهْرَهَا مِنْ دَابَّةٍ.

الْمَعَاصِي سَبَبُ الْخَسْفِ وَالزَّلَازِلِ

وَمِنْ تَأْثِيرِ مَعَاصِي اللَّهِ فِي الْأَرْضِ مَا يَحِلُّ بِهَا مِنَ الْخَسْفِ وَالزَّلَازِلِ، وَيَمْحَقُ بَرَكَتَهَا، وَقَدْ «مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَى دِيَارِ ثَمُودَ، فَمَنَعَهُمْ مِنْ دُخُولِ دِيَارِهِمْ إِلَّا وَهُمْ بَاكُونَ، وَمِنْ شُرْبِ مِيَاهِهِمْ، وَمِنْ الْإِسْتِسْقَاءِ مِنْ آبَارِهِمْ، حَتَّى أَمَرَ أَنْ لَا يُعْلَفَ الْعَجِينُ الَّذِي عُجِنَ بِمِيَاهِهِمْ لِلنَّوَاضِحِ، لِتَأْثِيرِ شُومِ الْمَعْصِيَةِ فِي الْمَاءِ»، وَكَذَلِكَ شُومُ تَأْثِيرِ الذُّنُوبِ فِي نَقْصِ الثَّمَارِ وَمَا تَرَى بِهِ مِنَ الْآفَاتِ.

وَقَدْ ذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ فِي ضِمْنِ حَدِيثٍ قَالَ: وَجَدْتُ فِي خَزَائِنِ بَعْضِ بَنِي أُمَيَّةَ، حِنْطَةً، الْحَبَّةُ بِقَدْرِ نَوَاةِ التَّمْرَةِ، وَهِيَ فِي صُرَّةٍ مَكْتُوبٌ عَلَيْهَا: كَانَ هَذَا يَنْبُتُ فِي زَمَنِ مِنَ الْعَدْلِ، وَكَثِيرٌ مِنْ هَذِهِ الْآفَاتِ أَحَدَتْهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِمَا أَحَدَتْ الْعِبَادُ مِنَ الذُّنُوبِ.

وَأَخْبَرَنِي جَمَاعَةٌ مِنْ شُيُوخِ الصَّحْرَاءِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْهَدُونَ الشَّمَارَ أَكْبَرَ مِمَّا هِيَ الْآنَ، وَكَثِيرٌ مِنْ هَذِهِ الْآفَاتِ الَّتِي تُصِيبُهَا لَمْ يَكُونُوا يَعْرِفُونَهَا، وَإِنَّمَا حَدَّثَتْ مِنْ قُرْبٍ.

تَأْثِيرُ الدُّنُوبِ فِي الصُّورِ

وَأَمَّا تَأْثِيرُ الدُّنُوبِ فِي الصُّورِ وَالْخَلْقِ، فَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ فِي جَامِعِهِ عَنْهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ: «خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ وَطُولُهُ فِي السَّمَاءِ سِتُونَ ذِرَاعًا، وَلَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ حَتَّى الْآنَ» .

فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ الْأَرْضَ مِنَ الظُّلْمَةِ وَالْخَوْنَةِ وَالْفَجْرَةِ، يُخْرِجُ عَبْدًا مِنْ عِبَادِهِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَيَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطًا كَمَا مِلَّتْ جَوْرًا، وَيَقْتُلُ الْمَسِيحَ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، وَيُقِيمُ الدِّينَ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ، وَتُخْرِجُ الْأَرْضَ بَرَكَاتِهَا، وَتَعُودُ كَمَا كَانَتْ، حَتَّى إِنَّ الْعِصَابَةَ مِنَ النَّاسِ لَيَأْكُلُونَ الرُّمَانَةَ وَيَسْتَنْظِلُونَ بِقِحْفِهَا، وَيَكُونُ الْعُنُقُودُ مِنَ الْعِنَبِ وَقَرَّ بَعِيرٍ، وَلَبْنُ اللَّفْحَةِ **الواحدة** لَتَكْفِي الْفِتَامَ مِنَ النَّاسِ، وَهَذِهِ لِأَنَّ الْأَرْضَ لَمَّا طَهَّرَتْ مِنَ الْمَعَاصِي ظَهَرَتْ فِيهَا آثَارُ الْبَرَكَةِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي حَقَّقَتْهَا الدُّنُوبُ وَالْكَفْرُ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْعُقُوبَاتِ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللَّهُ فِي الْأَرْضِ بَقِيَتْ آثَارُهَا سَارِيَةً فِي الْأَرْضِ تَطْلُبُ مَا يُشَاكِلُهَا مِنَ الدُّنُوبِ الَّتِي هِيَ آثَارُ تِلْكَ الْجَرَائِمِ الَّتِي عُدِّبَتْ بِهَا الْأُمَّمُ، فَهَذِهِ الْآثَارُ فِي الْأَرْضِ مِنْ

آثَارِ تِلْكَ الْعُقُوبَاتِ، كَمَا أَنَّ هَذِهِ الْمَعَاصِي مِنْ آثَارِ تِلْكَ الْجَرَائِمِ، فَتَنَاسَبَتْ كَلِمَةُ اللَّهِ وَحُكْمُهُ الْكَوْنِيُّ أَوَّلًا وَآخِرًا، وَكَانَ الْعَظِيمُ مِنَ الْعُقُوبَةِ لِلْعَظِيمِ مِنَ الْجِنَايَةِ، وَالْأَخْفُ لِلْأَخْفِ، وَهَكَذَا يَحْكُمُ سُبْحَانَهُ بَيْنَ خَلْقِهِ فِي دَارِ الْبَرْزَخِ وَدَارِ الْجَزَاءِ.

وَتَأَمَّلْ مُقَارَنَةَ الشَّيْطَانِ وَمَحَلَّهُ وَدَارَهُ، فَإِنَّهُ لَمَّا قَارَنَ الْعَبْدَ وَاسْتَوْلَى عَلَيْهِ نُزِعَتِ الْبَرَكَةُ مِنْ عُمُرِهِ، وَعَمَلِهِ، وَقَوْلِهِ، وَرِزْقِهِ، وَلَمَّا أَثَرَتْ طَاعَتُهُ فِي الْأَرْضِ مَا أَثَرَتْ، وَنُزِعَتِ الْبَرَكَةُ مِنْ كُلِّ مَحَلٍّ ظَهَرَتْ فِيهِ طَاعَتُهُ، وَكَذَلِكَ مَسَكْنُهُ لَمَّا كَانَ الْجَحِيمَ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ شَيْءٌ مِنَ الرُّوحِ وَالرَّحْمَةِ وَالْبَرَكَةِ.

انتهى

الخامسة: فيها بيان لأهمية الاستخلاف ووظيفة الخلفاء حيث جعل الله في الأرض خليفة يقوم بأمره، وقد تكلم عن هذه المسألة القرطبي رحمه الله في تفسيره (١ / ٢٦٤): هَذِهِ الْآيَةُ أَصْلٌ فِي نَصْبِ إِمَامٍ وَخَلِيفَةٍ يُسْمَعُ لَهُ وَيُطَاعُ، لِتَجْتَمَعَ بِهِ الْكَلِمَةُ، وَتَنْفُذُ بِهِ أَحْكَامُ الْخَلِيفَةِ. وَلَا خِلَافَ فِي وُجُوبِ ذَلِكَ بَيْنَ الْأُمَّةِ وَلَا بَيْنَ الْأُمَّةِ إِلَّا مَا رُوِيَ عَنِ الْأَصَمِّ _ كَانَ مِنْ رِوَايَاتِ الْمُعْتَزِلَةِ _ حَيْثُ كَانَ عَنِ الشَّرِيعَةِ أَصَمًّا، وَكَذَلِكَ كُلُّ مَنْ قَالَ بِقَوْلِهِ وَاتَّبَعَهُ عَلَى رَأْيِهِ وَمَذْهَبِهِ، قَالَ: إِنَّهَا غَيْرُ وَاجِبَةٍ فِي الدِّينِ بَلْ يَسُوعُ ذَلِكَ، وَأَنَّ الْأُمَّةَ مَتَى أَقَامُوا حَجْمَهُمْ وَجِهَادَهُمْ، وَتَنَاصَفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَبَدَلُوا الْحَقَّ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَقَسَمُوا الْغَنَائِمَ وَالْفَيْءَ وَالصَّدَقَاتِ عَلَى أَهْلِهَا، وَأَقَامُوا

الْحُدُودَ عَلَى مَنْ وَجَبَتْ عَلَيْهِ، أَجْزَأَهُمْ ذَلِكَ، وَلَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يُنْصَبُوا
 إِمَامًا يَتَوَلَّى ذَلِكَ. وَدَلِيلُنَا قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: "إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً"
 [البقرة: ٣٠]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: "يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ"،
 وَقَالَ: "وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي
 الْأَرْضِ" [النور: ٥٥] أَيْ يَجْعَلُ مِنْهُمْ خُلَفَاءَ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيِ.
 وَأَجْمَعَتِ الصَّحَابَةُ عَلَى تَقْدِيمِ الصَّدِيقِ بَعْدَ اخْتِلَافٍ وَقَعَ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ
 وَالْأَنْصَارِ فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ فِي التَّعْيِينِ، حَتَّى قَالَتِ الْأَنْصَارُ: مِنَّا أَمِيرٌ
 وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ، فَدَفَعَهُمْ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَالْمُهَاجِرُونَ عَنْ ذَلِكَ، وَقَالُوا لَهُمْ:
 إِنَّ الْعَرَبَ لَا تَدِينُ إِلَّا لِهَذَا الْحَيِّ مِنْ قُرَيْشٍ، وَرَوُّوا لَهُمُ الْخَبَرَ فِي ذَلِكَ،
 فَارْجَعُوا وَأَطَاعُوا لِقُرَيْشٍ. فَلَوْ كَانَ فَرَضُ الْإِمَامَةِ غَيْرَ وَاجِبٍ لَا فِي قُرَيْشٍ
 وَلَا فِي غَيْرِهِمْ لَمَا سَاغَتْ هَذِهِ الْمُنَازَعَةُ وَالْمُحَاوَرَةُ عَلَيْهَا، وَلَقَالَ قَائِلٌ:
 إِنَّهَا لَيْسَتْ بِوَاجِبَةٍ لَا فِي قُرَيْشٍ وَلَا فِي غَيْرِهِمْ، فَمَا لَتِنَازَعِكُمْ وَجْهٌ وَلَا
 فَائِدَةٌ فِي أَمْرِ لَيْسَ بِوَاجِبٍ ثُمَّ إِنَّ الصَّدِيقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ
 عَهْدَ إِلَى عُمَرَ فِي الْإِمَامَةِ، وَمَنْ يَقُلْ لَهُ أَحَدٌ هَذَا أَمْرٌ غَيْرٌ وَاجِبٌ عَلَيْنَا وَلَا
 عَلَيْكَ، فَدَلَّ عَلَى وُجُوهِهَا وَأَنَّهَا رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ الدِّينِ الَّذِي بِهِ قِوَامُ
 الْمُسْلِمِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. انتهى

السادسة: فيها بيان جواز المراجعة لرفع الإشكال ودفعه وهذه يحتاجها
 الطالب مع شيخه والسائل مع العالم وفي القرآن من الحوارات الشيء

الكثير وكذا في سنة النبي صلى الله عليه وسلم ويؤخذ هذا من مراجعة الملائكة مع ربها تعالى ذكره.

السابعة: فيها وجوب الرجوع إلى الحق وهذا هو الواجب على جميع المكلفين ويؤخذ هذا من اعتذار الملائكة إلى ربها بقولهم { قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ } [البقرة: ٣٢]. ولو تأملت سبب انحراف أكثر الخلق لوجدته من مخالفة هذا الباب.

الثامنة: فيها بيان تفاضل العبادات وهذا مأخوذ من قوله تعالى مخبرا عن الملائكة: { وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ } [البقرة: ٣٠] فذكروا أفضلها مع أن للعبادة أنواع كثيرة.

التاسعة: فيها فضل صالحى البشر على الملائكة وقد تقدم الإشارة إليها قال شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى (٤ / ٣٥٦)

وَقَدْ ذَكَرَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُتَسَبِّبِينَ إِلَى السُّنَّةِ: أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَصَالِحَ الْبَشَرِ أَفْضَلُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ. وَذَهَبَتْ الْمُعْتَزَلَةُ إِلَى تَفْضِيلِ الْمَلَائِكَةِ عَلَى الْبَشَرِ وَأَتْبَاعُ الْأَشْعَرِيِّ عَلَى قَوْلَيْنِ: مِنْهُمْ مَنْ يُفْضِلُ الْأَنْبِيَاءَ وَالْأَوْلِيَاءَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقِفُ وَلَا يَقْطَعُ فِيهِمَا بِشَيْءٍ. وَحُكِيَ عَنْ بَعْضِ مُتَأَخِّرِيهِمْ أَنَّهُ مَالَ إِلَى قَوْلِ الْمُعْتَزَلَةِ وَرُبَّمَا حُكِيَ ذَلِكَ عَنْ بَعْضِ مَنْ يَدَّعِي السُّنَّةَ وَيُؤَالِيهَا. وَذَكَرَ لِي عَنْ بَعْضِ مَنْ تَكَلَّمَ فِي أَعْمَالِ الْقُلُوبِ أَنَّهُ قَالَ: أَمَّا الْمَلَائِكَةُ الْمُدَبَّرُونَ لِلسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَالْمُؤَكَّلُونَ بِبَنِي آدَمَ؛ فَهَؤُلَاءِ أَفْضَلُ

مِنْ هَؤُلَاءِ الْمَلَائِكَةِ. وَأَمَّا الْكُرُوبِيُّونَ الَّذِينَ يَرْتَفِعُونَ عَنْ ذَلِكَ فَلَا أَحَدَ
 أَفْضَلَ مِنْهُمْ وَرَبَّمَا خَصَّ بَعْضُهُمْ نَبِيًّا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَاسْتِثْنَاؤُهُ مِنْ
 عُمُومِ الْبَشَرِ إِمَّا تَفْضِيلًا عَلَى جَمِيعِ أَعْيَانِ الْمَلَائِكَةِ أَوْ عَلَى الْمُدَبِّرِينَ
 مِنْهُمْ أَمْرَ الْعَالَمِ. هَذَا مَا بَلَّغَنِي مِنْ كَلِمَاتِ الْآخِرِينَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ.
 وَكُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّ الْقَوْلَ فِيهَا مُحَدَّثٌ حَتَّى رَأَيْتُهَا أَثَرِيَّةً سَلَفِيَّةً صَحَابِيَّةً
 فَانْبَعَثْتُ الْهِمَّةُ إِلَى تَحْقِيقِ الْقَوْلِ فِيهَا فَعَلْنَا حِينَعْدِ بِمَا قَالَهُ السَّلَفُ فَرَوَى
 أَبُو يَعْلَى الْمَوْصِلِيُّ فِي " كِتَابِ التَّفْسِيرِ " الْمَشْهُورِ لَهُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ
 سَلَامٍ - وَكَانَ عَالِمًا بِالْكِتَابِ الْأَوَّلِ وَالْكِتَابِ الثَّانِي - إِذْ كَانَ كِتَابِيًّا وَقَدْ
 شَهِدَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحُسْنِ الْخَاتِمَةِ وَوَصِيَّةً مُعَاذٍ عِنْدَ مَوْتِهِ
 وَأَنَّهُ أَحَدُ الْعُلَمَاءِ الْأَرْبَعَةِ الَّذِينَ يُبْتَغَى الْعِلْمُ عِنْدَهُمْ. قَالَ: مَا خَلَقَ اللَّهُ
 خَلْقًا أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنْ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْحَدِيثُ عَنْهُ. قُلْتُ: وَلَا
 جِبْرَائِيلَ وَلَا مِيكَائِيلَ قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي أَوْتَدْرِي مَا جِبْرَائِيلُ وَمِيكَائِيلُ؟ إِمَّا
 جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ خَلْقٌ مُسَخَّرٌ مِثْلُ: الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ؛ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى
 خَلْقًا أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنْ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَرَوَى عَبْدُ اللَّهِ فِي "
 التَّفْسِيرِ " وَغَيْرِهِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ أَنَّهُ قَالَ: { قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ:
 يَا رَبَّنَا جَعَلْتَ لِبَنِي آدَمَ الدُّنْيَا يَأْكُلُونَ فِيهَا وَيَشْرَبُونَ فَاجْعَلْ لَنَا الْآخِرَةَ.
 فَقَالَ: وَعِزَّتِي لَا أَجْعَلُ صَالِحَ ذَرِيَّةٍ مَنْ خَلَقْتَ بِيَدَيَّ كَمَا قُلْتَ لَهُ كُنْ
 فَكَانَ } .

وَكَذَلِكَ قِصَّةُ سُجُودِ الْمَلَائِكَةِ كُلِّهِمْ أَجْمَعِينَ لِآدَمَ وَعَنْ الْمُتَمَتِّعِ عَنْ
السُّجُودِ لَهُ وَهَذَا تَشْرِيفٌ وَتَكْرِيمٌ لَهُ الدَّلِيلُ الثَّانِي: قَوْلُهُ قَصَصًا عَنْ
إِبْلِيسَ: { أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَنَا عَلَيَّ } ؟ . فَإِنَّ هَذَا نَصٌّ فِي تَكْرِيمِ آدَمَ
عَلَى إِبْلِيسَ إِذْ أَمَرَ بِالسُّجُودِ لَهُ. الدَّلِيلُ الثَّلَاثُ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ
بِيَدِهِ كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْمَلَائِكَةُ لَمْ يَخْلُقْهُمْ بِيَدِهِ بَلْ
بِكَلِمَتِهِ وَهَذَا يَقُولُهُ جَمِيعٌ مَنْ يَدَّعِي الْإِسْلَامَ سُنِّيَّهُمْ وَمُبْتَدِعُهُمْ - بَلْ
وَعَلَيْهِ أَهْلُ الْكِتَابِ.

الدَّلِيلُ الْخَامِسُ: قَوْلُهُ: { إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً } وَفِيهَا دَلِيلٌ عَلَى
تَفْضِيلِ الْخَلِيفَةِ مِنْ وَجْهَيْنِ: " أَوْهُمَا " أَنَّ الْخَلِيفَةَ يُفْضَلُ عَلَى مَنْ هُوَ
خَلِيفَةٌ عَلَيْهِ وَقَدْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ وَهَذَا غَايَتُهُ أَنْ يُفْضَلَ عَلَى مَنْ
فِي الْأَرْضِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ. " وَثَانِيَهُمَا ": أَنَّ الْمَلَائِكَةَ طَلَبَتْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى
أَنْ يَكُونَ.

الِاسْتِخْلَافِ فِيهِمْ وَالْخَلِيفَةُ مِنْهُمْ حَيْثُ قَالُوا: { أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا
وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ } الْآيَةَ. فَلَوْلَا أَنَّ الْخِلَافَةَ دَرَجَةٌ عَالِيَةٌ أَعْلَى مِنْ دَرَجَاتِهِمْ
لَمَّا طَلَبُوهَا وَغَبَطُوا صَاحِبَهَا.

الدَّلِيلُ السَّابِعُ : تَفْضِيلُ بَنِي آدَمَ عَلَيْهِمْ بِالْعِلْمِ حِينَ سَأَلَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ
عَنْ عِلْمِ الْأَسْمَاءِ فَلَمْ يُجِيبُوهُ؛ وَاعْتَرَفُوا أَنَّهُمْ لَا يُحْسِنُونَهَا فَأَنْبَأَهُمْ آدَمَ
بِذَلِكَ؛ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: { هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ } .

وَالدَّلِيلُ الثَّامِنُ : وَهُوَ أَوَّلُ الْأَحَادِيثِ مَا رَوَاهُ حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ أَبِي الْمُهَرَّمِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: " { لَزَوَالِ الدُّنْيَا عَلَى اللَّهِ أَهْوَنُ مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُؤْمِنٍ وَالْمُؤْمِنُ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ عِنْدَهُ } ". وَهَذَا نَصٌّ فِي أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ... إِلَى أَنْ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ قَدْ كَانَ السَّلَفُ يُحَدِّثُونَ الْأَحَادِيثَ الْمُتَضَمِّنَةَ فَضْلَ صَالِحِي الْبَشَرِ عَلَى الْمَلَائِكَةِ وَتُرْوَى عَلَى رُءُوسِ النَّاسِ وَلَوْ كَانَ هَذَا مُنْكَرًا لَأَنْكَرُوهُ فَدَلَّ عَلَى اعْتِقَادِهِمْ ذَلِكَ. وَهَذَا إِنْ لَمْ يُفِدْ الْيَقِينَ الْقَاطِعَ فَإِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ لَمْ يَقْصُرْ عَنِ الْقَوِيِّ الْغَالِبِ وَرَبَّمَا اخْتَلَفَ ذَلِكَ بِاخْتِلَافِ النَّاسِ وَاخْتِلَافِ أحوالِهِمْ.

وقال: والبحثُ الكاشفُ عن حَقِيقَةِ الْمَسْأَلَةِ - وَهُوَ أَنْ نُقُولَ: التَّفْضِيلُ إِذَا وَقَعَ بَيْنَ شَيْئَيْنِ فَلَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ الْفَضِيلَةِ مَا هِيَ؟ ثُمَّ يُنظَرُ أَيُّهُمَا أَوْلَى بِهَا؟ . وَأَيْضًا فَإِنَّا إِنَّمَا تَكَلَّمْنَا فِي تَفْضِيلِ صَالِحِي الْبَشَرِ إِذَا كَمَلُوا وَوَصَلُوا إِلَى غَايَتِهِمْ وَأَقْصَى نَهَائِهِمْ وَذَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ إِذَا دَخَلُوا الْجَنَّةَ وَنَالُوا الرُّلْفَى وَسَكَنُوا الدَّرَجَاتِ الْعُلَى وَحَيَّاهُمْ الرَّحْمَنُ وَخَصَّهْمُ بِمَزِيدِ قُرْبِهِ وَتَجَلَّى لَهُمْ؛ يَسْتَمْتِعُونَ بِالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ وَقَامَتِ الْمَلَائِكَةُ فِي خِدْمَتِهِمْ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ. فَلْيُنظَرُ الْبَاحِثُ فِي هَذَا الْأَمْرِ فَإِنَّ أَكْثَرَ الْغَالِطِينَ لَمَّا نَظَرُوا فِي هَذِهِ الصَّنْفَيْنِ رَأَوْا الْمَلَائِكَةَ بَعَيْنِ التَّمَامِ وَالْكَمَالِ وَنَظَرُوا الْآدَمِيَّ وَهُوَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الْحَسِيسَةِ الْكَدْرَةِ الَّتِي لَا تَرُنُّ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ وَلَيْسَ هَذَا

بِالْإِنصَافِ. فَأَقُولُ: فَضْلُ أَحَدِ الدَّاتَيْنِ عَلَى الأُخْرَى إِنَّمَا هُوَ بِقُرْبِهَا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَمِنْ مَزِيدِ اصْطِفَائِهِ وَفَضْلِ اجْتِبَائِهِ لَنَا وَإِنْ كُنَّا نَحْنُ لَا نُدْرِكُ حَقِيقَةَ ذَلِكَ. هَذَا عَلَى سَبِيلِ الإِجْمَالِ وَعَلَى حَسَبِ الأُمُورِ الَّتِي هِيَ فِي نَفْسِهَا خَبْرٌ مُحْضٌ وَكَمَالٌ صِرْفٌ مِثْلُ الحَيَاةِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالزَّكَاةِ وَالطَّهَارَةِ وَالطَّيِّبِ وَالْبِرَاءَةِ مِنَ النَّقَائِصِ وَالْعُيُوبِ فَتَكَلَّمْتُ عَلَى الْفَضْلَيْنِ: (أَمَّا الأَوَّلُ: فَإِنَّ جَنَّةَ عَدْنٍ خَلَقَهَا اللَّهُ تَعَالَى وَغَرَسَهَا بِيَدِهِ وَلَمْ يُطْلِعْ عَلَى مَا فِيهَا مَلَكًا مُقَرَّبًا وَلَا نَبِيًّا مُرْسَلًا وَقَالَ لَهَا: تَكَلَّمِي فَقَالَتْ: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. جَاءَ ذَلِكَ فِي أَحَادِيثٍ عَدِيدَةٍ وَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا فِي كُلِّ سَحَرٍ وَهِيَ دَارُهُ فَهَذِهِ كَرَامَةُ اللَّهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الَّتِي لَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهَا أَحَدٌ مِنَ المَلَائِكَةِ وَمَعْلُومٌ أَنَّ الأَعْلَى مُطَّلِعُونَ عَلَى الأَسْفَلِينَ مِنْ غَيْرِ عَكْسٍ وَلَا يُقَالُ: هَذَا فِي حَقِّ المُرْسَلِينَ فَإِنَّهَا إِنَّمَا بُنِيَتْ لَهُمْ لَكِنْ لَمْ يَبْلُغُوا بَعْدُ إِبَانَ سُكْنَاهَا وَإِنَّمَا هِيَ مُعَدَّةٌ لَهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ ذَاهِبُونَ إِلَى كَمَالٍ وَمُنْتَقِلُونَ إِلَى عُلُوٍّ وَارْتِفَاعٍ وَهُوَ جَزَاؤُهُمْ وَثَوَابُهُمْ. انتهى وكلامه فيه مطولا وذكرت هذا مختصراً وبالله التوفيق والتفضيل يظهر في العقبى وهي الآخرة كما تبين من آخر كلام شيخ الإسلام.

قال ابن القيم في بدائع الفوائد (٣ / ١٦٣): في كلامه على تفصيلات شيخ الإسلام رحمه الله:

ومنها أنه سئل عن صالحى بنى آدم والملائكة أيهما أفضل؟ فأجاب: بأن صالحى البشر أفضل باعتبار كمال النهاية والملائكة أفضل باعتبار البداية فإن الملائكة الآن فى الرفيق الأعلى منزهين عما يلابسه بنو آدم مستغرقون فى عبادة الرب ولا ريب أن هذه الأحوال الآن أكمل من أحوال البشر وأما يوم القيامة بعد دخول الجنة فيصير حال صالحى البشر أكمل من حال الملائكة".

وبهذا التفصيل يتبين سر التفضيل وتتفق أدلة الفريقين ويصالح كل منهم على حقه. انتهى

العاشرة: فيها إظهار الفضل لأهله وذكر محاسن من يستحق دلالة عليه وذبا عنه وهذا من ديننا الكريم ويستدل لهذا بكون الله تعالى علم آدم الأسماء كلها وكم أثنى الله تعالى على أنبيائه وعلى صحابة رسوله صلى الله عليه وسلم ومن سار على سيرهم وهكذا كم فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك ويكون ذلك لأمر:

١- بيان منزلتهم.

٢- الدفاع عنهم.

٣- بيان الصفات الحميدة التى أهلتهم لهذه المنزلة الرفيعة.

الحادية عشرة: فيها أهمية التواضع فى حياة الفرد حيث أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم فتواضعوا لله تعالى واستجابوا لأمره فكان ذلك من

حميد خصالهم، بينما إبليس أخذه الكبر فوقع في الضلال البعيد والخسران المبين كما قال تعالى: {إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} [البقرة: ٣٤] وكما قال تعالى: {إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} [ص: ٧٤] وقد تقدم كلام ابن القيم رحمه الله في أن من أركان الكفر الكبر والجهل، والتواضع هو وحي الله تعالى إلى نبيه صلى الله عليه وسلم ففي صحيح مسلم (٢٨٦٥) عَنْ عِيَّاضِ بْنِ حِمَارٍ أَخِي بَنِي مُجَاشِعٍ، قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ خَطِيْبًا، فَقَالَ: «وَإِنَّ اللَّهَ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّىٰ لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَىٰ أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَىٰ أَحَدٍ». وفي صحيح مسلم (٢٥٨٨) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ، إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ» قوله: (وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله) فيه أيضا وجهان أحدهما يرفعه في الدنيا ويثبت له بتواضعه في القلوب منزلة ويرفعه الله عند الناس ويجل مكانه والثاني أن المراد ثوابه في الآخرة ورفعها فيها بتواضعه في الدنيا قال العلماء وهذه الأوجه في الألفاظ الثلاثة موجودة في العادة معروفة وقد يكون المراد الوجهين معا في جميعها في الدنيا والآخرة. انتهى من شرح النووي.

الثانية عشرة: فيها بيان أن الإيمان والكفر بأسبأهما فإبليس كفر بالكبر والإباء والإعراض، وفي هذا رد على المرجئة الذين يزعمون أن الكفر لا يكون إلا بالحدود.

الثالثة عشرة: فيها رد على من زعم أن الكفر يكون بالحدود فقط وقد تقد بيانه.

الرابعة عشرة: فيها أن التفاضل حاصل بالعلم والعمل دلالة ذلك من تفضيل آدم بالعلم قال ابن القيم في مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/ ٥٢)

وَبَيَانَ فَضْلَ الْعِلْمِ مِنْ هَذِهِ الْقِصَّةِ مِنْ وُجُوهِ أَحَدِهَا أَنَّهُ سُبْحَانَهُ رَدُّ عَلَى الْمَلَائِكَةِ لَمَّا سَأَلُوهُ كَيْفَ يَجْعَلُ فِي الْأَرْضِ مِنْ هُمْ أَطْوَعَ لَهُ مِنْهُ فَقَالَ ابْنِي اعْلَمْ مَا لَا تَعْلَمُونَ فَأَجَابَ سُؤَالَهُمْ بِأَنَّهُ يَعْلَمُ مِنْ بَوَاطِنِ الْأُمُورِ وَحَقَائِقِهَا مَا لَا يَعْلَمُونَهُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ فَظَهَرَ مِنْ هَذَا الْحَلِيفَةِ مِنْ خِيَارِ خَلْقِهِ وَرُسُلِهِ وَأَنْبِيَائِهِ وَصَالِحِي عِبَادِهِ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّدِيقِينَ وَالْعُلَمَاءَ وَطَبَقَاتِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ مِنْ هُوَ خَيْرٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَظَهَرَ مِنْ إِبْلِيسِ مِنْ هُوَ شَرٌّ الْعَالَمِينَ فَأَخْرَجَ سُبْحَانَهُ هَذَا وَهَذَا وَالْمَلَائِكَةَ لَمْ يَكُنْ لَهَا عِلْمٌ لَا بِهَذَا وَلَا بِهَذَا وَلَا بِمَا فِي خَلْقِ آدَمَ وَإِسْكَانِهِ الْأَرْضِ مِنَ الْحُكْمِ الْبَاهِرَةِ الثَّانِي أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَمَّا أَرَادَ إِظْهَارَ تَفْضِيلِ آدَمَ وَتَمْيِيزِهِ وَفَضْلِهِ مِيزَهُ عَلَيْهِمْ بِالْعِلْمِ فَعَلِمَهُ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ

كُنْتُمْ صَادِقِينَ جَاءَ فِي التَّفْسِيرِ أَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ يَخْلُقَ رَبَّنَا خَلْقًا هُوَ أَكْرَمُ عَلَيْهِ
 مِنَّا فَظَنُوا أَنَّهُمْ خَيْرٌ وَأَفْضَلُ مِنَ الْخَلِيفَةِ الَّذِي يَجْعَلُهُ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ فَلَمَّا
 امْتَحَنَهُمْ بِعِلْمِ مَا عَلَّمَهُ لَهُذَا الْخَلِيفَةَ اقْرَأُوا بِالْعَجْزِ وَجَهْلِ مَا لَمْ يَعْلَمُوهُ فَقَالُوا
 سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ فَحِينَئِذٍ أَظْهَرَ
 لَهُمْ فَضْلَ آدَمَ بِمَا خَصَّهُ بِهِ مِنَ الْعِلْمِ فَقَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا
 أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ أَقْرَأُوا لَهُ بِالْفَضْلِ الثَّلَاثِ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لِمَا أَنْ عَرَفَهُمْ فَضْلَ
 آدَمَ بِالْعِلْمِ وَعَجْزَهُمْ عَنِ مَعْرِفَةِ مَا عَلَّمَهُ قَالَ لَهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ
 غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تَبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ فَعَرَفَهُمْ
 سُبْحَانَهُ نَفْسَهُ بِالْعِلْمِ وَأَنَّهُ أَحَاطَ عِلْمًا بِظَاهِرِهِمْ وَبَاطِنِهِمْ وَبَغِيبِ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ فَتَعَرَفَ إِلَيْهِمْ بِصِفَةِ الْعِلْمِ وَعَرَفَهُمْ فَضْلَ نَبِيِّهِ وَكَلِيمِهِ بِالْعِلْمِ
 وَعَجْزَهُمْ عَمَّا آتَاهُ آدَمُ مِنَ الْعِلْمِ وَكَفَى بِهَذَا شَرَفًا لِلْعِلْمِ الرَّابِعِ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ
 جَعَلَ فِي آدَمَ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ مَا كَانَ بِهِ أَفْضَلَ مِنْ غَيْرِهِ مِنْ
 الْمَخْلُوقَاتِ وَأَرَادَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَظْهَرَ لِمَلَائِكَتِهِ فَضْلَهُ وَشَرَفَهُ فَأَظْهَرَ لَهُمْ
 أَحْسَنَ مَا فِيهِ وَهُوَ عِلْمُهُ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْعِلْمَ اشْرَفَ مَا فِي الْإِنْسَانِ وَأَنَّ
 فَضْلَهُ وَشَرَفَهُ إِثْمًا هُوَ بِالْعِلْمِ . انتهى

الخامسة عشرة: فيها أن العبادة هي طاعة الله فما أمر الله به ففعله عبادة
 وذلك أن السجود لآدم كان عبادة لله وليس كما زعم بعضهم أنه إنما
 جعله الله قبلة قال شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى (٤ / ٣٥٨)

وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْأَعْيَاءِ: إِنَّ السُّجُودَ إِذَا كَانَ لِلَّهِ وَجَعَلَ آدَمَ قِبْلَةً لَهُمْ
يَسْجُدُونَ إِلَيْهِ كَمَا يَسْجُدُ إِلَى الْكَعْبَةِ؛ وَلَيْسَ فِي هَذَا تَفْضِيلٌ لَهُ عَلَيْهِمْ؛
كَمَا أَنَّ السُّجُودَ إِلَى الْكَعْبَةِ لَيْسَ فِيهِ تَفْضِيلٌ لِلْكَعْبَةِ عَلَى الْمُؤْمِنِ عِنْدَ
اللَّهِ بَلْ حُرْمَةُ الْمُؤْمِنِ عِنْدَ اللَّهِ أَفْضَلُ مِنْ حُرْمَتِهَا وَقَالُوا: السُّجُودُ لِغَيْرِ اللَّهِ
مُحْرَمٌ بَلْ كُفْرٌ. وَالْجَوَابُ: أَنَّ السُّجُودَ كَانَ لِآدَمَ بِأَمْرِ اللَّهِ وَفَرَضِهِ بِاجْتِمَاعِ
مَنْ يُسْمَعُ قَوْلُهُ وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ وَجُوهٌ: - أَحَدُهَا: قَوْلُهُ لِآدَمَ: وَمَنْ يَقُلْ:
إِلَى آدَمَ. وَكُلُّ حَرْفٍ لَهُ مَعْنَى وَمِنْ التَّمْيِيزِ فِي اللِّسَانِ أَنْ يُقَالَ: سَجَدْتُ لَهُ
وَسَجَدْتُ إِلَيْهِ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: { لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ
وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ } وَقَالَ { وَلِلَّهِ يَسْجُدُ
مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } .

وَأَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى: أَنَّ السُّجُودَ لِغَيْرِ اللَّهِ مُحْرَمٌ وَأَمَّا الْكَعْبَةُ فَقَدْ كَانَ
النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ثُمَّ صَلَّى إِلَى الْكَعْبَةِ
وَكَانَ يُصَلِّي إِلَى عَنَزَةٍ وَلَا يُقَالُ لِعَنَزَةٍ وَإِلَى عَمُودِ شَجَرَةٍ وَلَا يُقَالُ لِعَمُودٍ وَلَا
لِشَجَرَةٍ؛ وَالسَّاجِدُ لِلشَّيْءِ يَخْضَعُ لَهُ بِقَلْبِهِ وَيَخْشَعُ لَهُ بِفُؤَادِهِ؛ وَأَمَّا السَّاجِدُ
إِلَيْهِ فَأَيُّمَا يُوَلِّي وَجْهَهُ وَبَدَنَهُ إِلَيْهِ ظَاهِرًا كَمَا يُوَلِّي وَجْهَهُ إِلَى بَعْضِ النَّوَاحِي
إِذَا أَمَّهُ كَمَا قَالَ: { فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا
وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ } . **وَالثَّانِي:** أَنَّ آدَمَ لَوْ كَانَ قِبْلَةً لَمْ يَمْتَنِعْ إِبْلِيسُ مِنْ
السُّجُودِ أَوْ يَزْعُمُ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْهُ. فَإِنَّ الْقِبْلَةَ قَدْ تَكُونُ أَحْجَارًا وَلَيْسَ فِي

ذَلِكَ تَفْضِيلٌ لَهَا عَلَى الْمُصَلِّينَ إِلَيْهَا وَقَدْ يُصَلِّي الرَّجُلُ إِلَى عَنَزَةٍ وَبَعِيرٍ
وَأِلَى رَجُلٍ وَلَا يَتَوَهَّمُ أَنَّهُ مُفْضَلٌ بِذَلِكَ فَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ فَرَّ الشَّيْطَانُ؟ هَذَا
هُوَ الْعَجَبُ الْعَجِيبُ وَالثَّالِثُ: أَنَّهُ لَوْ جَعَلَ آدَمَ قِبْلَةً فِي سَجْدَةٍ وَاحِدَةٍ
لَكَانَتْ الْقِبْلَةُ وَبَيْتُ الْمَقْدِسِ أَفْضَلَ مِنْهُ بِأَلْفِ كَثِيرَةٍ إِذْ جُعِلَتْ قِبْلَةً
دَائِمَةً فِي جَمِيعِ أَنْوَاعِ الصَّلَوَاتِ؛ فَهَذِهِ الْقِصَّةُ الطَّوِيلَةُ الَّتِي قَدْ جُعِلَتْ عَلَمًا
لَهُ وَمِنْ أَفْضَلِ النَّعْمِ عَلَيْهِ وَجَاءَتْ إِلَى الْعَالَمِ بِأَنَّ اللَّهَ رَفَعَهُ بِهَا وَامْتَنَّ عَلَيْهِ
لَيْسَ فِيهَا أَكْثَرُ مِنْ أَنَّهُ جَعَلَهُ كَالْكَعْبَةِ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ مَعَ أَنَّ بَعْضَ مَا
أُوتِيَهُ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ وَالْقُرْبِ مِنَ الرَّحْمَنِ أَفْضَلُ بِكَثِيرٍ مِنَ الْكَعْبَةِ؛
وَالْكَعْبَةُ إِنَّمَا وُضِعَتْ لَهُ وَلِذُرِّيَّتِهِ؛ أَفِيَجْعَلُ مِنْ حَسِيمِ النَّعْمِ عَلَيْهِ أَوْ يُشَبِّهُ بِهِ
فِي شَيْءٍ نَزْرًا قَلِيلًا جِدًّا هَذَا مَا لَا يَقُولُهُ عَاقِلٌ. وَأَمَّا قَوْلُهُمْ: لَا يَجُوزُ
السُّجُودُ لِغَيْرِ اللَّهِ. فَيُقَالُ لَهُمْ: إِنْ قِيلَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ عَلَى الْجُمْلَةِ فَهِيَ
كَلِمَةٌ عَامَّةٌ تَنْفِي بِعُمُومِهَا جَوَازَ السُّجُودِ لِآدَمَ وَقَدْ دَلَّ دَلِيلٌ خَاصٌّ عَلَى
أَنَّهُمْ سَجَدُوا لَهُ وَالْعَامُّ لَا يُعَارِضُ مَا قَابَلَهُ مِنَ الْخَاصِّ. وَثَانِيهَا: أَنَّ
السُّجُودَ لِغَيْرِ اللَّهِ حَرَامٌ عَلَيْنَا وَعَلَى الْمَلَائِكَةِ. أَمَّا الْأَوَّلُ فَلَا دَلِيلَ وَأَمَّا
الثَّانِي فَمَا الْحُجَّةُ فِيهِ؟

وَتَالِثُهَا أَنَّهُ حَرَامٌ أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَوْ حَرَامٌ لَمْ يَأْمُرْ بِهِ وَالثَّانِي حَقٌّ وَلَا شِفَاءَ فِيهِ
وَأَمَّا الْأَوَّلُ فَكَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ يُحَرَّمَ بَعْدَ أَنْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ؟ وَرَابِعُهَا: أَبُو
يُوسُفَ وَإِخْوَتُهُ خَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَيُقَالُ: كَانَتْ نَحِيَّتَهُمْ؛ فَكَيْفَ يُقَالُ: إِنَّ

السُّجُودَ حَرَامٌ مُطْلَقًا؟ وَقَدْ كَانَتْ الْبَهَائِمُ تَسْجُدُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْبَهَائِمُ لَا تَعْبُدُ اللَّهَ. فَكَيْفَ يُقَالُ يَلْزَمُ مِنَ السُّجُودِ لِشَيْءٍ عِبَادَتُهُ؟ وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. { وَلَوْ كُنْتُ أَمْرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لِأَمْرَتِ الْمَرْأَةِ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا } لِعِظَمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَمْ يُقَلَّ: لَوْ كُنْتُ أَمْرًا أَحَدًا أَنْ يَعْْبُدَ. انتهى

السادسة عشرة: فيها فضيلة المسارعة والمبادرة إلى العمل الصالح وذلك مأخوذ من قوله تعالى: { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا } [البقرة: ٣٤] والفاء تفيد التعقيب، وسيأتي أن الأمر للوجوب في موطنه إن شاء الله تعالى.

السابعة عشرة: فيها خطر الإعراض عن العلم والعمل وهذا مأخوذ من صنيع إبليس.

الثامنة عشرة: شدة عداوة الشيطان للإنسان وقد تقدمت الأدلة في ذلك ومن أعظم ما يبين شدة عداوته حيث باع الشيطان سعادة الدارين وخالف أمر رب العالمين لذلك ويعرف سبب العداوة بما بعدها.

التاسعة عشرة: وفيها بيان خطر الحسد فإن الدافع لإبليس مع كبره وعناده حسده لآدم عليه السلام.

العشرون: وفيها طريقة علمية وهي الإجمال بعد التفصيل والعكس كما أخبر الله عن إبليس أنه أبى أي أعرض وهذا من كفره واستكبر وهذا أيضا من كفره ثم قال وكان من الكافرين أي صار كافرا لزوما.

الحادية والعشرون: فيها تفضيل جنس التراب على النار وذلك لأن الأرض موضع الحياة بخلاف النار ودلالة هذا من معارضة إبليس لأمر الله تعالى بكونه من نار قال تعالى مخبر عنه: { أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ } [الأعراف: ١٢] قال ابن القيم في إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (٢ / ٢٣٤)

وعباد النار يفضلونها على التراب، ويعظمونها، ويصوبون رأى إبليس، وقد رمى بشار بن برد بهذا المذهب، لقوله في قصيدته:

الأَرْضُ سَافِلَةٌ سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ ... وَالنَّارُ مَعْبُودَةٌ مُذْ كَانَتْ النَّارُ

ويقولون: إنها أوسع العناصر خيرا، وأعظمها جرما، وأوسعها مكانا، وأشرفها جوهرًا، وأطفها جسماً، ولا كون في العالم إلا بها، ولا نمو ولا انعقاد، إلا بعمارحتها. انتهى

وقال في الصواعق المرسله في الرد على الجهمية والمعطلة (٣ / ١٠٠٤)

ظنه أن النار خير من التراب باطل مستنده ما فيها من الإضاءة والخفة وما في التراب من الثقل والظلمة ونسي الشيخ ما في النار من الطيش والخفة

وطلب العلو والإفساد بالطبع حتى لو وقع منها شواظ بقدر الحبة في مدينة عظيمة لأفسدها كلها ومن فيها بل التراب خير من النار وأفضل من وجوه متعددة.

منها أن طبعه السكون والرزانة والنار بخلافه

ومنها أنه مادة الحيوان والنبات والأقوات والنار بخلافه

ومنها أنه لا يمكن أحدا العيش بدونه ودون ما خلق منه البتة ويمكنه أن يعيش برهة بلا نار قالت عائشة يمر بنا الشهر والشهران ما نوقد في بيوتنا نارا أو ما نرى نارا قال لها عروة فما كان قوتكم قالت الأسودان التمر والماء.

ومنها أن الأرض تؤدي إليك بما فيها من البركة أضعاف أضعاف ما تودعه من الحب والنوى وتربيته لك وتغذيته وتنميته والنار تفسده عليك وتمحق بركته

ومنها أن الأرض مهبط وحي الله ومسكن رسله وأنبيائه وأوليائه وكفائهم أحياء وأمواتا والنار مسكن أعدائه ومأواهم

ومنها أن في الأرض بيته الذي جعله إماما للناس وقياما لهم وجعل حجه محطا لأوزارهم ومكفرا لسيئاتهم وجالبا لهم مصالح معاشهم ومعادهم.

ومنها أن النار طبعها العلو والفساد وأن الله لا يحب المستكبرين ولا يحب المفسدين والأرض طبعها الخشوع والإخبات والله يحب المخبتين الخاشعين وقد ظهر هذا بخلق إبراهيم ومحمد وموسى وعيسى والرسل من المادة الأرضية وخلق إبليس وجنوده من المادة النارية نعم وخلق من المادة الأرضية الكفار والمشركين ومن المادة النارية صالحى الجن ولكن ليس في هؤلاء مثل إبليس وليس في أولئك مثل الرسل والأنبياء فمعلم الخير من المادة الأرضية ومعلم الشر من المادة النارية.

ومنها أن النار لا تقوم بنفسها بل لا بد لها من محل تقوم به لا تستغني عنه وهي محتاجة إلى المادة الترابية في قوامها وتأثيرها والأرض قائمة بنفسها لا تحتاج إلى محل تقوم به ولا يفتقر قوامها ونفعها إلى النار.

ومنها أن التراب يفسد صورة النار ويبطلها ويقهرها وإن علت عليه

ومنها أن الرحمة تنزل على الأرض فتقبلها وتحي بها وتخرج زيتها وأقواتها وتشكر ربها وتنزل على النار فتأبأها وتطفئها وتمحوها وتذهب بها فبينها وبين الرحمة معادة وبين الأرض وبين الرحمة موالاتة وإخاء. إلى آخر ما ذكره.

الثانية والعشرون: فيها بيان أن فساد الجوارح تابع لفساد القلب وهذا يعلم مما تقدم في تفسير الآيات من أن الله تعالى علم ما في قلب إبليس وفي الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير رضي الله عنه

قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ)

الرابعة والعشرون: فيها فضح الله تعالى للمنافقين والكافرين فيها هو إبليس كان مظهرًا للخير وفجأة يخرج الله ما في قلبه قال تعالى: { أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ } وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ { [محمد: ٣٠].

الخامسة والعشرون: فيها إنزال الناس منازلهم وهذا مأخوذ من قوله تعالى: { اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا } [البقرة: ٣٥]

السادسة والعشرون: فيها فضل صحبة الصالحين وما صار لحواء من الفضل كونها مع آدم عليه السلام.

السابعة والعشرون: فيها بيان لسعة كرم الله تعالى حيث جعل المباح للعبد أضعاف المحذور ومع ذلك تجد المخالفة.

الثامنة والعشرون: فيها بيان لضعف النفس وميلها إلى الممنوع ولذلك جعل الله أجرا لمن ترك المعصية من أجل الله تعالى ففي صحيح مسلم (١٢٩) عن أبي هريرة، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " قَالَ

اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِذَا تَحَدَّثَ عَبْدِي بِأَنْ يَعْمَلَ حَسَنَةً، فَأَنَا أَكْتُبُهَا لَهُ حَسَنَةً مَا لَمْ يَعْمَلْ، فَإِذَا عَمَلَهَا، فَأَنَا أَكْتُبُهَا بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وَإِذَا تَحَدَّثَ بِأَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً، فَأَنَا أَغْفِرُهَا لَهُ مَا لَمْ يَعْمَلَهَا، فَإِذَا عَمَلَهَا، فَأَنَا أَكْتُبُهَا لَهُ بِمِثْلِهَا " وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: رَبِّ، ذَاكَ عَبْدُكَ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً، وَهُوَ أَبْصُرُ بِهِ، فَقَالَ: ارْزُقُوهُ فَإِنْ عَمَلَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ بِمِثْلِهَا، وَإِنْ تَرَكَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً، إِمَّا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّايَ " وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا أَحْسَنَ أَحَدُكُمْ إِسْلَامَهُ، فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِ مِائَةٍ ضِعْفٍ، وَكُلُّ سَيِّئَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ بِمِثْلِهَا حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ».

التاسعة والعشرون: بيان أن المعصية ظلم لقوله تعالى {وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ} [البقرة: ٣٥] وقد قال تعالى: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ} [فاطر: ٣٢] قال ابن القيم رحمه الله في طريق المهجرتين وباب السعادتين (ص: ٢٠٠)

وظلم النفس نوعان: نوع لا يبقى معه شيء من الإيمان والولاية والصدقية والاصطفاء وهو ظلمها بالشرك والكفر، ونوع يبقى معه حظه من الإيمان والاصطفاء والولاية وهو ظلمها بالمعاصي، وهو درجات متفاوتة في القدر والوصف. انتهى

الثلاثون: فيها بيان لأثر المعاصي فانظر كيف طرد إبليس من الرحمة وأخرج آدم من الجنة ويلحق ذلك أمور كثيرة وقال ابن القيم في الجواب الكافي (ص: ٥٢)

وَلِلْمَعَاصِي مِنَ الْآثَارِ الْقَبِيحَةِ الْمَذْمُومَةِ، الْمُضِرَّةِ بِالْقَلْبِ وَالْبَدَنِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ.

فمنها: حِرْمَانُ الْعِلْمِ، فَإِنَّ الْعِلْمَ نُورٌ يَقْدِفُهُ اللَّهُ فِي الْقَلْبِ، وَالْمَعْصِيَةُ تُطْفِئُ ذَلِكَ النُّورَ.

وَلَمَّا جَلَسَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ بَيْنَ يَدَيْ مَالِكٍ وَقَرَأَ عَلَيْهِ أَعْجَبَهُ مَا رَأَى مِنْ وُفُورِ فِطْنَتِهِ، وَتَوَقُّدِ ذِكَايِهِ، وَكَمَالِ فَهْمِهِ، فَقَالَ: إِنِّي أَرَى اللَّهَ قَدْ أَلْقَى عَلَى قَلْبِكَ نُورًا، فَلَا تُطْفِئُهُ بِظُلْمَةِ الْمَعْصِيَةِ.

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

شَكَوْتُ إِلَى وَكَيْعٍ سُوءَ حِفْظِي ... فَأَرْشَدَنِي إِلَى تَرْكِ الْمَعَاصِي

وَقَالَ اعْلَمْ بِأَنَّ الْعِلْمَ فَضْلٌ ... وَفَضْلُ اللَّهِ لَا يُؤْتَاهُ عَاصِي

ومنها: حِرْمَانُ الرِّزْقِ، وَفِي الْمُسْنَدِ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالدَّنْبِ يُصِيبُهُ» وَقَدْ تَقَدَّمَ، وَكَمَا أَنَّ تَقْوَى اللَّهِ مَجْلِبَةٌ لِلرِّزْقِ فَتَرَكَ التَّقْوَى مَجْلِبَةٌ لِلْفَقْرِ، فَمَا اسْتَجَلِبَ رِزْقَ اللَّهِ بِمِثْلِ تَرْكِ الْمَعَاصِي.

ومنها: وَحَشَّةٌ يَجِدُهَا الْعَاصِي فِي قَلْبِهِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ لَا تُوَازِنُهَا وَلَا تُقَارِنُهَا لَذَّةً أَصْلًا، وَلَوْ اجْتَمَعَتْ لَهُ لَذَاتُ الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا لَمْ تَفِ بِتِلْكَ الْوَحْشَةِ، وَهَذَا أَمْرٌ لَا يَحْسُ بِهِ إِلَّا مَنْ فِي قَلْبِهِ حَيَاةٌ، وَمَا لِحَرْحِ بِمَيِّتٍ إِيْلَامٌ، فَلَوْ لَمْ تُشْرِكِ الذُّنُوبُ إِلَّا حَدْرًا مِنْ وَقُوعِ تِلْكَ الْوَحْشَةِ، لَكَانَ الْعَاقِلُ حَرِيًّا بِتَشْرِكِهَا.

وَشَكَا رَجُلٌ إِلَى بَعْضِ الْعَارِفِينَ وَحَشَّةً يَجِدُهَا فِي نَفْسِهِ فَقَالَ لَهُ:

إِذَا كُنْتَ قَدْ أَوْحَشْتِكَ الذُّنُوبُ ... فَدَعَهَا إِذَا شِئْتَ وَاسْتَأْنَسِ

وَلَيْسَ عَلَى الْقَلْبِ أَمْرٌ مِنْ وَحْشَةِ الذَّنْبِ عَلَى الذَّنْبِ، فَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

ومنها: الْوَحْشَةُ الَّتِي تَحْصُلُ لَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، وَلَا سِيَّمَا أَهْلَ الْخَيْرِ مِنْهُمْ، فَإِنَّهُ يَجِدُ وَحْشَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ، وَكُلَّمَا قَوِيَتْ تِلْكَ الْوَحْشَةُ بَعُدَ مِنْهُمْ وَمِنْ مَجَالَسَتِهِمْ، وَحُرِمَ بَرَكَةَ الْإِنْتِفَاعِ بِهِمْ، وَقَرُبَ مِنْ حِزْبِ الشَّيْطَانِ، بِقَدْرِ مَا بَعُدَ مِنْ حِزْبِ الرَّحْمَنِ، وَتَقَوَى هَذِهِ الْوَحْشَةُ حَتَّى تَسْتَحْكِمَ، فَتَقَعَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ وَوَلَدِهِ وَأَقَارِبِهِ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ، فَتَرَاهُ مُسْتَوْحِشًا مِنْ نَفْسِهِ.

وَذَكَرَ أَيْضًا عَنْ وَكَيْعٍ حَدَّثَنَا زَكْرِيَّا عَنْ عَامِرٍ قَالَ: كَتَبْتُ عَائِشَةَ إِلَى مُعَاوِيَةَ: أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا عَمَلَ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ عَدَّ حَامِدَهُ مِنَ النَّاسِ دَائِمًا.

ذَكَرَ أَبُو نُعَيْمٍ عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ: لِيَحْذَرِ امْرُؤٌ أَنْ تَلْعَنَهُ قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ، ثُمَّ قَالَ: أَتَدْرِي مِمَّ هَذَا؟ قُلْتُ:

لَا، قَالَ: إِنَّ الْعَبْدَ يَخْلُو بِمَعَاصِي اللَّهِ فَيُلْقِي اللَّهُ بُعْضَهُ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ.

وَدَكَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ فِي كِتَابِ الرَّهْدِ لِأَبِيهِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ: أَنَّهُ لَمَّا رَكِبَهُ الدَّيْنُ اعْتَمَّ لِذَلِكَ، فَقَالَ: إِنِّي لَأَعْرِفُ هَذَا الْعَمَّ بِذَنْبٍ أَصَبْتُهُ مِنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً.

قَدْ لَا يُؤْتِرُ الذَّنْبُ فِي الْحَالِ

وَهَاهُنَا نُكْتَةٌ دَقِيقَةٌ يَغْلُطُ فِيهَا النَّاسُ فِي أَمْرِ الذَّنْبِ، وَهِيَ أَنَّهُمْ لَا يَرَوْنَ تَأْثِيرَهُ فِي الْحَالِ، وَقَدْ يَتَأَخَّرُ تَأْثِيرُهُ فَيُنْسَى، وَيَظُنُّ الْعَبْدُ أَنَّهُ لَا يُعْبَرُ بَعْدَ ذَلِكَ، وَأَنَّ الْأَمْرَ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

إِذَا لَمْ يُعْبَرِ حَائِطٌ فِي وَقُوعِهِ ... فَلَيْسَ لَهُ بَعْدَ الْوُقُوعِ عُبَارٌ

وَسُبْحَانَ اللَّهِ! مَاذَا أَهْلَكَتْ هَذِهِ النُّكْتَةُ مِنَ الْخَلْقِ؟ وَكَمْ أَرَاكَ عُبَارَ نِعْمَةٍ؟ وَكَمْ جَلَبْتَ مِنْ نِقْمَةٍ؟ وَمَا أَكْثَرَ الْمُعْتَرِينَ بِهَا الْعُلَمَاءَ وَالْفُضَلَاءَ، فَضْلاً عَنِ الْجُهَّالِ، وَلَمْ يَعْلَمْ الْمُعْتَرُ أَنَّ الذَّنْبَ يَنْقُضُ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ، كَمَا يَنْقُضُ السُّمُّ، وَكَمَا يَنْقُضُ الْجُرْحُ الْمُنْدَمِلَ عَلَى الْغِشِّ وَالِدَّعْلِ.

وَقَدْ ذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ: اعْبُدُوا اللَّهَ كَأَنَّكُمْ تَرَوْنَهُ، وَعُدُّوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ الْمَوْتَى، وَعَلِّمُوا أَنَّ قَلِيلاً يُغْنِيكُمْ، خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ يُلْهِيْكُمْ، وَعَلِّمُوا أَنَّ الْبِرَّ لَا يَبْلَى، وَأَنَّ الْإِثْمَ لَا يُنْسَى.

وَنظَرَ بَعْضُ الْعِبَادِ إِلَى صَبِيٍّ، فَتَأَمَّلَ مَحَاسِنَهُ، فَأُتِيَ فِي مَنَامِهِ وَقِيلَ لَهُ:
لَتَجِدَنَّ غِبَّهَا بَعْدَ أَرْبَعِينَ سَنَةً.

هَذَا مَعَ أَنَّ لِلذَّنْبِ نَقْدًا مُعَجَّلًا لَا يَتَأَخَّرُ عَنْهُ، قَالَ سُلَيْمَانُ التَّيْمِيُّ: إِنَّ
الرَّجُلَ لَيُصِيبُ الذَّنْبَ فِي السَّرِّ فَيُصْبِحُ وَعَلَيْهِ مَذَلَّتُهُ.

وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذِ الرَّازِيِّ عَجِبْتُ مِنْ ذِي عَقْلٍ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: اللَّهُمَّ لَا
تُشِمْتُ بِي الْأَعْدَاءَ، ثُمَّ هُوَ يُشِمْتُ بِنَفْسِهِ كُلَّ عَدُوٍّ لَهُ، قِيلَ: وَكَيْفَ
ذَلِكَ؟ قَالَ يَعْصِي اللَّهَ وَيَشِمْتُ بِهِ فِي الْقِيَامَةِ كُلُّ عَدُوٍّ.

وَقَالَ ذُو النُّونِ: مَنْ خَانَ اللَّهَ فِي السَّرِّ هَتَكَ اللَّهَ سِتْرَهُ فِي الْعَلَانِيَةِ.

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: إِنِّي لِأَعْصِي اللَّهَ فَأَرَى ذَلِكَ فِي خُلُقِ دَابَّتِي، وَامْرَأَتِي.

ومنها: تَعَسِيرُ أُمُورِهِ عَلَيْهِ، فَلَا يَتَوَجَّهُ لِأَمْرٍ إِلَّا يَجِدُهُ مُغْلَقًا دُونَهُ أَوْ مُتَعَسِّرًا
عَلَيْهِ، وَهَذَا كَمَا أَنَّ مَنْ تَلَقَّى اللَّهَ جَعَلَ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا، فَمَنْ عَطَلَ
التَّقْوَى جَعَلَ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ عُسْرًا، وَيَا لِلَّهِ الْعَجَبُ! كَيْفَ يَجِدُ الْعَبْدُ أَبْوَابَ
الْخَيْرِ وَالْمَصَالِحِ مَسْدُودَةً عَنْهُ وَطُرُقَهَا مُعَسَّرَةً عَلَيْهِ، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ
أُتِيَ؟

ومنها: ظُلْمَةٌ يَجِدُهَا فِي قَلْبِهِ حَقِيقَةً يَحْسُ بِهَا كَمَا يَحْسُ بِظُلْمَةِ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ
إِذَا اذْهَبَ، فَتَصِيرُ ظُلْمَةُ الْمَعْصِيَةِ لِقَلْبِهِ كَالظُّلْمَةِ الْحَسِّيَّةِ لِبَصَرِهِ، فَإِنَّ
الطَّاعَةَ نُورٌ، وَالْمَعْصِيَةَ ظُلْمَةٌ، وَكُلَّمَا قَوِيَتْ الظُّلْمَةُ ازْدَادَتْ حَيْرَتُهُ، حَتَّى

يَقَعُ فِي الْبِدَعِ وَالضَّلَالَاتِ وَالْأُمُورِ الْمُهْلِكَةِ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ، كَأَعْمَى أُخْرِجَ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ يَمْشِي وَحْدَهُ، وَتَقْوَى هَذِهِ الظُّلْمَةَ حَتَّى تَظْهَرَ فِي الْعَيْنِ، ثُمَّ تَقْوَى حَتَّى تَعْلُو الْوَجْهَ، وَتَصِيرُ سَوَادًا فِي الْوَجْهِ حَتَّى يَرَاهُ كُلُّ أَحَدٍ.

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّ لِلْحَسَنَةِ ضِيَاءً فِي الْوَجْهِ، وَنُورًا فِي الْقَلْبِ، وَسَعَةً فِي الرَّزْقِ، وَقُوَّةً فِي الْبَدَنِ، وَمَحَبَّةً فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ، وَإِنَّ لِلْسَيِّئَةِ سَوَادًا فِي الْوَجْهِ، وَظُلْمَةً فِي الْقَبْرِ وَالْقَلْبِ، وَوَهْنًا فِي الْبَدَنِ، وَنَقْصًا فِي الرَّزْقِ، وَبُغْضَةً فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ.

ومنها أَنَّ الْمَعَاصِيَ تُوهِنُ الْقَلْبَ وَالْبَدَنَ، أَمَا وَهْنُهَا لِلْقَلْبِ فَأَمْرٌ ظَاهِرٌ، بَلْ لَا تَزَالُ تُوهِنُهُ حَتَّى تُزِيلَ حَيَاتَهُ بِالْكُلِّيَّةِ.

وَأَمَا وَهْنُهَا لِلْبَدَنِ فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ قُوَّتُهُ مِنْ قَلْبِهِ، وَكُلَّمَا قَوِيَ قَلْبُهُ قَوِيَ بَدَنُهُ، وَأَمَا الْفَاجِرُ فَإِنَّهُ - وَإِنْ كَانَ قَوِيَ الْبَدَنِ - فَهُوَ أضعفُ شَيْءٍ عِنْدَ الْحَاجَةِ، فَتَحُونُهُ قُوَّتُهُ عِنْدَ أَحْوَجِ مَا يَكُونُ إِلَى نَفْسِهِ فَتَأْمَلُ قُوَّةَ أَبْدَانِ فَارِسَ وَالرُّومِ، كَيْفَ خَانَتْهُمْ، أَحْوَجَ مَا كَانُوا إِلَيْهَا، وَقَهَرَهُمْ أَهْلُ الْإِيمَانِ بِقُوَّةِ أَبْدَانِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ؟

ومنها: حِرْمَانُ الطَّاعَةِ، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ لِلذَّنْبِ عُقُوبَةٌ إِلَّا أَنْ يَصُدَّ عَنْ طَاعَةِ تَكُونُ بَدَلَهُ، وَيَقْطَعُ طَرِيقَ طَاعَةِ أُخْرَى، فَيَنْقَطِعَ عَلَيْهِ بِالذَّنْبِ طَرِيقُ ثَالِثَةٍ، ثُمَّ رَابِعَةٍ، وَهَلُمَّ جَرًّا، فَيَنْقَطِعَ عَلَيْهِ بِالذَّنْبِ طَاعَاتٌ كَثِيرَةٌ، كُلُّ وَاحِدَةٍ

مِنْهَا خَيْرٌ لَّهُ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا، وَهَذَا كَرَجُلٍ أَكَلَ أَكْلَةً أُوجِبَتْ لَهُ
مَرَضَةٌ طَوِيلَةٌ مَنَعَتْهُ مِنْ عِدَّةِ أَكَلَاتٍ أَطِيبَ مِنْهَا، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ. انتهى

الواحدة والثلاثون: فيها رد على الجبرية من القدرية الذين يزعمون أن العبد
مجبور على فعله وبيان ذلك من إضافة الله تعالى الفعل إلى آدم وإلى
الشیطان قال تعالى: { فَأَزْهَمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا } [البقرة: ٣٦] وقال عن
آدم وزوجه: { فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوَاتُهُمَا } [طه: ١٢١].

الثانية والثلاثون: فيها ذم الحرص وأنه قد يكون سببا في الحرمان من خير
عظيم فتأمل كيف حرص آدم على تلك الشجرة ففاته الجنة في حينه.

الثانية والثلاثون: فيها بيان للقاعدة أن من تعجل الشيء قبل أوانه عوقب
بجرمانه فآدم أراد الخلد في الجنة من الأكل من الشجرة فخرج منها والله
المستعان

الثالثة والثلاثون: الحذر من تلبیس الأعداء وخداعهم وأن زينوا ظواهرهم
ونمقوا أقولهم وهذا كان حال إبليس حين أغرى آدم عليه السلام على
الشجرة.

الرابعة والثلاثون: فيها بيان أن الحياة الدنيا متاع إلى الآخرة وهذا مأخوذ
من قوله تعالى: { وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ } [البقرة: ٣٦]

فمن كان على صالح العمل كان له من الله الجزاء الأوفى ومن كان من المشركين كان من أصحاب الجحيم.

الخامسة والثلاثون: فيها توفيق الله للعبد فمن وفقه الله تعالى فهو موفق وهذا مأخوذ من قوله تعالى { فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ } [البقرة: ٣٧]

قال شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى (١٦ / ٥٣١)

وَالْمُحْسِنُ إِذَا أَحْسَنَ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ لَهُ وَالْمُسِيءُ لَا حُجَّةَ لَهُ وَلَا عُذْرَ. انتهى وقال ابن القيم في الفوائد لابن القيم (ص: ٩٧)

وقد أجمع العارفون على أن كل خير فأصله بتوفيق الله للعبد وكل شر فأصله خذلانه لعبدِهِ وَأَجْمَعُوا أَنَّ التَّوْفِيقَ أَنَّ لَا يَكِلُكَ اللَّهُ نَفْسَكَ وَإِنْ الْخِذْلَانَ أَنْ يَخْلِي بَيْنَكَ وَبَيْنَ نَفْسِكَ انتهى.

السادسة والثلاثون: فيها فضل التوبة والاستغفار وحب الله تعالى لها قال تعالى: { فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } [البقرة: ٣٧] ومعلوم أن

أسماء الله تعالى أعلام وأوصاف فهو تواب يتوب علي عباده ويقبل التوبة منهم فيتجاوز عن سيئاتهم ويبدلها حسنات قال تعالى: { وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَمًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ

يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا { [الفرقان: ٦٨ - ٧٠].

السابعة والثلاثون: فيها بيان لما ذهب إليه بعض العلم من وجوب التلفظ بالتوبة قال ابن مفلح في الآداب الشرعية والمنح المرعية (١ / ٨٤) وَالتَّوْبَةُ هِيَ: النَّدْمُ عَلَى مَا مَضَى مِنَ الْمَعَاصِي وَالذُّنُوبِ، وَالْعَزْمُ عَلَى تَرْكِهَا دَائِمًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَا لِأَجْلِ نَفْعِ الدُّنْيَا أَوْ أَذَى، وَأَنْ لَا تَكُونَ عَنْ إِكْرَاهٍ أَوْ إِجْبَاءٍ، بَلْ اخْتِيَارًا حَالِ التَّكْلِيفِ، وَقِيلَ: يُشْتَرَطُ مَعَ ذَلِكَ: اللَّهُمَّ إِنِّي تَائِبٌ إِلَيْكَ مِنْ كَذَا، وَكَذَا، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، وَهُوَ ظَاهِرٌ مَا فِي الْمُسْتَوْعِبِ، فَظَاهِرٌ هَذَا اعْتِبَارُ التَّوْبَةِ بِالتَّلْفُظِ وَالِاسْتِغْفَارِ، وَلَعَلَّ الْمُرَادَ اعْتِبَارُ أَحَدِهِمَا وَمَ أَجْدَ مَنْ صَرَخَ بِاعْتِبَارِهِمَا وَلَا أَعْلَمُ لَهُ وَجْهًا.

وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ حَسَنٌ غَرِيبٌ عَنْ أَنَسٍ مَرْفُوعًا «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ وَلَا أُبَالِي يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقَيْتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لِأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً» فَقَوْلُهُ: ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَّقَ الْعُفْرَانَ عَلَى الْإِسْتِغْفَارِ دَلٌّ عَلَى اعْتِبَارِهِ، وَالْمُرَادُ أَنَّهُ اسْتَغْفَرَ مِنْ ذُنُوبِهِ تَوْبَةً وَإِلَّا فَلَا اسْتِغْفَارَ بِلَا تَوْبَةٍ لَا يُوجِبُ الْعُفْرَانَ قَالَ ذُو الثُّونِ الْمِصْرِيُّ: وَهُوَ تَوْبَةُ الْكَذَّابِينَ، وَلِهَذَا قَالَ فِي شَرْحِ مُسْلِمٍ: (بَابُ سُقُوطِ الذُّنُوبِ بِالِاسْتِغْفَارِ

تَوْبَةً) يُرِيدُ مَا فِي مُسْلِمٍ عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذُنُبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذُنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَيَغْفِرُ لَهُمْ» لَكِنَّ الإِسْتِغْفَارَ بِلَا تَوْبَةٍ فِيهِ أَجْزٌ كَغَيْرِهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا } [النساء: ١١٠] .

وَالأُولَى وَهُوَ أَنَّهُ لَا يُشْتَرَطُ ذَلِكَ هُوَ الَّذِي ذَكَرَهُ فِي الشَّرْحِ وَقَدَّمَهُ انْتَهَى

الثامنة والثلاثون: فيها التوسل بالأسماء الحسنى بين يدي المطلوب ويختار الاسم المناسب للمقام وقد قال تعالى: { وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا } [الأعراف: ١٨٠] ولما كان المقام مقام توبة وطلب رحمه قال هنا: { إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } [البقرة: ٣٧]

التاسعة والثلاثون: فيها أن العقاب الديني قد يعم وهذا مأخوذ من قوله اهبطوا وأدلة ذلك كثيرة منه قول الله تعالى: { وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً } [الأنفال: ٢٥] وفي صحيح البخاري (٣٣٤٦) عَنْ زَيْنَبِ بِنْتِ جَحْشٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، دَخَلَ عَلَيْهَا فَرَعًا يَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيَلُ لِّلْعَرَبِ مِنْ شَرِّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمٍ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلَ هَذِهِ» وَحَلَقَ بِإِصْبَعِهِ الإِبْهَامَ وَالتِّي

تليها، قَالَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَنْهَلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: «نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْحَبْثُ».

الأربعون: فيها بيان رحمة الله تعالى بعباده وذلك بإرسال الرسل وإنزال الكتب الذي يعرف بهما الهدى من الضلال وبيانه في قوله تعالى: {فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى} [البقرة: ٣٨] وقد بين الله تعالى في مواطن أخر هذا الأمر ومنه قوله تعالى: {ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ} [الأنعام: ١٥٤] {قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ} [الأنعام: ١٥٧] {قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [الأعراف: ٢٠٣] {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ} (٥٧) {قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ} [يونس: ٥٧، ٥٨] {وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [النحل: ٦٤] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على رحمة الله لعباده بإنزال الكتب وإرسال الرسل لإخراج الناس من الظلمات إلى النور قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: ١٠٧].

الواحدة والأربعون: فيها بيان فضل الإتيان لماء جاء عن الله لقوله تعالى: {فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا يَخَوْفُ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة: ٣٨]

والإتباع منزلته رفيعة ومكانه من الدين عظيم ولهذا جاءت الأدلة البينة في الأمر به قال تعالى: { اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مَن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ } [الأعراف: ٣] وقال جل ذكره: { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَئِكَ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ } [لقمان: ٢١] { ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مَن رَّبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ } [محمد: ٣] { قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ } [آل عمران: ٣١] وفي الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي (١ / ٣٨٨) قَالَ سُفْيَانُ: «مَلَكَ الْأَمْرِ الْإِتِّبَاعُ» وَعَبَدَ اللَّهُ بَنَ دَاوُدَ الْحُرِّيَّ ، يَقُولُ: «وَاللَّهِ لَوْ بَلَغْنَا أَنَّ الْقَوْمَ لَمْ يَزِيدُوا فِي الْوُضوءِ عَلَىٰ غَسَلِ أَظْفَارِهِمْ ، لَمَا زِدْنَا عَلَيْهِ» قَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ خُرَيْمَةَ: يُرِيدُ أَنَّ الدِّينَ الْإِتِّبَاعُ. وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ يَقُولُ: «الْإِتِّبَاعُ أَنْ يَتَّبِعَ الرَّجُلُ ، مَا جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَعَنْ أَصْحَابِهِ ، ثُمَّ هُوَ بَعْدُ فِي التَّابِعِينَ مُخَيَّرٌ».

الثانية والأربعون: فيها بيان انقسام الناس في الدنيا والآخرة قال السعدي في تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٠) وفي هذه الآيات وما أشبهها، انقسام الخلق من الجن والإنس، إلى أهل السعادة، وأهل الشقاوة، وفيها صفات

الفريقين والأعمال الموجبة لذلك، وأن الجن كالإنس في الثواب والعقاب، كما أنهم مثلهم، في الأمر والنهي. انتهى

الثالثة والأربعون: فيها بيان لما تقدم بسطه في أول سورة البقرة من الأعمال داخلة في مسمى الإيمان والهدى هو أسم عام للعلم والعمل ففي صحيح مسلم (٦٥٤) قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: «لَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنِ الصَّلَاةِ إِلَّا مُنَافِقٌ قَدْ عُلِمَ نِفَاقُهُ، أَوْ مَرِيضٌ، إِنْ كَانَ الْمَرِيضُ لَيَمْسِي بَيْنَ رَجُلَيْنِ حَتَّى يَأْتِيَ الصَّلَاةَ»، وَقَالَ: «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَّمَنَا سُنَنَ الْهُدَى، وَإِنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى الصَّلَاةَ فِي الْمَسْجِدِ الَّذِي يُؤَدَّنُ فِيهِ» و في صحيح مسلم (٢٢٨٢) عَنْ أَبِي مُوسَى، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْهُدَى، وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ عَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ، قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَاءَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَفَنَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَرَعَوْا، وَأَصَابَ طَائِفَةٌ مِنْهَا أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قَيْعَانُ لَا تُمْسِكُ مَاءً، وَلَا تُنْبِتُ كَلَاءً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فُقِّهَ فِي دِينِ اللَّهِ، وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ».

الرابعة والأربعون: وفيها الرد على الخوارج الذين يكفرون بمطلق المعصية وبيان ذلك أن آدم وحواء لم يكفرا بالمعصية ومذهب هؤلاء في الضلال

سحيق حيث يستبيحون دماء المسلمين بأدنى الشبه وفي العقيدة الواسطية:
 وَمِنْ أَصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ أَنَّ الدِّينَ وَالْإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ، قَوْلُ
 الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ، وَعَمَلُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ. وَأَنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ
 بِالطَّاعَةِ، وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ.

وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَا يُكْفَرُونَ أَهْلَ الْقِبْلَةِ بِمُطْلَقِ الْمَعَاصِي وَالْكَبَائِرِ؛ كَمَا
 يَفْعَلُهُ الْخَوَارِجُ؛ بَلِ الْأَخْوَةُ الْإِيمَانِيَّةُ ثَابِتَةٌ مَعَ الْمَعَاصِي؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ:
 { فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَحِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ } ، وَقَالَ: { وَإِنْ طَائِفَتَانِ
 مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى
 فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا
 بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ - إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا
 بَيْنَ أَخْوَيْكُمْ } . انتهى

الخامسة والأربعون: أن الأمن في الدنيا والآخرة بالتوحيد لقوله تعالى: { فَلَا
 خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } [البقرة: ٣٨] وقد قال تعالى: { الَّذِينَ آمَنُوا
 وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ } [الأنعام: ٨٢]
 قال ابن القيم في مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (٢/٢٧٣)

وَالْخَوْفُ دَائِمًا مَعَ الشَّرْكِ وَإِلَّا مِنْ دَائِمًا مَعَ التَّوْحِيدِ قَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنِ
 خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ أَنَّهُ قَالَ فِي مُحَاجَّتِهِ لِقَوْمِهِ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ بِهِ وَلَا

تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون فحكم الله عز وجل بين الفريقين بحكم فقال الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون وقد صحَّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تفسير الظلم فيها بالشرك وقال ألم تسمعوا قول العبد الصالح إن الشرك لظلم عظيم فالتوحيد من أقوى أسباب الأمن من المخاوف والشرك من أعظم أسباب حصول المخاوف ولذلك من خاف شيئا غير الله سلط عليه وكان خوفه منه هو سبب تسليطه عليه ولو خاف الله دونه ولم يخفه لكان عدم خوفه منه وتوكله على الله من أعظم أسباب نجاته منه وكذلك من رجا شيئا غير الله حرم ما رجاه منه وكان رجاؤه غير الله من أقوى أسباب حرمانه فإذا رجا الله وحده كان توحيد رجائه أقوى أسباب الفوز بما رجاه أو بنظيره أو بما هو أنفع له منه والله الموفق للصواب انتهى

السادسة والأربعون: فيها بيان فضل التوحيد وخطر الكفر والتكذيب وذلك من التوحيد من أسباب الخلود في الجنة والكفر من أسباب الخلود في النار وقد تكلمت عن فضائل التوحيد وخطر الشرك بتوسع في كتابي هداية القرآن إلى التوحيد.

السابعة والأربعون: فيها عظم ذنب القتل وسفك الدم المحرم لقوله تعالى: { أَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ } [البقرة: ٣٠] فذكروا الدم

دون غيره لعظم خطره وقد أفردت هذه المسألة بمؤلف مستقل والحمد لله وهو أحكام قتل النفس المعصومة ووما يدل على خطره قوله تعالى: { وَمَنْ يُقْتَلْ مُؤْمِنًا مَّتَعِمًّا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا } [النساء: ٩٣]

الثامنة والأربعون: فيها بيان الحكمة من الخلق وهو عمارة الدنيا بتوحيد الله وطاعته على ما تقدم وقال تعالى: { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ } [الذاريات: ٥٦ - ٥٨]

التاسعة والأربعون: فيها جواز التحدث بالنعمة للحاجة لا لقصد الفخر وهذا مأخوذ من قوله تعالى: { وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ } [البقرة: ٣٠]، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((أنا سيد الناس)) متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الخمسون: فيها بيان خطر التعالي والكبر وهما سبب كفر فرعون وإبليس قبل ذلك بل وأغلب المشركين من هذا الصنف قال تعالى: { إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ } [الصافات: ٣٥] وقال تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ } [غافر: ٦٠] وقال عن الملائكة: { وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ } [الأنبياء: ١٩] وقال عن فرعون:

{ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ } [النمل: ١٤] وقد تقدم قول إبليس:

الواحدة والخمسون: فيها بيان أن الله تعالى متكلم بحرف وصوت وقد تقدم بيانه في أول سورة البقرة.

الثانية والخمسون: فيها بيان أن الملائكة تتكلم ولهم عقول يفقهون بها.

الثالثة والخمسون: فيها ذم القياس الفاسد إذ كان ضلال إبليس من القياس الفاسد قال ابن كثير في قصص الأنبياء (١ / ٨): قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: قَاسَ إِبْلِيسُ وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ قَاسَ.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ: أَوَّلُ مَنْ قَاسَ إِبْلِيسَ، وَمَا عَبَدَتِ الشَّمْسُ وَلَا الْقَمَرَ إِلَّا بِالْمَقَائِيسِ، رَوَاهُمَا ابْنُ جَرِيرٍ.

وَمَعْنَى هَذَا أَنَّهُ نَظَرَ نَفْسَهُ بِطَرِيقِ الْمَقَايِيسَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ آدَمَ، فَرَأَى نَفْسَهُ أَشْرَفَ مِنْ آدَمَ فَامْتَنَعَ مِنَ السُّجُودِ لَهُ، مَعَ وَجُودِ الْأَمْرِ لَهُ وَلِسَائِرِ الْمَلَائِكَةِ بِالسُّجُودِ.

وَالْقِيَاسُ إِذَا كَانَ مُقَابِلًا بِالنَّصِّ كَانَ فَاسِدًا إِعْتِبَارًا.

ثُمَّ هُوَ فَاسِدٌ فِي نَفْسِهِ، فَإِنَّ الطِّينَ أَنْفَعُ وَخَيْرٌ مِنَ النَّارِ، لِأَنَّ الطِّينَ فِيهِ الرِّزَانَةُ وَالْحَلْمُ وَالْإِنَاةُ وَالنَّمُو، وَالنَّارُ فِيهَا الطِّيشُ وَالْخَفَةُ وَالسَّرْعَةُ وَالْإِحْرَاقُ.

ثمَّ آدم شرفه الله بخلقه له بيده ونفخه فيه من روحه، ولهذا أمر الملائكة بالسُّجود له، كما قال: " وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ .

فَإِذَا سُوِيْتَهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ .

فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ .

قال: يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين قال: لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون قال: فاخرج منها فإنك رجيم .

وإنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ " اسْتَحَقَّ هَذَا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِأَنَّهُ اسْتَلْزَمَ تَنْقِصَهُ لِآدَمَ وَازْدِرَاءَهُ بِهِ وَتَرْفُوعَهُ عَلَيْهِ مُحَالَفَةَ الْأَمْرِ الإِلَهِيِّ، وَمُعَانَدَةَ الْحَقِّ فِي النَّصِّ عَلَى آدَمَ عَلَى التَّعْيِينِ .

وَشَرَعَ فِي الإِعْتِدَارِ بِمَا لَا يُجْدِي عَنْهُ شَيْئًا، وَكَانَ اعْتِدَارُهُ أَشَدَّ مِنْ ذَنْبِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ سُبْحَانَ: " وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا؟ الآيات انتهى

إلى غير ذلك من الفوائد فكلام الله لا تنقضي عجائبه ولا تنقطع بركته وكلما ازداد العبد علما وفهما وفقها ظهر له من ذلك الشيء العظيم فهو كلام الله تعالى الذي لا تناقض فيه ولا اختلاف .

الرابعة والخمسون: فيها التحذير من الغرور بالدنيا لأنها ليست بدار قرار يؤخذ من قوله تعالى: **{ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ }** [البقرة: ٣٦]، وما كان حاله إلى زوال لا يركن إليه وقد قال تعالى: **{ اَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتْرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ }** [الحديد: ٢٠]، وقال تعالى: **{ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِّنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ }** [يونس: ٢٤].

الخامسة والخمسون: فيها الجمع بين البشارة والندارة وقد تقدم بيان ذلك حيث تكون البشارة في الغالب بالخير والندارة تحذير من الشر وقد وصف الله تعالى الأنبياء بقوله: **{ رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا }** [النساء: ١٦٥]، وذلك لأن البشارة وحدها قد تفضي إلى الأمان من مكر الله تعالى، والندارة وحدها قد تفضي إلى القنوط من رحمة الله تعالى وكلاهما خطره عظيم قال تعالى: **{ وَمَنْ يَقْنُطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ }** [الحجر: ٥٦]، وقال

تعالى: { أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يُأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ } [الأعراف: ٩٩]، وهذا مأخوذ من تبشير الله للمؤمنين بالأمن من الخوف والحزن وإنذار الكافرين بالنار كما تقدم.

السادسة والخمسون: فيها بيان المراقبة لله تعالى الذي لا يخفى عليه شيء يؤخذ من قوله تعالى: { إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ } [البقرة: ٣٣].

السابعة والخمسون: فيها بيان للحوار المشروع وهذا حوار بين الله تعالى والملائكة تحقق منهم ما أخبر الله عنهم به من عدم اعتراضهم، بينما إبليس لزم العناد والكبر وقد تكلمت على ضوابط الحوار وشروطه في كتابي الزجر والبيان لدعاة الحوار والتقارب بين الأديان.

الثامنة والخمسون: فيها الاستدلال بالجلي على الخفي حيث استدلوا بما وقع ممن خلقهم الله قبل آدم على قول في تفسير الآية وقد تقدم.

التاسعة والخمسون: فيها رد على الرافضة الذين يسبون أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم حيث وهم أي الصحابة داخلون دخولا أوليا فيمن تبع هدى الله الذي أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم.

الستون: فيها فضيلة ظاهرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم حيث إضافة الربوبية إليه وقد تقدم بيان أن الربوبية الخاصة مقتضية للنصر والتأييد والحفظ.

الواحدة والستون: فيها بيان أن الشر إلى الله ليس بشر محض فهذا إبليس رأس الشر خلقه الله تعالى لحكمة وهذا معنى حديث علي رضي الله عنه ((والشر ليس إليك)) أخرجه مسلم.

الثانية والستون: فيها بيان قوة الحجّة ووجوب الرجوع إليها بعد ظهورها ومعرفتها وهذا مأخوذ من رجوع الملائكة.

الثالثة والستون: فيها بيان أن المعرض لا ينتفع بالموعظة مأخوذ من عدم انقياد إبليس وقد قال تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

الرابعة والستون: فيها أهمية التقرير فإنه أبلغ في معرفة الفضل مأخوذ من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٣٣] وفي الصحيحين مختصر عن عبد الله بن زيد بن عاصم قال: لَمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ -صلى الله عليه وسلم- يَوْمَ حُنَيْنٍ؛ قَسَمَ فِي النَّاسِ فِي الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ، وَلَمْ يُعْطِ الْأَنْصَارَ شَيْئًا، فَكَأَنَّهُمْ وَجَدُوا إِذْ لَمْ يُصِْبَهُمْ مَا أَصَابَ النَّاسَ، فَخَطَبَهُمْ، فَقَالَ:

«يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ! أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضَالًّا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ بِي؟ وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللَّهُ بِي؟ وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ بِي؟»، كُلَّمَا قَالَ شَيْئًا قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْنٌ. قَالَ: «مَا يَمْنَعُكُمْ أَنْ تُجِيبُوا رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم؟». قَالَ: كُلَّمَا قَالَ شَيْئًا قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْنٌ. قَالَ:

«لَوْ شِئْتُمْ قُلْتُمْ: جِئْتَنَا كَذًّا وَكَذًّا، أَتَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ، وَتَذْهَبُونَ بِالنَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - إِلَى رِحَالِكُمْ؟! لَوْلَا الْهَجْرَةُ، لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَاوِيًّا وَشِعْبًا؛ لَسَلَكَتُ وَاوِيَّ الْأَنْصَارِ وَشِعْبَهَا، الْأَنْصَارُ شِعَارٌ، وَالنَّاسُ دِتَارٌ، إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثْرَةً، فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ».

الخامسة والستون: فيها دليل للقاعدة الأصولية أن أوامر الله تعالى، ورسوله صلى الله عليه وسلم تفيد الوجوب، حتى تدل قرينة على صرفه إلى الاستحباب، وأدلة هذه القاعدة كثيرة في الكتاب والسنة منها قوله تعالى: ومن الأدلة على ذلك:

أولاً: من القرآن الكريم قوله تعالى: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النور: ٦٣]، ولو لم يكن الأمر للوجوب لما رتب الله على مخالفته إصابة الفتنة أو العذاب الأليم.

وقوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ} [الأحزاب: ٣٦]، فنفى الله عن المؤمنين

الخيرة إذا ورد الأمر، وهذا هو معنى الوجوب والإلزام، ومن السنة قوله -
 صلى الله عليه وسلم - : «لولا أن أشق على أمتي - أو على الناس -
 لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة»، ومعلوم أنه - صلى الله عليه وسلم -
 ندب أمته إلى السواك، والندب غير شاق، فدل على أن الأمر يقتضي
 الوجوب فإنه لو أمر لوجب وشق.

ومن الأدلة على أن الأمر يفيد الوجوب أيضا إجماع الصحابة رضي الله
 عنهم على امتثال أوامر الله تعالى ووجوب طاعته من غير سؤال النبي -
 صلى الله عليه وسلم - عما عنى بأوامره.

السادسة والستون: فيها دليل للقاعدة الأصولية أن الأمر على الفور حتى
 تدل قرينة على التأخير والدلالة من مسارعة الملائكة إلى السجود، وقد
 اختلف العلماء في الأمر المجرد عن القرائن، هل يدل على الفور وسرعة
 المبادرة والامتثال، أو على التراخي؟

وكونه دالاً على الفور اختيار ابن قدامة وابن القيم وابن النجار الفتوحي
 والشنقيطي، والأدلة على أنه يدل على الفور كثيرة منها قوله تعالى:
 { وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ } [آل عمران: ١٣٣] ، { فَاسْتَبِقُوا
 الْحَيْرَاتِ } [البقرة: ١٤٨، المائدة: ٤٨].

قال ابن القيم في زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ٢٧٣):

أَنَّ الْأَمْرَ الْمُطْلَقَ عَلَى الْفَوْرِ وَإِلَّا لَمْ يَغْضَبْ لِتَأْخِيرِهِمُ الْإِمْتِثَالَ عَنْ وَقْتِ الْأَمْرِ، وَقَدْ اعْتَذَرَ عَنْ تَأْخِيرِهِمُ الْإِمْتِثَالَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَرْجُونَ النَّسْخَ، فَأَخْرَجُوا مُتَأَوِّلِينَ لِذَلِكَ، وَهَذَا الْإِعْتِدَارُ أَوْلَى أَنْ يُعْتَذَرَ عَنْهُ، وَهُوَ بَاطِلٌ؛ فَإِنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَوْ فَهِمَ مِنْهُمْ ذَلِكَ لَمْ يَشْتَدَّ غَضَبُهُ لِتَأْخِيرِ أَمْرِهِ، وَيَقُولُ: (« مَا لِي لَا أَعْضَبُ وَأَنَا أَمُرُ بِالْأَمْرِ فَلَا أُتَّبَعُ ») وَإِنَّمَا كَانَ تَأْخِيرُهُمْ مِنَ السَّعْيِ الْمَغْفُورِ لَا الْمَشْكُورِ، وَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَغَفَرَ لَهُمْ وَأَوْجَبَ لَهُمُ الْجَنَّةَ. انتهى

السابعة والستون: فيها دلالة على أن الأمر يفيد التكرار إلا إذا دلت قرينة على عدمه وهو مأخوذ هنا من قوله تعالى: { فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } [البقرة: ٣٨] وهذا يقتضي التكرار.

قال ابن القيم في جلاء الأفهام (ص: ٣٨٦)

أَنَّ الْأَمْرَ الْمُطْلَقَ يَقْتَضِي التَّكْرَارَ وَهَذَا مُخْتَلَفٌ فِيهِ فَنَفَاهُ طَائِفَةٌ مِنَ الْفُقَهَاءِ وَالْأَصُولِيِّينَ وَأَثَبْتَهُ طَائِفَةٌ وَفَرَقَتْ طَائِفَةٌ بَيْنَ الْأَمْرِ الْمُطْلَقِ وَالْمُعْلَقِ عَلَى شَرْطٍ أَوْ وَقْتٍ فَأَثَبَتِ التَّكْرَارَ فِي الْمُعْلَقِ دُونَ الْمُطْلَقِ وَالْأَقْوَالِ الثَّلَاثَةَ فِي مَذْهَبِ أَحْمَدَ وَالشَّافِعِيِّ وَغَيْرِهِمَا وَرَجَحَتْ هَذِهِ الطَّائِفَةُ التَّكْرَارَ بِأَنَّ عَامَّةَ أَوْامِرِ الشَّرْعِ عَلَى التَّكْرَارِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى { آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ } آلِ عِمْرَانَ ١٣٦ { ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً } الْبَقَرَةَ ٢٠ { وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ } النَّسَاءِ ٥٩ { وَاتَّقُوا اللَّهَ } الْبَقَرَةَ ١٩٤ { وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ }

الْبَقْرَةَ ٣٤ وَقَوْلُهُ تَعَالَى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } آل عمران ٢٠٠ وَقَوْلُهُ تَعَالَى { وَخَافُونَ } آل عمران ١٧٥ { وَاخْشَوْنِي } الْبَقْرَةَ ١٥٠ { وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ } الْحُجَّ ٧٨ { وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا } آل عمران ١٠٣ { وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ } النَّحْل ٩١ وَ { وَأَوْفُوا بِالْعُقُودِ } الْمَائِدَةَ ١ { وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ } الْإِسْرَاءُ ٣٤ وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي الْيَتَامَى { وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ } النَّسَاءُ ٥ وَقَوْلُهُ { إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ } إِلَى أَنْ قَالَ: وَذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يَنْحَصَرَ وَإِذَا كَانَتْ أَوْامِرُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ عَلَى التَّكْرَارِ حَيْثُ وَرَدَتْ إِلَّا فِي النَّادِرِ عِلْمٌ أَنَّ هَذَا عَرَفَ خُطَابَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِلْأُمَّةِ وَالْأَمْرُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي لَفْظِهِ الْمُجَرَّدِ مَا يُؤْذَنُ بِتَكَرُّارٍ وَلَا فَوْرٍ فَلَا رَيْبَ أَنَّهُ فِي عَرَفِ خُطَابِ الشَّارِعِ لِلتَّكْرَارِ فَلَا يَحْمِلُ كَلَامَهُ إِلَّا عَلَى عَرَفِهِ وَالْمَأْلُوفِ مِنْ خُطَابِهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مَفْهُومًا مِنْ أَصْلِ الْوَضْعِ فِي اللُّغَةِ. انْتَهَى

الثامنة والستون: فيها دلالة على أن النهي يقتضي التحريم إلا إذا دلت قرينة على صرفه إلى الكراهة وهذا مأخوذ من قوله تعالى: { وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ } [البقرة: ٣٥]، قال ابن القيم في بدائع الفوائد (٤ / ٣): ويستفاد التحريم من النهي والتصريح بالتحريم والحظر والوعيد على الفعل ودم الفاعل وإيجاب الكفارة بالفعل وقوله (لا ينبغي) فإنها في لغة القرآن والرسول للمنع عقلاً أو شرعاً ولفظة (ما كان لهم كذا

ولم يكن لهم) وترتيب الحد على الفعل ولفظة (لا يجل ولا يصلح) ووصف الفعل بأنه فساد وأنه من تزيين الشيطان وعمله وإن الله لا يجبه وأنه لا يرضاه لعباده ولا يزيكي فاعله ولا يكلمه ولا ينظر إليه ونحو ذلك. انتهى.

التاسعة والستون: فيه بيان أن المباح أكثر من الممنوع وهذا دليل على سعة رحمة الله وفضله وهذا مأخوذ من قوله تعالى: { وَكَلَّا مِنْهَا رَعْدًا حَيْثُ شِئْتُمَا } [البقرة: ٣٥]، وقد تقدم معنا عند قوله تعالى: { هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا } [البقرة: ٢٩] أن الأصل في المطعوم الإباحة حتى يأتي دليل الحظر قال الأقفهسي في منظومة ما يجل ويحرم من الحيوان:

فَالشَّافِعِيُّ: وَالْحَلَالُ مَا لَمْ يَأْتِ دَلِيلُ الْحُظْرِ فِيهِ الْعَالَمُ

فَكُلُّ مَا عَنهُ النَّبِيُّ قَدْ سَكَتَ = فَرَحْمَةٌ وَاسِعَةٌ لِمَنْ صَمَتَ

وَعِنْدَ غَيْرِ الْحَلَالِ مَا لَا يُرَى دَلِيلُ الْحِلِّ فِيهِ حَالًا

فَالشَّافِعِيُّ وَسَّعَ الْمَطَاعِمَ = وَهُوَ الَّذِي يَلِيقُ بِالْمَرَا حِمِّ

وَعَيْرُهُ مِثْلُ أَبِي حَنِيفَةَ = قَدْ جَعَلَ الْمَسْكُوتَ مِثْلَ الْجَيْفَةِ

فَعِنْدَهُ الْحَلَالُ مَا فِيهِ أَذْنٌ = وَالْحِلُّ فِي الْمَسْكُوتِ وَقَفُّ لَمْ يَبْنِ

بَنَوْا عَلَى هَذَا صُيُودًا تُشَكِلُ = فَعِنْدَنَا غَنِيمَةٌ فَلْتَوَكَّلُوا.

السبعون: فيها دلالة على وجوب الإخلاص، والمتابعة وهما شرطا قبول العمل وهذا مستنبط من قوله تعالى: { فَأَمَّا يَا تِيزَكُم مِّنِّي هُدَى فَمَنْ تَبَعَ

هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة: ٣٨] ومعلوم أن المتبع هو المخلص لله تعالى، والمتابع لرسوله صلى الله عليه وسلم.

الواحدة والسبعون: فيها دلالة أن العبادات توقيفية ولا تقوم على الرأي والهوى ودليل ذلك أن الله تعالى رد الناس إلى اتباع الشرع المنزل وهذا من قوله تعالى: {فَأِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى} [البقرة: ٣٨].

الثانية والسبعون: فيها رد على من زعم تقديم العقل على النقل وذلك لأن الله تعالى أمرنا باتباع هدايه ووحيه لا بالعقل المجرد، وأقبح منه أن يقدم العقل على النقل قال ابن القيم في مختصر الصواعق المرسله على الجهمية والمعطلة (ص: ١١٥)

أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ تَمَّ الدِّينَ بِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَمَّلَهُ بِهِ، وَلَمْ يُحْوَجْهُ هُوَ وَلَا أُمَّتُهُ إِلَى عَقْلِ وَلَا نَقْلِ سِوَاهُ وَلَا رَأْيٍ وَلَا مَنَامٍ وَلَا كَشْفٍ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة: ٣] وَأَنْكَرَ عَلَيَّ مَنْ لَمْ يَكْتَفِ بِالْوَحْيِ فَقَالَ: {أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [العنكبوت: ٥١] ذَكَرَ هَذَا جَوَابًا لَطَلَبِهِمْ آيَةَ تَدُلُّ عَلَى صِدْقِهِ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ يَكْفِيهِمْ مِنْ كُلِّ آيَةٍ، فَلَوْ كَانَ مَا تَضَمَّنَتْهُ مِنَ الْإِخْبَارِ عَنْهُ وَعَنْ صِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُنَاقِضُ الْعَقْلَ لَمْ يَكُنْ دَلِيلًا عَلَى صِدْقِهِ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ كَافِيًا، وَسَيَأْتِي فِي **الْوَجْهِ**

الَّذِي بَعْدَ هَذَا بَيَانٌ أَنَّ تَقْدِيمَ الْعَقْلِ عَلَى النَّقْلِ يُبْطِلُ كَوْنَ الْقُرْآنِ آيَةً
وَبُرْهَانًا عَلَى صِحَّةِ النُّبُوَّةِ.

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ تَمَّمَ الدِّينَ وَأَكْمَلَهُ بِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
وَمَا بَعَثَهُ بِهِ فَلَمْ يُخَوِّجْ أُمَّتَهُ إِلَى سِوَاهُ، فَلَوْ عَارَضَهُ الْعَقْلُ وَكَانَ أَوْلَى
بِالتَّقْدِيمِ مِنْهُ لَمْ يَكُنْ كَافِيًا لِلْأُمَّةِ وَلَا تَامًّا فِي نَفْسِهِ. انتهى

الثالثة والسبعون: فيها دليل على أن الحق واحد لقوله {فإما يأتينكم مني
هدى} قال ابن القيم في أحكام أهل الذمة (٢/ ٨٣٦)

وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يَذْكُرُ الْحَقَّ وَاهْدَى وَإِلْسْلَامَ، وَيَجْعَلُهُ وَاحِدًا، وَيَذْكُرُ الْبَاطِلَ
وَالضَّلَالَ وَالْكَفَرَ وَيَجْعَلُهُ مُتَعَدِّدًا، قَالَ تَعَالَى: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا
فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ} [الأنعام: ١٥٣] ، وَقَالَ
تَعَالَى: {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
أُولِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ} [البقرة: ٢٥٧] ،
وَقَالَ تَعَالَى: {وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ - فَتَقَطَّعُوا
أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} [المؤمنون: ٥٢ - ٥٣] ،
وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: «خَطَّ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - خَطًّا، وَقَالَ: هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ
وَعَنْ شِمَالِهِ، وَقَالَ: هَذِهِ سُبُلٌ، عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ، ثُمَّ قَرَأَ

قَوْلُهُ: { وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكَمَ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } [الأنعام: ١٥٣] .

الرابعة والسبعون: فيها بيان أن الله تعالى لم يخلق الخلق عبثاً ولم يتركهم

هملاً قال ابن القيم في إعلام الموقعين عن رب العالمين (١ / ١٠٨)

مِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: { أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى } [القيامة: ٣٦] { أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى } [القيامة: ٣٧] { ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى } [القيامة: ٣٨] { فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى } [القيامة: ٣٩] { أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى } [القيامة: ٤٠] .

فَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ كَيْفِيَّةَ الْخَلْقِ وَاخْتِلَافِ أَحْوَالِ الْمَاءِ فِي الرَّحِمِ إِلَى أَنْ صَارَ مِنْهُ الزَّوْجَانِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى، وَذَلِكَ أَمَارَةٌ وَجُودِ صَانِعٍ قَادِرٍ عَلَى مَا يَشَاءُ، وَنَبَّهَ سُبْحَانَهُ: عِبَادَهُ بِمَا أَحْدَثَهُ فِي النُّطْفَةِ الْمُهَيَّئَةِ الْحَقِيرَةِ مِنْ الْأَطْوَارِ، وَسَوَّقَهَا فِي مَرَاتِبِ الْكَمَالِ مِنْ مَرْتَبَةٍ إِلَى مَرْتَبَةٍ أَعْلَى مِنْهَا، حَتَّى صَارَتْ بَشَرًا سَوِيًّا فِي أَحْسَنِ خَلْقٍ وَتَقْوِيمٍ - عَلَى أَنَّهُ لَا يَحْسُنُ بِهِ أَنْ يُتْرَكَ هَذَا الْبَشَرُ سُدًى مُهْمَلًا مُعْطَلًا لَا يَأْمُرُهُ وَلَا يَنْهَاهُ وَلَا يُقِيمُهُ فِي عُبُودِيَّتِهِ، وَقَدْ سَاقَهُ فِي مَرَاتِبِ الْكَمَالِ مِنْ حِينَ كَانَ نُطْفَةً إِلَى أَنْ صَارَ بَشَرًا سَوِيًّا، فَكَذَلِكَ يَسَوِّقُهُ فِي مَرَاتِبِ كَمَالِهِ طَبَقًا بَعْدَ طَبَقٍ وَحَالًا بَعْدَ حَالٍ إِلَى أَنْ يَصِيرَ جَارَهُ فِي دَارِهِ يَتَمَتَّعُ بِأَنْوَاعِ النَّعِيمِ، وَيَنْظُرُ إِلَى وَجْهِهِ، وَيَسْمَعُ كَلَامَهُ.

انتهى

بل خلقهم لعبادته وأرسل إليهم رسلا يبشرونهم وينذرونهم على ما تقدم.

الخامسة والسبعون: فيه بيان لمسألة العذر بالجهل وذلك في قوله تعالى: **{ فإما يأتينكم مني هدى }** وقد قال تعالى: **{ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا }** [الإسراء: ١٥] قال الشنقيطي في أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٣ / ٦٥): **قَوْلُهُ تَعَالَى: وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا }** ظَاهِرُ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا لَا يُعَذِّبُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ. حَتَّى يَبْعَثَ إِلَيْهِ رَسُولًا يُنذِرُهُ وَيُحَذِّرُهُ، فَيَعْصِي ذَلِكَ الرَّسُولَ، وَيُسْتَمِرُّ عَلَى الْكُفْرِ وَالْمَعْصِيَةِ بَعْدَ الْإِنذَارِ وَالْإِعْذَارِ.

وَقَدْ أَوْضَحَ جَلَّ وَعَلَا هَذَا الْمَعْنَى فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: رَسُولًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ [٤ \ ١٦٥] ، فَصَرَّحَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ بِأَنَّ لَا بُدَّ أَنْ يَقْطَعَ حُجَّةَ كُلِّ أَحَدٍ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ، مُبَشِّرِينَ مَنْ أَطَاعَهُمْ بِالْحَقَّةِ، وَمُنذِرِينَ مَنْ عَصَاهُمْ النَّارَ.

وَهَذِهِ الْحُجَّةُ الَّتِي أَوْضَحَ هُنَا قَطْعَهَا بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ، بَيْنَهَا فِي آخِرِ سُورَةِ طه بِقَوْلِهِ: وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنُحْزَى [٢٠ \ ١٣٤] .

وَأَشَارَ لَهَا فِي سُورَةِ الْقَصصِ بِقَوْلِهِ: وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمْتْ أَيْدِيَهُمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ [٢٨ \ ٤٧] ، وَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ

الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ [٦ \ ١٣١] ، وَقَوْلِهِ: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ الْآيَةَ [٥ \ ١٩] ، وَكَقَوْلِهِ: وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ الْآيَةَ [٦ \ ١٥٥ - ١٥٧] ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ .

وَيُوضِّحُ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَاتُ الْمَذْكُورَةُ وَأَمْثَالُهَا فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ مِنْ أَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا لَا يُعَذِّبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ الْإِنذَارِ وَالْإِعْذَارِ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، تَصْرِيحُهُ جَلَّ وَعَلَا فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ: " بِأَنَّ لَمْ يَدْخُلْ أَحَدًا النَّارَ إِلَّا بَعْدَ الْإِعْذَارِ وَالْإِنذَارِ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: كُلَّمَا أَلْقَيْ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ الْآيَةَ [٦٧ \ ٨] ، [٩] .

وَمَعْلُومٌ أَنَّ قَوْلَهُ جَلَّ وَعَلَا: كُلَّمَا أَلْقَيْ فِيهَا فَوْجٌ يَعُمُّ جَمِيعَ الْأَفْوَاجِ الْمُلْقِينَ فِي النَّارِ .

قَالَ أَبُو حَيَّانَ فِي " الْبَحْرِ الْمُحِيطِ " فِي تَفْسِيرِهِ هَذِهِ الْآيَةَ الَّتِي حُجِّنُ بِصَدَدِهَا مَا نَصَّهُ: " وَكُلَّمَا " تَدُلُّ عَلَىٰ عُمُومِ أَرْزَمَانِ الْإِلْقَاءِ فَتَعُمُّ الْمُلْقِينَ ،

وَمَنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ [٣٩ \ ٧١] ، وَقَوْلُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَامًّا لِجَمِيعِ الْكُفَّارِ.

وَقَدْ تَقَرَّرَ فِي الْأُصُولِ: أَنَّ الْمَوْصُولَاتِ كَالَّذِي وَالَّتِي وَفُرُوعِهِمَا مِنْ صِيغِ الْعُمُومِ، لِعُمُومِهَا فِي كُلِّ مَا تَشْمَلُهُ صِلَاتُهَا، وَعَقْدُهُ فِي مَرَاقِبِ السُّعُودِ بِقَوْلِهِ فِي صِيغِ الْعُمُومِ:

صِيغَةُ كُلِّ أَوْ الْجَمِيعِ ... وَقَدْ تَلَا الَّذِي الَّتِي الْفُرُوعِ

وَمُرَادُهُ بِالْبَيْتِ: أَنَّ لَفْظَةَ "كُلِّ، وَجَمِيعِ، وَالَّذِي، وَالَّتِي" وَفُرُوعِهَا كُلُّ ذَلِكَ مِنَ الصِّيغِ الْعُمُومِ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا - إِلَىٰ قَوْلِهِ - قَالُوا بَلَىٰ [٣٩ \ ٧١] عَامًّا فِي جَمِيعِ الْكُفَّارِ، وَهُوَ ظَاهِرٌ فِي أَنَّ جَمِيعَ أَهْلِ النَّارِ قَدْ أُنذِرْتَهُمُ الرُّسُلُ فِي دَارِ الدُّنْيَا، فَعَصَوْا أَمْرَ رَبِّهِمْ كَمَا هُوَ وَاضِحٌ.

وَنَظِيرُهُ أَيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَى: وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ بَجَزِي كُلِّ كَافُورٍ وَهُمْ يَصْطَرِّخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ [٣٥ \ ٣٦] ، فَقَوْلُهُ:

وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ - إِلَى قَوْلِهِ - وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ [٣٥ \ ٣٧] ،
عَامٌّ أَيْضًا فِي جَمِيعِ أَهْلِ النَّارِ، كَمَا تَقَدَّمَ إِيْضَاحُهُ قَرِيبًا.

وَنَظِيرُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزْنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ أَوْ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ [٤٠ \ ٤٩ ، ٥٠] ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ جَمِيعَ أَهْلِ النَّارِ أُنذِرْتَهُمُ الرُّسُلُ فِي دَارِ الدُّنْيَا.

وَهَذِهِ الْآيَاتُ الَّتِي ذَكَرْنَا وَأَمَثَلُهَا فِي الْقُرْآنِ تَدُلُّ عَلَى عُذْرِ أَهْلِ الْفُتْرَةِ بِأَنَّهُمْ لَمْ يَأْتِهِمْ نَذِيرٌ وَلَوْ مَاتُوا عَلَى الْكُفْرِ، وَهَذَا قَالَتْ جَمَاعَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْعِلْمِ. انتهى

السادسة والسبعون: فيها بيان أن الكافر لا ينفعه عمل وهذا من قوله تعالى: { وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [البقرة: ٣٩] ، ومن قوله تعالى: { وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ } [البقرة: ٣٤] ، فلم يقبل منه عمل، ولم ينتفع بعمل مما تقدم، ويوضح هذا قوله تعالى: { قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا } [الكهف: ١٠٣ - ١٠٥] وعند مسلم (٢١٤): عَنْ عَائِشَةَ قُلْتُ: يَا

رَسُولَ اللَّهِ، ابْنُ جُدْعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ، وَيُطْعِمُ الْمَسْكِينِ، فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ؟ قَالَ: " لَا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ " .

هذا بعض ما منّ الله تعالى عليّ به من الفوائد المستنبطة من هذه القصة العظيمة من سورة البقرة ولو أردنا المرور على بقية الفوائد من بقية السور لطال المقام وخرجنا عن المقصود والله المستعان .

والحمد لله رب العالمين .